

البدايات

بأُكُورَةُ ائِمْمَالِي الفِكْرِية



اِمَامُ المِزَاة .. وَمَقَالُ آخِر ..
فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَالْحَقِّ ..
الْمَذْهَبُ لِقَضَائِي بَيْنِ الشُّبُوعِيَّةِ وَالْإِسْلَام ..
دِفَاعٌ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالتَّارِيخِ
مَقَابِلُ عَنْ نَشْأَةِ الْقَوْمِيَّةِ .



مُحَمَّدُ سَعِيدُ رَمَضَانَ الْبُوطِي

البدايات باكورة أعمال الفكرية

البدايات: باكورة أعمال الفكرية / محمد سعيد رمضان

البوطي . - دمشق : دار الفكر ، ٢٠٠٩ . -

٣٥٢ ص ؛ ٢٤ سم .

١- ٢١٠،٢ ب و ط ب ٢- ١٢ - ب و ط ب

٣- العنوان ٤- البوطي

مكتبة الأمد

د. محمد سعيد رمضان البوطي
عفا الله عنه

البدايات باكورة أعمال الفكرية





كلمة سواء

2013 = 1434

دار الفكر - دمشق | دار الفكر المعاصر - بيروت
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١ | ٠٠٩٦٣ ١١ ٨٦٠٧٣٩

<http://www.fikr.com> - e-mail: fikr@fikr.net

البدايات

باكورة أعمال الفكرية

د. محمد سعيد رمضان البوطي

الرقم الاصطلاحي: 2177.011

الرقم الدولي: 1-042-10-9933-978 ISBN

الرقم الموضوعي: 210 (دراسات إسلامية)

189 ص، 17 × 25 سم

الطبعة الثانية: 1434هـ = 2013م

© جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمه الظاهرة والباطنة كلها ما علمنا منها وما لم نعلم، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه أجمعين. اللهم أعني على ما أقمتني فيه بما يرضيك، وجنبني مزالق الردى وارزقني الإخلاص لوجهك الكريم.

مقدمة

فاتحة نشاطي العلمي والأدبي في المجتمع

كانت مرحلة التأسيس في رحلتي العلمية، عند الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، وبين تلاميذه الذين كانوا شيوخاً لي آنذاك. وأشربت في تلك المرحلة حب الأدب، والمقالة، فكنت أنصرف إليهما أكثر مما أنصرف إلى دروسي العلمية الشرعية، على أنني ظلت متفوقاً فيها. كنت أقرأ كثيراً لمصطفى صادق الرافعي ولعلي الطنطاوي، وأتبع مقالاتهما ومقالات أمثالهما في مجلة الرسالة القاهرية التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات، رحمهم الله جميعاً.

كان ذلك ما بين عام 1947 وعام 1952.

كان يستهويني فن المقالة، لاسيما افتتاحيات الزيات في الرسالة ومقالات الرافعي والطنطاوي والعقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني.. وكنت أجز نفسي جرأً، وأتسلق الأسباب مهما صعبت أو بعدت، لأرقى إلى حيث أصبح واحداً من هؤلاء، من حيث القدرة على امتلاك ناصية اللغة، وعرض المشاعر النفسية العميقة والدقيقة على الورق...

وخضت أول تجربة في السعي إلى ذلك عام 1949 فيما أذكر، فجربت حظي في كتابة أول مقال، كان رأس مالي في الاندفاع إليه حالة نفسية انتابتنى وأنا أطلع نفسي في المرأة.. ولما انتهيت من كتابته، وأنا بين الشك واليقين في هذا الذي وقفتني الله له، أصبح همي الذي لا يبارحني البحث عن مجلة أو جريدة تعطف عليّ فتنتشر لي هذه +الصفحات التي غدت أثمن شيء في حياتي.

وهُديت إلى مجلة التمدن الإسلامي التي كان يصدرها الأستاذ أحمد مظهر العظمة رحمه الله.. لم أتردد في زيارة رئيس تحريرها هذا، دون أن أهتم بصغر سني الذي لم يكن يتجاوز التاسعة عشرة، وانعزالي عن المجتمع وأنشطته قابعاً في حجرة من حجرات جامع منجك، طالب علم بسيطاً. استقبلني الأستاذ أحمد مظهر العظمة خير استقبال، ولما قدّمت له المقال بيدٍ أحسب أنها كانت ترتجف، أخذه متبسماً ثم مشجعاً، ويبدو أن العنوان لفت نظره «أمام المرأة» فراح يستعرضه ويقلب صفحاته، ثم شكر هذا الطالب الصغير، ووعد بنشره في أول عدد قادم.

عدت والفرحة الغامرة ملء كياني.. عدت وأنا أقارن بين زملائي وبعض مشايخي الذين كانوا يسخرون من محاولاتي ويتندرون بها، وبين صاحب المجلة الأستاذ العظمة الذي كان شخصية علمية بارزة في المجتمع آنذاك، والذي مضى في تشجيعه لي وإبراز مشاعر الإعجاب بي إلى أقصى الحدود.

وبعد شهر ونيف كان أول عمل فكري لي قد أخذ طريقه إلى النشر، وكانت المجلة التي نشرت باكورة نشاطاتي العلمية والفكرية «مجلة التمدن الإسلامي» ولم يكن فرحي بنشر المقال يعادل فرحي بلقب (الأديب) الذي أضفاه عليّ رئيس التحرير مقروناً باسمي، تشجيعاً وتغطية لصالتي العلمية والثقافية آنذاك.

كتبت بعدها ثلاث مقالات أو أربعاً في تلك المجلة مندفعاً إلى ذلك بتشجيع رئيس تحريرها لي ومظهراً من الإعجاب بي ما لا أستحقه.

ولما أنهيت دراستي الثانوية وشيئاً مما فوقها وتحولت إلى الأزهر لاستكمال دراستي الجامعية فيها، كان وقود التشجيع لي يعمل عمله في كياني دون أن يبرد أو يتراجع، فأخذت أرسل من

القاهرة في كل أسبوع مقالاً أدبياً أو اجتماعياً إلى جريدة (الأيام) التي كان يصدرها المرحوم نصح بابيل تحت عنوان «من أسبوع إلى أسبوع» كان ذلك خلال عام 1954-1955. ولما قامت الوحدة بين سورية ومصر عام 1958 طافت بنفسي تلك النشوة التي طافت آنذاك بنفس كل مسلم عربياً أم أعجمياً، وبفس كل عربي مسلماً كان أم مسيحياً مع الإعجاب ببطل تلك الوحدة، فكتبت مقالات أخرى من وحي تلك الوحدة. ثم إنني نشرتها جميعاً في أول كتاب صدر لي باسم «في سبيل الله والحق».

ولما عدت إلى دمشق بعد حصولي على الإجازة في الشريعة من كلية الشريعة بالأزهر عام 1955 ثم على دبلوم التربية من كلية اللغة العربية فيها عام 1956، وقع في يدي كتاب اسمه (التاريخ العباسي) للأستاذ شاكر مصطفى رحمه الله، فيه مغالطات كثيرة ورأيت محشواً بكثير من الأفكار الباطلة والساقطة التي يخلطها المستعمرون والمستشرقون في حق تاريخنا، فأصدرت خلال أسابيع رسالة عنوانها «دفاع عن الإسلام والتاريخ» فكان هذا هو الكتاب الثاني الذي تم نشره لي.

ولما عُيِّنَ مدرساً للتربية الدينية في حمص عام 1958 - وكان مجتمعنا يزهو آنذاك بألق الوحدة العربية بين سورية ومصر في ظل حكم جمال عبد الناصر - دعيت خلال ذلك العام إلى إلقاء محاضرة في المركز الثقافي بحمص، فاستجبت، وألقيت محاضرة عنوانها: «المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام» ثم إنني توسعت فيها وأخرجتها بهذا العنوان في كتاب. وفي ذلك العام أو العام الذي يليه (لا أذكر) استجبت لدعوة من لجنة مسجد جامعة دمشق التي كانت تنشر بين الحين والآخر رسائل صغيرة في موضوعات هامة آنذاك، لطائفة من العلماء يغلب أن يكونوا أساتذة جامعيين، وكتبت لهم رسالة عنوانها «حقائق عن نشأة القومية». ثم إن الله شاء أن أصبح معيداً في كلية الشريعة في جامعة دمشق، فموفداً إلى القاهرة لنيل درجة الأستاذية (الدكتوراه) فمدرساً في هذه الكلية عام 1965، ودخلت نشاطاتي العلمية حينئذ مرحلة جديدة مختلفة عن تلك التي كانت من قبل.

هذه المرحلة الجديدة، دعتني إلى أن أطوي تلك الأعمال الفكرية والعلمية والأدبية عن النشر، فقد رأيت أن في الجديد الذي يوفقني الله إليه، ما يغني عن القديم الذي عفى عليه الزمن. لاسيما أن كل واحد من أعمال الخمسة التي حدثتك عنها وعن المناسبة التي كانت وراء ظهور كل منها، غشاه في نظري سبب يدعو إلى إهماله وعدم الرجوع إلى نشره. وهذه هي الأسباب: أما المقال الذي كان فاتحة مخاطبتي للناس «أمام المرأة» فقد أصبحت من بعد أنظر إليه على أنه مجرد باب ولجت منه إلى محادثة الناس والبحث معهم عن الحق الذي يجب التلاقي عليه والتمسك به.. فما الحاجة للرجوع إلى الباب الذي ولجت منه؟

وأما الكتاب الذي أصدرته بُعيد ذلك «في سبيل الله والحق» فقد كنت متأثراً فيه بالجو الذي كتبت فيه فصوله، جو «الحياد الإيجابي» و«الاتحاد القومي» و«الاشتراك العربي»، وهي شعارات رفعها المرحوم جمال عبد الناصر بين يدي سياسته التي جذبت إليها أنظار، بل عواطف جماهير العالم العربي، فلقد رأيتني أتجاوب معها في بعض فصول - أو مقالات - هذا الكتاب.. واليوم وقد غاب عني ذلك التأثير، وانحسرت الشعارات عن نتائج ما ارتضيته يوماً ولا اقتنعت بأي منها، فقد

أثرت أن أضرب صفحاً عن الكتاب كله، مع أن جلّ ما فيه مقبول لديّ مفيد في نظري متفق مع قناعاتي ومشاعري.

وأما كتيب «دفاع عن الإسلام والتاريخ» فقد دعاني إلى طيه هو الآخر عن النشر، ما بدا لي من رجوع الدكتور شاكر مصطفى عن كثير من آرائه السابقة وعن كثير من أفكاره التي كان يتبع فيها المستشرقين، ظهر لي ذلك من خلال الصلة التي انعقدت بيني وبينه، فقد كان، رحمه الله، يبدي من التقدير لي ما أشعرنى بتحوّله عن الأفكار التي كان يروجها لعصبية حزبية أو تظرفاً بالاقتداء بأفكار المستشرقين.

وأما رسالة «حقائق عن نشأة القومية» فقد كنت كتبتها في عهد راجت فيه القومية رواجاً منكرأً، حتى غدت القومية العربية عند كثير من الناس بديلاً عن العقيدة الدينية التي تبصّر صاحبها بحقيقة الكون والإنسان والحياة. ولكن ذلك الغلوّ بردت اليوم حدته وانطفأت جذوته، وعادت القومية مجرد انتماء إلى قوم أو لغة أو عرق، وانحصرت أهميتها في ضرورة أن يعرف الإنسان القوم الذين ينتمي إليهم وأن يبقى على الصلة بهم ولا يتنكر لهم. فرأيت أن إعادة نشرها لن تصادف حاجة ولن يكون لها دور في حلّ مشكلة.

ولكن فما الذي أثناني عن هذا القرار الذي مضى على تنفيذه له ما لا يقل عن خمسين عاماً؟ والجواب أنه مر أكثر هذه الحقبة دون أن يعلم أكثر الناس الذين يقرؤون لي، شيئاً عن تلك المقالات والكتب والرسائل، إذ كانت نافذة من السوق منذ عهد بعيد، ولا يوجد أي حديث عنها في الأوساط، فلما دخلت شبكة الإنترنت مجتمعاتنا، واحتلت الميادين والأوساط الثقافية كلها، ووجد لي أكثر من موقع فيها، وكان لابدّ أن تُستهل المواقع المعنيّة بي، بسيرتي الذاتية التي لابدّ أن تبين، أول ما تبين، سائر المؤلفات والأعمال العلمية التي صدرت لي، اطلع الناس، فيما اطلعوا عليه، على أسماء كتب لي لم يسمعوها بها من قبل، وبحثوا عنها فلم يعثروا عليها، فانهالت عليّ الاستفسارات بكل الوسائل الميسرة الحديثة، عن هذه الكتب وسبب غيابها، ثم إن الاستفسار تحول إلى إلحاح متلاحق عليّ بإخراجها وإعادة نشرها، ولقد قابلت الإلحاح بالتجاهل والتسويق مدة من الزمن، ولكن لا التجاهل ولا التسويق أراحني أي منهما من الملاحقة والإلحاح.

عندئذ، وبناء على هذا الوضع الجديد الذي فرض نفسه، شرح الله صدري لإخراج هذه الأعمال من مخبئها ولأن أستجيب لرغبة هذه الكثرة الكبيرة من الإخوة القراء، بل لإلحاحهم المتواصل، فأنشرها في الساحات الثقافية من جديد، على أن أستهلها بهذه المقدمة التي تتضمن بعض النقاط الهامة التي يجب أن يكون القراء على بينة منها.

ولقد اتبعت في ترتيب هذه الأعمال، الأقدمية الزمنية في ظهورها، وبناء على ذلك فقد افتتحت

مجموعة الأعمال هذه بمقالين، هما أول تجربتي في الكتابة والبحث^[1]، ثم أتبعتهما بما ظهر لي بعد ذلك وهو كتاب «في سبيل الله والحق» يليه كتاب «المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام» يليه رسالتي «دفاع عن الإسلام والتاريخ» ثم رسالة «حقائق عن نشأة القومية».

بوسعك الآن وقد قرأت هذه المقدمة أن تعلم النقاط التي لم أعد اليوم أقرأها أو أنادي بها، مما قد تجده داخل هذه المجموعة، ولعلك تعثر عليها متفرقة في كتاب «في سبيل الله والحق» فقط.

اللهم اجعل عملي هذا اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم خالصاً لوجهك الكريم، واغفر لي ما قد يكون لي فيه من هفوات، واختم اللهم حياتي بأحب الأعمال إليك حتى أفاك وأنت راض عني يا رب

العالمين.

ملاحظة:

ميزت التعليقات الحديثة التي سجلتها اليوم على أماكن من هذه المجموعة بالنجمة (*) بدلاً من الترقيم.

أمام المرأة!...

وقفت أمس أمام المرأة، فرأيت من وراء صفحتها فتى ترفُّ على محياه نضرة الشباب وتترقرق في وجهه عذوبة الحداثة وزهرتها، كأنه الربيع إذ يكون في أول حياة الطبيعة ومبدأ ازدهارها وجمالها.

وقفت أنظر إليه بعينين، عين باصرة وأخرى متألمة، وقادني الفكر إلى مذاهب شتى، ومرام بعيدة، ومرَّ بي على ذلك زمن طويل، ثم عاد بي أخيراً وقد ألقى دمعة حارة في مقلتي أخذت تتجمع فيهما وتروح وتجيء، ثم انحدرت منهما وتبددت في صفحة وجهي.

ولو سألتني ما سر هذه الدمعة، وما الباعث لها لما استطعت أن أستظهر من ذلك شيئاً سوى أنني تبينت في حرارتها ولذعها كلاماً لو أنصت إليه لسمعت منه ما يلي:

أيها المعنى الجميل المتوقد!

لأنت أعظم نعمة وأكبر نعيم للمرء لو صدقت في صحبتك معه، ورعيت أمامه حق الصداقة والوفاء، فبك يشعر الإنسان بجمال الحياة، ويندفع إلى التصعيد في مراقي المجد والعز، وبك يستطيع أن يشعر فؤاده الحب ويدوق رحيقه الذي هو خلاصة لذة الدنيا وصفو سعادتها، وبك يقدر أن يستمتع بجمال الطبيعة ويطرب للحنها.. ولكني لم أجد فيك المعنى المتمم لهذه المزايا والكمالات، فلقد فقدت فيك الوفاء والصدق.

أيها المعنى الجميل! كيف لي بأن أستوثق منك، وأفرَّ بك من ذلك المعنى الثاني، من (المشيب) الذي يعدو ورائي ويجدُّ، يريد أن يتخطفني منك ويفرق بيني وبينك؟

أه!.. لو استطعت وتمكنت من ذلك فتصفو لي الحياة وأطرب بنعيمها وتكون رفيقي إلى الممات، ولكن كيف يكون هذا؟ إنه لا يمكن ولن يكون!

نعم أيها الشاب! سيأتي ذلك اليوم الذي لا أعرفك فيه إلا بالذكرى، ولا يبقى لي من جمالك إلا الحسرة والأسى تتركهما في فؤادي الضعيف... سيأتي يوم أعود فيه إلى هذه المرأة لأرى في جمالك المتبسم، وأتفقد على نفسي ثوبك الزاهي فلا أجذك، وسأحقد فأرى مكان ذلك الشاب الفتى شيخاً هرمًا قد نال منه الضعف والاسترخاء، وسأمنع فإذا بتلك الغرة الفاحمة قد عادت ثغامة بيضاء، كأنها الزرع الأصفر آن حصاده، وسأفتش عن ذلك الوجه الباسم الذي كان يموج فيه دم الشباب ورونقه، فأرى مكانه جلدة متغضنة قد تقلصت وتجمعت بعضها إلى بعض، وعادت هاتان المقلتان المتوقدتان غائرتين ذابلتين قد ضعف نورهما وغازت بهجتهما كأنهما النبع إذا انقطع ماؤه ويبس ما حوله من ماء وخضرة.

نعم أيها الشاب! سيأتي ذلك اليوم، وستمر فيه ذكراك على قلبي فتثير فيه الأسى والحسرة، وستشجيني فتبعث من تلك المقلتين دموعاً حارة تروي ذلك الوجه الشاحب، وسأتمناك فلا أجذك، وأناديك فلا تجيب، فليت شعري وراء أي حجاب ستستتر، وفي أي أفق ستغيب؟

مسوذةٌ ولما وجهي ريق

ولقد بكيت على الشباب ولمتي

حتى لكدت بماء جفني أشرق

حذراً عليه قبل يوم فراقه

وبعدُ؛ فكيف أكرم مثواك أيها الشاب الزاهي الجميل؟ وما العمل الذي أرى به حق مقدمك؟ إن كل شخص يذهب في تفسير هذا كما يريد، ويعمل على ما يوحيه هواه إليه.

أما أنا فلا أجد في ذلك تفسيراً أصدق من أن يتخذك الإنسان ساعداً يقوى به على جلب السعادة، وقوة تنهض به إلى مستوى الكمال، ليكون له من ذلك ذكرى تصحبه إلى الأبد، ولئن عدم بعد حين صورتك الباسمة، فسيعزيه عن ذلك أنه لن يعدم أثارك الخالدة، ولن ينسى أياديك الجميلة.

ذلك أن الشباب إنما هو ساعات حلوة من عمر الإنسان مُلئت نشاطاً وقوة، وفاضت عزيمة وجلداً، فهي النُّهْزة التي تُهْتَبَلُ لأن يحقق المرء فيها ما يشاء من أمانٍ وأهداف، والصلة التي يستطيع أن ينفذ منها إلى أهوائه ومبتغياته، فإن توجه بها نحو الخير كانت له في ذلك أعظم معين وأهدى سبيل، وإن استعان بها على الرذيلة تمكنت منها أيضاً وساقتها إليه بكل أنواعها فصبتها عليه صَباً.

ولقد أرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذا إذ قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك».

ولو أنا فهمنا هذا فهماً يُنهضنا إلى العمل بمقتضاه، لما كان لأي ضرر أن يدلف وراءنا ويسعى إلينا؛ ولكن أتى لنا ذلك وقد ملئ مجتمعنا بمشاكل وأضرار لم تدع من هذه القوة في أصحابها إلا حثالة هي الرذيلة البحتة قد استحالت إلى نهاية غير متوقعة تدفع بذويها إلى سلسلة تجرهم إلى كل سوء وشقاء.

يبرز الشاب اليوم إلى المجتمع ويدغم في ضوضاء الشوارع والأسواق، وقد حشرت في نفسه أنواع الشهوات المتضاربة والإرادات المختلفة من خير وشر، وتواردت إلى فكره مزدحمة هائجة، وقد بدا المسكين فيما بين ذلك كالفريسة إذ يلتف حولها لفيف من السباع الضارية يتجاذبون فيها بينهم.

يمشي وقد أجهد هذا الحمل وثقل عليه فماذا يرى؟؟...

إنه لا يجد - ويا للأسف - إلا كتائب من الشر ترقص أمامه وخلفه، وعن يمينه ويساره، ولا يقبل عليه إلا ما يزيد في ثورة الشهوات الخبيثة من نفسه، ويوسع ما نبت فيه من معاني الخير وأسبابه قمعاً وقتلاً، فلا تترك الأولى إلا جامحة هائجة، ولا الثانية إلا ذاوية ميتة.

أما الفتى المسكين فلا تجده بعد ذلك إلا منقاداً لشقائه، وريشة تقتل بين عواصف أهوائه، ثم ليست النهاية إلا إلى قعر هاوية من أودية الشقاء.

ففي المجتمع دُور خيالة (سينما) وملاه ومراقص، وفي المجتمع نساء وفتيات كاسيات عاريات، قد جهدت كل منهن أن تنفض عن نفسها حجاب البشرية الكثيف، وألاً تبرز أمام الناس إلا بحقيقة واحدة قد ركبت من ثلاثة عناصر: اللطف، والرقّة، والجمال، لئلا تدع قلباً واحداً ينتمي بصلة ما إلى واحدة من هذه الثلاث إلا انسابت إليه، ولو لم يكن من آفات المجتمع وأضراره إلا هذه لكان بحسبها أن تتخن قلب الشاب جرحاً وفتكاً، وتهوي به إلى قرارة الشقاء.

لقد أقاموا بيننا ما يسمونه مدارس، ومضوا يزعمون أنها مهذبة للشباب، ودار تتعهد بها حياة الفتى الخلقية، ويساق فيها نحو سبيل الخير والرشاد، وعلى تسليم ذلك فأنى للكلمات التي تلقى إليه فارغة إلا من معانيها اللغوية أن تأتي بتأثير على نفسه أمام لغة شعوره التي يجري تطبيقها أمامه في كل مشهد يراه؟

يُسمعون كلمات مبهمة عن الفضيلة وفلسفة الأخلاق، وقد ضمته جدران المدرسة وأظله سقفها، يذهبون به في امتداح الكمال الإنساني إلى فنون عدة، ولكنها محصورة بين حدود ألفاظها، فهو يتلقاها مبهمة غامضة، ثم يتغلغل في المجتمع فلا يجد صورة لما يسمعه من الفضيلة والأخلاق إلا الرذيلة والدعارة، ولا يفهم من معاني الكمال الإنساني إلا نقيضه وحيوانيته.

أما، إن كان من بغيتهم أن يصلوا إلى هذه الصورة الشنعاء، فما لهم - ويحهم - لا يتخذون مدارسهم دوراً لتعليم مبادئ الشقاء والتسليك في طرق الرذيلة ليأتي الأمر منظماً؟. ذلك لأن الشر إذا أثبتته الفوضى كانت الفوضى نفسها شراً ثانياً معه، وإن كانت غايتهم أن ينشروا على هذه الحياة ظلاً من السعادة ويصعدوا بها إلى قمة المجد، فما لهم لا يكتسبون عن طريقهم هذا الغضب ويقضون على أصوله ووشيجه لئلا يصدهم دون غايتهم ويقف حاجزاً بينهم وبين ما يطلبون؟

تلك هي صورة حياتنا، وهذا هو شكل نظامنا، وكلاهما من أسخف صور الدهر وأهزلها، ولكأنه الشيطان انتهى أن يضحك وهو في الدنيا ضحكة تنال من كل مشاعره وتمخر إلى قلبه فتعزیه عن مصابه وذنبه في جنب الله تعالى فجعل من حياتنا هذه الصورة الماجنة.. ولعمري هي مضحكة جداً^[2]!

فما تدري؛ أهو التبرم انتابنا بأوضاع اللغة ومصطلحاتها القديمة فأردنا أن نقلبها إلى لون جديد فوضعنا كلمة (الفضيلة) إزاء معنى (الرذيلة)، وكلمة (حسن الخلق) أمام (شراسته وسوئه)؟ أم طمح بنا الفخار إلى أن نظهر للعالم بمعجزة الدهور فنجمع بين نقيضين متباعدين في آن واحد وفي أمة واحدة؟...

وأخيراً فعزاء لك أيها الشباب، ورثاء لعهدك القديم الذي أودى به سوء المصير إلى هذا المنقلب.. لقد كان الشباب سلماً يتم الرقي به إلى المجد والكمال، وكان نُهْزَةً للعمل والجد، ونعمة يفرح بها صاحبها، ويحن إليها مفارقها، يوم كان المجتمع مرتفعاً فوق دعائم الشرف، ومضيئاً بمصباح الدين، ومحاطاً بسياج العقل، أما اليوم وقد فسد الزمان بأهله، فقد عاد الشباب غُلاً في عنق صاحبه يسوقه إلى الشقاء، وناراً تشب في فؤاده تقعده عن الخير. فصبراً أيها الشاب على غصصه وآلامه، وليُهنك اليوم أيها الشيخ الهرم أن قد تخلصت من وثاقه، ونشطت من عذابه!....

بعض كتابنا اليوم

عندي أن فن الكتابة من حيث اتصاله بنفس صاحبه إنما هو المرآة الصقيلة لاقتناص خلجات الضمير، وتصوير ما يكنه الشعور، وبيان ما تحمله العقيدة، أو هو المتنفس الوحيد الذي يُلجأ إليه عند شدة اتصال المعاني بالعقيدة، أو سيطرة الخيال على الفكرة، أو تشبث العاطفة بالشعور. وقد كنت أحسب أن هذا التعريف له كما هو صحيح في ذاته فهو واقع كذلك لدى أربابه، لذلك فقد كنت كثيراً ما أحاول فهم تراجم أناس بالإمعان في كتاباتهم والتقليب في خواطرهم والإصاخة إلى ما تنطق به ألسنتهم، بل كثيراً ما كنت أتناول مقالات أو رسائل لكاتب من كتابنا اليوم في أبحاث شتى دينية وأخلاقية واجتماعية وغيرها، فلا والله لا أنتهي من القراءة إلى غايته إلا وقد بنت أسطرها في نفسي عن كاتبها فكرة لعلك لا ترى لها صاحباً اليوم مهما أبطنت أو أظهرت إلا في الخيال والوهم.

وتعمل تلك الفكرة في قلبي على إيقاد جذوة الحب له والشوق إليه، ولا تزال تعمل حتى تدعني وكل ما أمله من الله وأقترحه على الحياة هو أن أبصر بعيني رأسي ذلك الذي يحمل وراء دفة صدره قلباً جياشاً بالعاطفة والرحمة، وتقيم بين جنبه روح قدسية ملكية. في هذا العصر الذي يعوزنا فيه رجل من هذا النوع، يهدي قومه بإشراق قلبه، ويسيطر عليهم بقدسية روحه. وتمضي الأيام وأنا أحوك الأسباب للاجتماع به والتعرف إليه، حتى إذا كان ذلك وسبرت حاله ووقفت على حقيقة أمره، عدت وقد فرغ قلبي من حبه، وعادت تلك الفكرة التي تخيلته صاحبها تكذيباً عليه، وإذا به منها كالشيء من نقيضه وضده!!

أما مقالاته وكلماته ومأثوراته، فهي لا تبدو أمام عيني من بعد ذلك إلا كالسقاء الموكوء على هواء يعجبك منه امتلاؤه حتى إذا حللته عاد متغضناً، وكاليم أعجبتك منه صورته وخدعت بجوهره ولألئه، حتى إذا سبرت غوره، ووقفت على حقيقته، لم يشف لك إلا عن وحله وحبائه، وعكره وأفدائه.

الحق أني أحب فن الكتابة، بل وهي تأخذ بشغاف قلبي، وتنال من كل مشاعري! ولكن لا على أنها ألفاظ منمقة، ومعان مبتكرة، وأساليب ممتعة فحسب، بل على أنها من فيض شعور صاحبها وذوبه، اتسعت بها عاطفته، وضاق عنها ضميره، ففاضت على ظاهره، ثم منه إلى قلمه. ومن ثم فإنني أحب الكاتب أيضاً! ولكن لا على معنى أنه يستعملها كاستعمال الصانع لصنعتة، ويلهف إليها كلهفة الشخص إلى مهنته، بل على أنه يتخذها تعبيراً عن أفكار فاض قلبه شعوراً بها، ومتنفساً يلجأ إليه عند التأثر الشديد منها، فهي لأوجاعه وأحزانه لحن عزاء وأنين، وصدى ضجر وتأوه، ولشعوره ودوافع سلوكه لسان ذلق فصيح، وهو بعد ذلك إن أعانه البيان على أمره وأوتي أسلوباً شائقاً عذباً، فهو كاتب أمام كل طبقة وعند كل رأي، وإلا فحسبه أنه يحمل بين جوانحه قلباً حساساً ونفساً شاعرة وعقلاً حكيماً.

ومن ثم فلا أكره إليّ من هؤلاء الذين يتخذون من هذا الفن وجوهاً مستعارة ونفوساً تقليدية أمام الناس، ولا يستعملون الصفحات والمجلات مسارح يمثلون عليها ما تخيلته عقولهم وصورتها أوهامهم، ثم ما هو إلا أن يلقي الممثل قناعه، وينضو لباس تمثيله، فإذا به قد عاد واحداً من النظارة والمتفرجين.

تتسمع إلى أحدهم وقد شفَّ لك كلامه الرقيق الباكي عن نفسٍ والهة عاشقة، قد أحرقت الصبابة والوجد صميمه، وأذاب الأرق والسهاد جسمه، وهو لو تبينت حقيقة ذاته لرأيتَه لا يعلم للوجد والصبابة معنى، ولا يدري للأرق والسهاد طعماً.

وتصغي إلى آخر يتحدث عن الرحمة، فيتصل بشعورك كلام رقيق كأنه سلك من الدموع، يشعلك كمداً وأسىً، ويملاً فؤادك حناناً ورحمة، وأنت لو استطلعت مبهم أمره، لانحسر لك عن فؤاد قدَّ من الحديد، لا يلينه وقود الدموع ولا تننيه نكبات الدهر.

وتمعن في ثالث يخوض في شأن الأخلاق والدينيات، فلا يكاد يستقر عقلك مكانه استعظماً وتعجباً من أن يحيا في غضون القرن الرابع عشر نبي مرسل يسوق الناس بسحر بيانه، ويلمس شعورهم بروح كلامه، ويملك قلوبهم بجوامع كلمه، وتغزو لتكون أول متشرف برؤيته، ومتبرك بروحه القدسية، وإذا بك أمام أكبر ممثل للنفاق في يانع عصره، متجرد من الدين حتى كأنه لم يكن قد لبسه، متحلل حتى كأنه لم يعلم لكلمة الأمر والنهي في دنياه تفسيراً ومعنى... ثم ماذا أيضاً بعد ذلك؟

بعد ذلك أنه يأتي الفريق الآخر الذي عاصرتَه هذه الطرق في التحليق ورفع مستواه بين قومه، وتأبى عليه الحظ أن ينال الإعجاب في تمثيله، فيحور مسرحيته، ويتجه بقلمه إلى الدين ورجاله المتقدمين، وينصب نفسه مشرعاً جديداً، فيشذب من الأول ويزيد فيه، ويقدح في الآخرين، ويحكم نفسه في مراتبهم، يخفض منهم فريقاً ويعلو بآخرين، يريد من ذلك أن يتأكد الناس ويتحققوا من أنه إنما بعث تصحيحاً لأغلاط المتقدمين، وخاتمة ثانية لتهديب الشريعة والدين.

وليس محل إنكارنا على هذا القسم من (المتأدبين) إذا ما كان يضطرهم إلى هذا، نوعٌ من الإشفاق الصحيح على الدين، أو الغيرة المخلصة على أثره الفعال في المجتمع، فهذا ما أعوزنا تحققه منذ أزمنة وأعوام، بل ولتمنيت على الله تعالى أن لو نظر بعين اللطف إلى أبناء عصرنا هذا الذين استعبدوا أنفسهم للغرب بعد أن ولدتهم أمهاتهم أحراراً؛ فانقلبوا يؤمون شطر دياره، وعنت وجوههم الكريمة لرجاله، وقلدوهم على غير هدى، وانقادوا وراءهم من دون خطام؛ أقول: لتمنيت على الله أن ينظر بعين الرحمة إلى هذه الأمة فيبعث من قلبها من يحيي فيها روعة هذا الدين من جديد، ويفهمها - إن كانت لا تفهم - أن هذا الشرق لا يفخر على الدنيا إلا بعد أن كان مشرق دين، وأن القومية ليس لها في المكانة من شأن إلا إذا كان يحزمها حبل الله في الأرض، وأن العروبة لا تعتز بشيء سوى ما تحمل من وسام انتمائها لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن أين نحن من ذلك إذا كنا من هذا أمام الآفة الكبرى والمصيبة الفادحة؟

إن مأتى الإنكار على هؤلاء هو أن يمسخوا حقيقة هذا الإصلاح في عملهم ويقلبوه إلى مصدر لفن جديد في دنيا الأدب، ذلك الفن الذي يعبرون عنه اليوم بـ (أدب النقد)، وهو في التعبير الصحيح لغة البطر واللؤم في فنية الأدب، إذ إن مبناه ومستقره على أن يعمد الكاتب فيريش سهام النقد إلى واحد من الشخصيات الفذة التي تركت وراءها أثراً بيناً في التاريخ، أو نقطة لا تتكرر من الإصلاح، فيفرح بعد تقليبه ظاهراً وباطناً وفحصه وغربلته أنه استطاع أن يمسك عليه عثرة أو فلتة، ثم إنه يشد فيها و(يمط)، ويوسع منها ويكبر، ثم ينقلب فيطنطن عنها في رسالة، أو يدلل عليها في مجلة، أو يعلن عنها وراء مذياع... أما مناقبه وإصلاحاته، وأما أنه وقف حياته على خدمة شعبة من شعب الإصلاح، وأما أنه يجب أن يكون القدوة الكبرى والدافع العظيم لكسالى الناس في الجد والعمل، فهذا ما تحوَّلت عنه العين، وعمي عنه الفكر، وكان الفن في غنى عنه.

أحسب أن هذا أكبر أثر للعجز في حياتنا العملية اليوم، ثم هو الجهد المحبب أيضاً من أناس لعل قسارى همهم أن يتنحخوا ويتناولوا بأعناقهم لكي يشعر المجتمع بوجودهم ويلتفت إليهم! أي فهم أناس أسمعهم التاريخ ذكر أولئك الرجال الذين شاء الله أن يخدموا دينه فيعزهم، وأن يقارعوا الموت في سبيله فيخلدهم، ثم نظروا إلى أنفسهم فشعروا بمهانتها وحقارتها تجاه أولئك الأساطين، وكان لابد لهم أن يتمطوا إلى الذروة التي كانت مستواهم ومقرهم لكي يبصرهم فيها كل فرد، فيتحققوا أنهم لا يقلون عن تقدمهم علواً، وعز عليهم أن يحققوا في التاريخ أعمالاً وجهاداً شأن أولئك، فلم يروا إلا أن يحملوا أنفسهم تارة على قدحهم، والتدخل إلى التحكيم لأفكارهم وآرائهم، وتارة على إنشاء أفكار جديدة يسوقونها من الوهم.

هذه صورة عن حقيقة بعض كتابنا اليوم، وهي بعد هذا كله إن لم تحرمنا من كثير من المقاصد والأهداف، فحسبها أنها تحرمنا الناحية الأدبية في هذا الفن، وتُسِفُّ به وتخرجه عن حقيقته العالية، ففرق بين من يكتب بطبع، ويستوحي من إلهام شعوره ووحى وجدانه وضميره، وبين من يكتب بتصنع ويستوحي فنه من التقليد، يلتقط حديثه عن صدى المجموع، ثم هو لا يفهم أحقية الفكرة التي يدعو إليها إلا من أحقية الدعوى التي يتبناها المحامي أو الفكرة التي يدلل عليها المأجور، فهو يُتبعها المنفعة والمجلبة.

الممثلون كثير، وذوو البيان الساحر كثير، وأرباب الخطابة والفصاحة كثير، ولكن الكاتب والشاعر قليل [3].

في سبيل الله.. والحق بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأستعينه، وأستلهمه السداد في الرأي، وأسأله الإخلاص في القول، وأرجوه التوبة والغفران.

وبعد فيرى القارئ في هذا الكتاب فصولاً شتى، وبحوثاً متنوعة المواضيع. غير أنه لن يجد فيها تجاوزاً عن حقيقة الوحدة الكاملة التي ينبغي أن تقوم على أساسها حياتنا المفضلة ووجدتنا الجديدة... وإذا كنت قد تناولت في هذه الصفحات أكثر مقومات هذه الوحدة الكاملة من دين واجتماع وآداب، فذلك لأن مشكلاتنا الكثيرة إنما هي قائمة في هذه النواحي الثلاث.

على أن هذه النواحي وإن بدت مختلفة، ولكنها تظل متشابكة متساندة في كل وقت، فالباحث الذي يهز ببحثه واحدة منها، لابد أن يجد الهزة قد سرت في الجوانب الأخرى أيضاً، ولذا فهو مضطر - إذا أراد لبحثه الشمول - أن يرعى الجوانب الثلاثة كلها. وبرهان ذلك أن كثيراً من مشكلاتنا الاجتماعية يعود سببها بعد قليل من النظر والبحث إلى مشكلة الأدب في عصرنا الجديد، ومعظم مشكلاتنا المتعلقة بالدين يعود مثارها إلى بعض معاييرنا الاجتماعية أو الأدبية. والمشكلة الوحيدة في هذه وتلك والأولى، تعود إلى سوء تقديرنا لمثلنا العليا التي يجب علينا ونحن أمة ذات سيادة ورسالة أن نأخذ أنفسنا بها، وأن نجعل من سائر نواحي حياتنا وسيلة لتحقيقها، لا غاية تتخذ مكانها إلى جانبها، ثم قد تتوافقان وقد لا...

ومشكلة المشكلات من وراء هذا، هي أن بيننا من لا يؤمن بغاية موحدة يقوم عندها ما نسميه بالمثل العليا. إنهم يرون أن اللذة مثلاً.. اللذة التي تكون ثمرة لأي شيء، هي أيضاً غاية برأسها، ومن حق هذه اللذة أن تركل بقدمها كل ما هو قدسي إذا لم يتسع المكان لكليهما. ومن هنا يمتد النقاش ويطول بين عبید الحيوانية وعباد الله، ثم لا ينتهي النقاش إلى أي تلاق، ذلك أن الطريق مختلف، والوجهتان متعاكستان، والغايتان متدابرتان.

ولذلك فإن سبيلنا في هذه الفصول ليس محاولة وضع حدقة في وجوه الذين لا يبصرون قدسية الدين والأخلاق، حتى يبصروا بها ذلك. إذ إنهم يغتبطون بالألا يبصروها، ويتمنون على الله ألا يخلق فيهم العين التي تراها أو العقل الذي يدركها، ولو أنهم أدركوا ذلك ورأوه رأي العين، لرأوا في ذلك شبح الحية التي تفرعهم، وشأنهم يكون إذ ذلك أحد أمرين: إما محاولة قتل ما رأوه حيّة تهدهم، أو التولي عنها والهروب من وجهها لكي يستطيعوا أن يقولوا إنهم لا يرون شيئاً. وهذا الثاني هو الحاصل اليوم لدى معظمهم، فحسبهم أن يسدلوا فوق أعينهم أي غشاوة لكي يتأتى لهم أن يزعموا أنهم لا يرون شيئاً.

أجل، إننا لم نقصد بهذه البحوث المضي في هذا السبيل... ولكن الذي قصدناه هو أن يعثر الباحثون عن الحقيقة على قبس يهديهم في الطريق، وأن يتخذوا منه رشداً يكفيهم شعوذة المشعوذين وكيد الكائدين. ولسنا بحاجة بعد ذلك إلى خلق دعاية للحق، إذ هو وحده خير دعاية لنفسه، ولسنا بحاجة أيضاً إلى تكريه بالباطل، إذ حقيقته أكبر محذر من نفسه.

ثم إن بعض هذه الفصول كتب في مناسبات سابقة، ونشر مع مناسباتها في بعض الصحف، والبعض الكثير منها كتب لينشر في هذه الصفحات. ومعظم ما نشرته سابقاً قد زدت عليه وتصرفت فيه هنا.

وخيرُ ما أتيَمَّن به في سبيلي هذا هو عهدنا الجديد... هو وحدتنا التي قامت - ولاشك - على هذه (المثل) التي تحدثت عنها، والتي هي محور ما أدعو إليه في هذا الكتاب. ولست أشك في أن هذه الوحدة، قد بدأت تحيي دفين تاريخنا الغابر، الذي ساد معظم العالم، وحمل إليه رسالة السماء، رسالة العرب إلى العالم. ولست أشك في أن قائد هذه الوحدة، يقدر هذه الرسالة خير تقدير، ويعرف مدى خطورتها أدق ما تكون المعرفة، ويسير نحو تحقيقها في أثبت خطأ وأقوم طريق. والله المستعان وعليه الاتكال.

والله أكبر والعزة لرسوله وللمؤمنين^[4].

تاريخ أغر يتجدد [5]

«.. لقد هرمت رسالة الرجل الأبيض... تلك الرسالة القاتمة السوداء وها هي ذي تحتضر لتموت عما قليل إلى غير رجعة..».

وأخيراً قدر الله - وله الحمد والمنة - أن يولد تاريخنا الأغر من جديد... وأن يتمطى مجدنا الغابر، ليعود فيتبوأ مكانته في صدر الدنيا، وأن تطوى صحيفة الكلام على مآثر الماضي، لتبدأ ثورة الدأب على خلق تلك المآثر وإحيائها من جديد.

كنا نقول قبل اليوم: كان العرب في الشرق أمة واحدة، فكانت تحفظ للشرق إشراقه، وتقذف من ضيائه إلى غياهب الغرب أيضاً.

ولكننا اليوم نقول: أصبح العرب أمة واحدة، تعيد إلى العالم سلاماً، وتؤسس في أركانه عدلاً، وتعيد لها فيه مجداً. وشتان بين حديث من التفاخر بأطلال الماضي، وثورة تطبع سطور عزمها في صفحات المستقبل.

تعالوا اليوم وفتشوا... فتشوا في قلب كل عربي وعربية في هذه الدنيا، هل تجدونه إلا منتعشاً بأنفاس العز، مرتعشاً بخفقات الأمل، مستطيراً بفرحة الوحدة؟

فتشوا عن العمال في معاملهم، والزراع في مزارعهم، والموظفين في مكاتبهم، وابحثوا عن النساء في بيوتهن، وإلى جانب مهود أطفالهن، وعن الصبيان في لهوهم وفي صفوف مدارسهم، فستجدون الأعين تبتسم بالدمع وتتألق بالأمل وترنو بالشكر إلى باري الأرض والسماء.

وأما الذين في قلوبهم مرض.. أما الحاقدون الذين يلتهم الغيظ أحشاءهم، أما الذين يتضايقون من الأحرار، لأنهم لا يشركونهم في حمل الأغلال والأصفاد، فلم إذا شاؤوا أن يتركوا أنفسهم لهذا الحقد يسم فؤادهم حتى النهاية.. ولهم إذا أرادوا أن يسلكوا مثلاً هذا الطريق الذي فتحناه ومهدناه، وإذا بهم معنا في صعيد الحرية والانطلاق والعز، إخوان متحابون متعاونون.

ومن بعض جوانب هذا العالم يلتهم تسأول عن غاية هذه الوحدة.. وهو تسأول يهدف إما إلى السخرية ليبدد وقع الألم على نفوس المتسائلين، أو إلى تجاهل أمر لا يريدون أن نتذكره وننتبه إليه.

إن غاية الأمة العربية من وحدتها هي أن تعود فتحمل إلى الدنيا رسالتها العالمية لتعيد إليها روح الإنسانية والعدل، ولكي تسحق تهاويل الظلم وشبح الاستعمار والاستبداد تحت الأقدام.

لقد هرمت (رسالة الرجل الأبيض)... تلك الرسالة القاتمة السوداء، وها هي ذي تحتضر لتموت عما قليل إلى غير رجعة. إنها رسالة الباطل الذي نفخته الحملات الصليبية حقداً، وأوسعته حضارتنا الذهبية السائدة مغايضة وكرهاً، فاتخذ من رسالته سبيلاً للفتك، وجعل من حضارته فوهة بركان. ولكن الحق قد أن له أن ينقذف على الباطل فإذا هو زاهق، يجر وراءه تاريخاً من الخزي والقبايح.. يندى له جبين المدنية والعدالة، والقيم الإنسانية جمعاء.

ولكي يستبين لعقل العالم وسمعه مدى الفرق المتناقض بين الرسالتين أذن الله لتلك الرسالة المشؤومة أن تخب في طرائق الدنيا حيناً من الدهر وإذا بها تعتصر الأرض لتغرقها في الدماء، وتلتحف السحاب لتمطرها ناراً، وتدهم العالم بأنياب نُفَر ع الوحوش في الأدغال، وإذا بالرؤوس

التي سحقتها رحي حروبهم المتوحشة، تفوق جيلاً بأكمله من الأجيال التي كانت تنعم هادئة سعيدة في ظل رسالة السماء... رسالة العرب إلى العالم.
نريد من هذه الوحدة أن تنفض عن شرقنا رجس هذا الشبح الأغبر الذي يريد أن يفترسنا بأنياب يزعم أنها لؤلؤ.

نريد أن نقيم دعائم العدالة، وأن ننشر روح الإنسانية في كل بقعة من دنيانا، في فلسطين التي قضت (رسالة الرجل الأبيض) أن يطرد عنها أهلها، ويقذف بهم إلى وحوش القفار، يقتسمون معهم أديم البيداء، ويشاركونهم في بقول الأرض وأعشابها، وبيوتهم ومساكنهم يأوي إليها أمام أعينهم أدياء طفيليون على الحياة فضلاً عن تلك البلاد!.. وفي الجزائر حيث الأطفال يغرقون في دماء آبائهم وأمهاتهم... حيث القلوب الطاهرة التي لم تخفق بغير الإنسانية والرحمة تمزق وتمزق وتسحق.. حيث الكلاب المتوحشة المسعورة تلهث وراء الدماء الحارة لتلعقها... كلاب سامية كالأفعوان، لم تخلق إلا لتتمرد وتنبح على كل ما هو إنساني مدني متحضر.

وبعد فليست هذه الوحدة تضامن ثلاثين مليوناً من العرب فقط، ولا ثمانين مليوناً أيضاً فحسب، وإنما هي تضافر واتحاد ثلاث مئة مليون عربي آمن بالرسالة العربية إلى العالم، وقام بينه وبين العرب نسبها. تلك هي أمة واحدة تنبض بقلب واحد، وتجتمع في سيرها على صراط واحد، أمة يؤلفها قلب كبير واحد، وتنبعث في ثلاث مئة مليون جسم، تجمعهم كلمة الله، ويسيرون على صراط الله.

نريد جيلاً مؤمناً بالله [6]

.. والحياد الإيجابي لا تتم فلسفته إلا إذا انبثقت من جميع نواحي حياتنا. والعقيدة إن لم تقم على كياننا المستقل قامت لا محالة على كيان غربي أو شرقي...

لم يكن ذلك صوت وزير التربية والتعليم وحده، حينما أعلن في مدرج الجامعة قائلاً: «نريد جيلاً مؤمناً بالله» لم يكن ذلك صوته وحده.

لقد كانت الحقيقة التي نادى بها التاريخ عبر الزمن، وكانت الحقيقة التي نادى بها من قبلُ بناءً المجد، وكانت الحقيقة التي نادى بها طبيعة هذا الدهر.

حقائق ثلاث هي أركان هذا الكون كله، نقشت هذه الكلمة في صفحة العالم: «لابدٌ للجيل الصاعد من الإيمان بالله».

وقامت ثورتنا تحيي حقائق الكون. وقام بطلها الكبير يصنع منها معجزات الحياة، وقام وزيرها المؤمن يقدم للجيل في معركته سلاح الإيمان.

لبيك أيها المربي المؤمن لبيك، فسيكون أول سلاح هذا الجيل إيمانه بالله.

الإيمان بالله، أو الإيمان بالمادة والدولار.

الأول سر عظمة هذا الشرق، والثاني سر انهيار المبادئ والتضحية بالضمائر.

والاثنتان نقيضان لا يجتمعان، ولكن لا يخلو عن أحدهما أي إنسان.

وسُوس الاستعمار ينخر في هذا الشرق أول ما ينخر دينه وإيمانه، حتى إذا استفرغ جوفه، وجعله هباءً، حشا إهابه بتقديس المادة والأهواء، ثم تركه يخدمه في عملين: الوقوف على أعتابه للقيام

بواجب العبودية، والخداع لمن حوله بمظهر الإيمان الذي تركته جردان الاستعمار أجوف قد نقش عليه طابع الدولار.

ولكن لا... لن تجد بيننا نحن أيها الوزير الثائر عوداً يُنخر.

لبيك أيها الوزير لبيك، فسوف يكون أول سلاح هذا الجيل إيمانه بالله.

تقابل الإيمان مع قوى ثلاث أمم عاتية وحشودها، فانتصر الإيمان الأعزل، وأدبرت المادة الطاغية والقوى الباغية، تتعثر بالخزي والعار.

وانتزعت القناة من مخالب الاستعمار، وعادت إلى أصحابها المؤمنين.

وأوصد الباب في وجه طوفان داهم من كتل العدوان على القاهرة وبور سعيد، وبقيت بلاد المؤمنين للمؤمنين.

واجتمعت قلوب المؤمنين على قادة الإيمان، فإذا الوحدة بناء مشيد بعد أن كانت خيالاً في الأوهام.

وحفظ الله وسلم... فلم يستقر كيد الكائدين إلا في نحورهم، فماذا بقي بعد ذلك؟

إن الذي بقي، هو أن نشكر الله فنؤمن به، وأن ننشئ جيلنا في ظلال الإيمان به.

لبيك أيها الوزير لبيك.. فسوف يكون أول سلاح هذا الجيل إيمانه بالله.

والحياد الإيجابي [7] لا تتم فلسفته إلا إذا انبثقت من جميع نواحي حياتنا.

والعقيدة إن لم تقم على كياننا المستقل، قامت لا محالة على كيانٍ غربي أو شرقي.

وحركة الفكر من المحال أن تلزم السكون.

إن لم يفتح أمامها طريق الإيمان، فهي ماضية لا محالة في سبيل الإلحاد.
وما كان الإلحاد، وما كانت المادية في يوم ما إلا خنجراً مسموماً لطعن الكيان العربي في أخطر مثله العليا.

وما كان الإلحاد، وما كانت المادية في يوم ما إلا أعظم سد يقوم بيننا وبين تاريخنا المجيد.
ونحن إنما نريد القوة التي تبني كياننا العربي، والثوبة التي تصلنا بتاريخنا الغابر.
وماذا عسى أن يكسبنا هذه الثوبة والقوة سوى الإيمان؟
لبيك أيها الوزير المؤمن لبيك... فسيكون أول سلاح هذا الجيل إيمانه بالله.

ووحدة العرب هالة لا يمكن لها أن تقتارب وتستدير إلا إذا توسطها محور يجذبها.
وما لم يكن المحور هو الإيمان فلن يقوى على الجمع والاجتذاب..
وما لم يكن المحور هو الإيمان فلن يُقضى على الخيانة التي تصدع الصفوف..
وما لم يكن المحور هو الإيمان فلن تتوحد الغاية ولن يستتير السبيل..
يا لعظمة وحي السماء...! لقد أمرنا الله قبل كل شيء بوضع المحور، ثم أمرنا بعد ذلك بالالتفاف من حوله، ألم تمنع في بيانه إذ يقول: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا} ثم... {وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: 3/103].

مَنْ هذا المسترخي في سكرته، يهذي قائلاً: الاعتماد على الله سلاح الكُسالى والخاملين؟!
إن الاعتماد على الله جعل أربابه يناطحون الموت في مكمته، وجعل أحدهم ينتشي ثورة وهو يقول للأعداء: «لقد جئكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر».
والاعتماد على الله أطارهم كالشرر في شرق البلاد وغربها، حتى قال ذلك القائد وقد أوغل في بلاد الصين، واستوقفه أتباعه يحملونه على الرجوع:
«بنقتي بنصر الله توغلت، وإذا ذهبت الفرصة لم تنفع العدة».
إن اعتمادنا على الله يا هذا ليس من نوع اعتمادك المسترخي المائع على آراء الغرب أو الشرق، ولكنه استمداد طاقة فوق طاقة، وربط قوة الخالق التي لا تحدُّ بضعف المخلوق وآماله الطامحة.
إنه الإيمان يا هذا.. إنه الإيمان.
وسيكون أساس كياننا وشعار حيادنا هو الإيمان.

العروبة كما ينبغي أن نفهمها

«.. والرباط الذي يحزم وحدتنا العربية ليس هو النسب والعرق كما قد يبدو، ولكنه الروح، الروح التي تجلت في الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً، تمثلت في معايير أخلاقية راقية، وأشرقت من ثنايا طبيعة كريمة سامية وتميزت بالقيام بأعباء أداء رسالة السماء...»

في شرقنا العربي اليوم انتفاضات موفقة، لعلّ التاريخ لم يشهد مثلاً منذ قرون بعيدة. ولا مجال للشك في أن كل عربي في كل مكان، يساوره اليوم شعور من التفاؤل القوي حول مستقبل العروبة، ووحدتها الحقيقية المنشودة.

ولابد لنا - في غمرة هذه الانتفاضات المنتصرة وهذا التفاؤل المشرق الكبير - من أن نكون على بينة من معنى العروبة، العروبة التي ندعو لسيادتها، واسترجاع عزاها وسؤدها، كما لابد لنا من فهم الركائز الهامة التي تستند إليها العروبة في اجتذاب خطورتها ومجدها الدائم خلال التاريخ. ولكي نكون على بينة من هذا، يجب أن نتساءل عن النقاط التالية، وأن نجيب عنها الإجابة الصريحة الواضحة:

أولاً: هل يراد بالعروبة العرق العربي؟

ثانياً: ما مدى اتصال فكرة العروبة بالإسلام؟

ثالثاً: هل هناك علاقة ضرورية بين وحدة المبدأ ووحدة اللغة؟

وفي اعتقادي أن الإجابة عن النقطة الأولى من هذه النقاط الثلاث لا تستدعي إطالة في البيان، فما من ريب أنا نكون متناقضين مع أنفسنا إن ذهبنا نزعم أننا إنما نقدر في العروبة السند أو النسب المتسلسل الذي يربطنا أباً عن جد بربيعة أو مضر أو أي قبيلة عربية اتفق رواة التاريخ على أصالتها.

أجل، أقول إنما نكون متناقضين مع أنفسنا إن ذهبنا إلى هذا الزعم، إذ إنما في الوقت الذي نفخر فيه بعروبة ثمانين مليوناً عربياً في بقاع شرقنا هذا، وندعو هذه الملايين إلى التضامن والاتحاد؛ إنما في الوقت نفسه نهبط بهذا العدد الكثيف إلى بضعة ملايين يسيرة متفرقة في جهات هذا الوطن ليس لها إلا صبغة الأقلية البسيطة بين الأغلبية المتكاثرة الأخرى.

إن هذا الوهم لم يقل به أحد، ولم يخطر على بال أي شخص يعرف كيف يتحمس لفكرة القومية العربية ووحدتها. والرباط الذي يحزم وحدتنا العربية ليس هو النسب والعرق كما يبدو، ولكنه الروح.. الروح التي تجلت في الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً، تمثلت في معايير أخلاقية رائعة، وأشرقت من ثنايا طبيعة كريمة سامية، وتميزت بالقيام بأعباء رسالة السماء.

ولسنا نشك في أن هذه الروح كانت لها نواة كامنة في الدم العربي منذ العصر الجاهلي في مختلف مراحلها، منذ عهد الملوك الحميريين إلى آخر يوم من أيام الجاهلية. ولقد كانت تدل عليها الطبيعة الإنسانية المعترزة في كثير من عادات العرب وألوان حياتهم. ولعل هذه الحقيقة هي التي تستطيع أن تفسر لنا حكمة اختيار الله للجزيرة العربية مهداً لرسالة السماء إلى العالم. ولعل ذلك أيضاً من بعض تفسير قوله عليه السلام: «... فأنا خيار من خيار من خيار».

ولكن يجب ألا يفوتنا إلى جانب هذا أن هذه الميزة الطبيعية في الدم العربي لم يأت الإسلام ليجعل منها مادة أو سبباً لتسامي العرق العربي على غيره لمجرد العرق... ولكنه أتى بها ليجعل منها لقاحاً لطبائع الأمم المختلفة الأخرى، ومناراً يلقي به الضوء على معالم الهدى والأخلاق والصالح

أمام الجميع، حتى إذا تهيأت عوامل السعي لدى الكل، ألغى تلك الميزة «العرقية» التي سخرها في أول الأمر من الاعتبار، وقال على لسان نبيه: «... لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» داعياً إياهم إلى التسابق لتحقيق المبادئ الموحدة للجميع.

إذن فليس صواباً ما يظنه البعض من أننا نعني في تقديسنا للعروبة تقديس عرق خاص من الأمم.. بل إن هذا لم يعنه تاريخنا العربي أيضاً في أي حين من الزمن منذ استقرار عصر النبوة وارتكاز دعائم المبادئ العربية في الشرق، ولكن العروبة هي هذه المبادئ.. هي الأخلاق.. هي الطبيعة.. التي عرفت بها هذه الأمة منذ أقدم العصور، وشاعت بين كثير من الأمم الأخرى بعد ذلك.

ولعل البعض ينكر علينا هذا التفسير للعروبة من الوجهة اللغوية. فالمعروف لغة أن العربي هو ذاك الذي يتكلم باللغة العربية في أصالة، دون نظر إلى ما وراء ذلك من المعنويات والمجردات، بمعنى أن رجلاً من الناس لا يستطيع أن يكون عربياً مهما عجت طبيعته بالمبادئ والأخلاق العربية، إلا إذا عجن لسانه أيضاً باللغة نفسها. ولإيضاح الإجابة عن هذا، يجب أن نتساءل عن المظهر الذي تتمثل فيه المبادئ العربية التي نقصدها، ثم نتساءل عما إذا كان من الممكن لهذه المبادئ أن تطبع في النفس دون معرفة اللغة العربية.

إن هذه المبادئ تتمثل في الدستور العربي الأول (القرآن)، ثم في شروحه الإيضاحية من صحاح السنة النبوية. وما من شك في أن كل من أراد اكتساب المبادئ الإسلامية والوقوف على القانون الإلهي لحياة الإنسان على هذه الأرض، لابد من أن يجتاز أولاً مرحلة فهم هذه اللغة وتعلمها، وليس بخاف أن الحفظ الآلي لهذين المرجعين لا يقدم للنفس ثمرة، ولا يوصلها إلى غاية. وإن لنا على هذا الكلام - فوق الشواهد العقلية - أدلة تاريخية كبرى. فكلنا يعلم أن تعداد العرب في صدر الإسلام لم يكن يتجاوز بضعة ملايين يسيرة، أما عالمنا العربي هذا فقد كان خليطاً من معسكري الفرس والرومان. فكان من عمل الإسلام أن أخذ ينقل إلى كل فرد من الذين دخلوا في الإسلام مع مبادئه، لغته ولسانه. وذلك لضرورة فهم كلام الله تعالى وأحكامه، واتسعت هذه الظاهرة بعد ذلك حتى أصبح معظم الأعاجم، الذين كان يقوم بينهم وبين العرب حاجز منيع من العيِّ وعدم التفاهم، يتبوؤون أرقى مستوى البلاغة والبيان العربي، بل خلدوا في التراث العربي أدباً قيماً زاد في ازدهار هذه اللغة وسجل فضلاً كبيراً في ذلك لهم، كما ساهموا في إرساء أكبر قسط من دعائم الفقه الإسلامي وتحصين تراثه، وأخذت العجمة تتقلص من كل صعيد امتد إليه إشراق الإسلام حتى عاد أمثال أبي حنيفة والزمخشري والغزالي والأمدي وابن الحاجب - كما قال ابن خلدون - عرباً ليس للعجمة نصيب إلا في أنسابهم.

وإنك لتستطيع أن تلمس هذه الحقيقة في عصرنا هذا أيضاً حيثما ألقيت بنظرك من بلادنا الإسلامية المجاورة مهما كانت متوغلة في العجمة. فباكستان والهند وإندونيسية مليئة كل منها بالمعاهد الخاصة بتعليم اللغة العربية والثقافة العربية، والنوادي والقاعات التي تلقى فيها المحاضرات والأبحاث الإسلامية؛ بالعربية تارة ومترجمة إلى العربية أخرى، تعج في كل جهة هناك. والمؤلفات العربية الإسلامية المختلفة التي تفيض بها مكنتاتها لا تكاد تستطيع أن تفرق بينها وبين أي كتاب آخر صدر في دولة عربية.

ولقد أتيح لي حينما زرت بعض المدن التركية في عام 1951 أن أجد هذه الحقيقة نفسها لدى الشعب التركي. فالتركي المسلم الذي يرتفع قليلاً عن مستوى العامية ويتمتع بنصيب من الثقافة الإسلامية، لابد أن يكون ذا إلمام بلغته الإسلامية، تلك اللغة التي هي المفتاح الوحيد للوصول إلى كنوز التراث الإسلامي في أحكامه وشرائعه ومبادئه.

ولذا فليس غريباً إذا قلنا إن العروبة التي نضحي في سبيلها ونعمل على إتمام وحدتها إنما هي ذلك النسب الذي يتصل بين جميع الأمم التي تدين لرسالة السماء، رسالة العرب إلى العالم... هي المبادئ والأخلاق والطبيعة الكريمة السامية التي انطلقت من الجزيرة العربية وشملت ثلاثة أرباع سكان هذه الكرة.

ولا بد لكي تعود هذه الرسالة إلى انطلاقها الجبارة - بعد أن رُكنت في مخزن التاريخ حيناً من الدهر - من أن تنطلق مرة أخرى من هذا العالم العربي نفسه وتقودها الأيدي نفسها التي قادتها قبل اليوم.

وإذن فمن البدهي أيضاً أن نعلم أن هذه الرسالة العالمية لا تتأتى المساهمة في تحقيقها وإحيائها ونشرها إلا إذا سبقت ذلك وحدة في اللغة والمشاعر والأهداف.

وليس معنى هذا أن من أهداف العروبة انصهار الشعوب والألسن المختلفة في بوتقتها، أو إذابة الآداب والحضارات واللغات الأخرى في عباب القومية العربية. كيف وإن الدستور القرآني قد أقر اختلاف الشعوب والأنساب، ولم ينكر مشروعية قيامها ووجودها، **فقال: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: 49/13]** ولم يقل يوماً ما: «ليذوب الضعيف منكم في كيان القوي...»؟

ولكن هذا التعارف الذي أمرنا به، وهذه المساهمة في تحقيق المبادئ التي ندين جميعاً بها تقضي أن يكون لهذه الشعوب المختلفة محوراً بيانيّاً تلوذ به وتجتمع عليه وتتعارف على صعيده. وليس هذا المحور إلا اللغة العربية التي اختارها الله لغة للدين، ومن ثم فقد أراد أن تكون قدراً مشتركاً بين الأمم والشعوب جميعها، ولاشك أن من وراء هذا القدر المشترك لكل أمة لغتها وعاداتها وآدابها وحضارتها التي تكسبها الشخصية المستقلة.

وأخيراً فلسنا نقول: إن وحدة العقيدة والأهداف لا تؤثر أو لا تغني. ولكن الذي يجب أن نعلمه هو أن وحدة العقيدة والهدف تحتاج إلى حراسة وضمان، كما تحتاج لسيورها إلى عوامل تجعلها تتفاعل لدى نفوس أربابها وتجعلهم يتعاونون على تحقيق تلك الأهداف والعقيدة. وليست هذه العوامل وهذا الضمان سوى وحدة اللغة.

ولاشك أن هذه الأهداف حين تتبلور واضحة لدى الجميع، فعندئذ لا يهبُ لتحقيق وحدة العرب ثمانون مليوناً عربياً فحسب، بل أربع مئة مليون إنسان قام بينهم نسب العروبة وألفت بينهم مبادئها وأهدافها [8].

سياسة الدعوة في الإسلام

«.. والإسلام في كل عصر من العصور، يعادي أشد العداء أسلوب القسر والإكراه في الدعوة، لمن لم يدرس بعد حقيقته ويحصل على فكرة تامة عنه. فإذا لم يبق حائل دون الاتباع إلا الاستكبار والعدوان، أرغمهم على اتباع ما ظهر لهم من الحق، وجالدهم على ذلك بالسيف عدلاً منه وإحساناً..».

أنزل الله شرعة الإسلام إنقاذاً للإنسانية مما لحقها من شرور الفوضى والاضطراب، ومرداً للروح التي ضلت طريقها بين عواصف الأهواء والشهوات إلى مكانها الأقدس الذي اختصها الله به من بين سائر مخلوقاته. فهو وحده - كما نعلم - الدين الذي يضمن للفرد والمجتمع أكمل خير في الدنيا والآخرة. يقيمه في ظلّ ظليل من النظام والسعادة في الدنيا، ويحييه حياة خالدة في نعيم مقيم ورضوان من الله وجنات في الآخرة {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [النحل: 16/97].

ولأجل ما اقتضته حكمة الله التي فطر الناس عليها، من تفاوت في المدارك والعقول علماً وجهلاً، واختلاف في الطبائع والنفوس عناداً واستسلاماً؛ فقد كان ضرورياً أن تتلون دعوة هذا الدين بين هذا الخليط من العالم بأشكال مختلفة، وأن تتدرج في مراحل منظمة، وتسلك لنجاحها طرقاً وأساليب متنوعة.

وبرجعنا إلى دراسة جملة هذه المراحل والأساليب، وإمعاننا في طبيعة الأزمنة والأجواء التي كانت تختلف فيها وتتجدد، نجدها تتشكل بصور مراحل منظمة متسلسلة سائرة في ذلك مع اختلاف أحوال الناس ومداركهم، ومع ما تحرزه الدعوة من خطوات نحو القوة والاستقرار.

فأنت ترى أن أولى مراحل هذه الدعوة إنما كانت مجرد تبليغ وإعلام، ثم لا شأن لها بعد ذلك فيمن ألقى السمع وأصاخ، أو أدبر واستكبر أو حتى عاند وعادى. وكان إذ ذاك نزول قوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ *} [الحجر: 15/94] وقوله: {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [الشورى: 42/48]. حتى إذا تسامع الناس بشأن هذا الدين، وأرهف كل سمعه للدعوة الجديدة، شرع النبي صلى الله عليه وسلم معهم في النقاش المنطقي والجدال اللين، والمحااجة السلمية التي تهدف إلى كشف الحقيقة، وبسط الآيات والبراهين، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 16/125].

ثم لما وضح الصبح لكل ذي عينين، وظهر الحق لكل ذي لب، ولم يبق إلا إيذاء الحاسدين ومناصبة المستكبرين وعداوة الباغيين، أذن الله لنبيه أن يقابل إيذاء بإيذاء وقتالاً بمثله. فقال سبحانه: {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ *} [الحج: 22/39].

ثم كتب الله لدينه النصر، فاستجمع كيانه، ولمعت في أرض الجزيرة بارقة شأنه، فقفزت الدعوة إذ ذاك إلى مرحلتها الأخيرة، وأمر الله بقتال كل من بان له الحق فأصر على العدوان والعناد وظهر له سبيل الهدى فانحاز إلى الضلال وكيد الإضلال، وكان إذ ذاك نزول قوله تعالى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ *} [التوبة: 9/29]. وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *} [التوبة: 9/123] ، وقال: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا

يَعْمَلُونَ بَصِيرَةً*} [الأنفال: 8/39] ، وقال: {فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَفْعُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ*} [التوبة: 9/5] ، وعندئذ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله وقد أعذر لنفسه قائلاً: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم إلا بحقها» [9].

ذلك هو مجمل سياسة الدعوة في الإسلام والحلقات العامة لمراحلها. ولقد جرى على ذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم ممن شأوا أن يتبعوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك، وأن يتمسكوا بحقيقة التعاليم الإسلامية الصحيحة.

ففي الحين الذي كان الإسلام أنضج ما يكون قوة وأوسع رقعة وذلك في خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه نجد كيف كانت جل فتوحات المسلمين ووقائعهم مع مجاوريههم من الفرس والرومان بتعرض وابتداء منهم إما بعدوان مفاجئ أو بتخطيط لعدوان، فكان المسلمون يواجهون عدوانهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وينشرون أمامهم البراهين والحجج، فإن رأوا آذاناً صاغية ورضاً واطمئناناً، وإلا قابلوا العدوان بالقتال وألزمهم إحدى اثنتين: القتال إلى أن يظفروا بالفوز أو الجنة، أو الجزية عن يد وهم صاغرون [10]، إلا إذا رأى الإمام أن المصلحة العامة تدعو إلى الصلح معهم...

وبالرجوع إلى أي وقعة من الوقائع التي قامت في مثل عهده نجد برهان هذا ودليله. ففي القادسية التي كان يدير أمرها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رداً على الكيد العدواني الذي كان يبيته يزيدجرد ملك الفرس إذ ذاك، أرسل هذا القائد رجلاً من جنده إلى يزيدجرد - وذلك قبل اشتباك القتال بينهم - وكان من بين هؤلاء الرجال النعمان بن مقرن وقيس بن زرارة والأشعث بن قيس وغيرهم. فلما دخلوا على يزيدجرد تظاهر بالمسالمة قائلاً: «ما الذي جاء بكم ودعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أم من أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟» فتكلم النعمان بن مقرن وكشف له عن علم المسلمين بما يبيتونه من عدوان، وقال له فيما **قال**: «.. فنحن ندعوكم إلى دين حسن الحسن وقبح القبيح، فإن أحببتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزاء قبلنا منكم ومنعناكم، وإلا قاتلناكم».

وفي عهد الصديق أبي بكر أيضاً نجد خالد بن الوليد وقد أرسل أمراءه بعد فتح الحيرة إلى شواطئ دجلة، يتعرض لقتال من هناك ممن سمعوا بالدعوة وعاندوا الحق الذي بان لهم فيها، وقابلوها بالتخطيط للقضاء على الإسلام والمسلمين، وكتب إلى ملوك الفرس كتاباً قال فيه: «الحمد لله الذي حلّ نظامكم وفرق كلمتكم وعزّى كيدهم. وبعد فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة». وكتب إلى المرازبة أيضاً كتاباً مثل ذلك.

بعد هذا أقول: ماذا كان يا ترى من شأن الإسلام واتساعه لو أن هؤلاء الذين شادوا الدين بهذه الطرق العادلة التي ذكرناها عدلوا عن ذلك، وجنحوا إلى مثل ما يراه أناس في عصرنا هذا من أن الإسلام قد ترك الحرية التامة في اختيار الأديان، وفي الإقلاع عن أيها أراد الإنسان

والتمسك بأيها شاء. دون تفريق بين الحرية المشروعة لهم في الدنيا، والإلزام الذي سيأخذهم الله به، ويعاقبهم على الانفلات منه في الآخرة.

أقول لو جرى على هذا قادة الإسلام وولاته سابقاً - ونفوس الجاحدين كما تعلم معظمها مجبول على الاستكبار على الحق، والعناد في الباطل والتوجه إلى البطش والعدوان والتعشق للهوى - فأكبر الظن أنه لم تكن رقعة الإسلام لتصل من الاتساع إلى معشار ما نراه اليوم، وإن كنا نعتقد أن كل من يتبع هدي عقله دون عناد واستكبار لا يحتاج للتمسك بالإسلام إلى غير عرض المبدأ عليه وتبليغه إياه. ولكن هذا الانقياد قلما يجد سبيله إلى أفئدة الحكام والقادة الذين كانوا قد اعتادوا الظلم لشعوبهم واستلنوا الجثوم على صدورهم، واستمرؤوا الاغتصاب لحقوقهم.

وأنا، فلمعري لا أدري ما الذي يحمل هؤلاء على أن يتناسوا كل ما سقناه من أدلة فيتجاهلوها، حتى يقيموا لأنفسهم المعاذير في أن يقولوا قولتهم هذه عن الإسلام وشأنه في الدعوة! كل ما أفهمه سبباً في ذلك هو أنهم يحاولون ترضية المستشرقين وأولئك الغرباء عنه الذين يظنون يحومون من حوله حتى يجدوا في جهة منه ملمساً لنقد أو محطاً لعيب...

ولقد عرف أولئك الأعداء، الذين لا يعادون شيئاً عداءهم لهذا الدين وأهله، كيف يحكيون المكيدة بخبث ويحكمون الشر بليل! لقد استشكلوا أن يكون الدين الإسلامي في الأرض دعامة سلام وأمن، فأوهموا الناس أنه يقسر الناس على اتباعه قسراً ويحملهم على ذلك حملاً، ليوحوا من وراء حجاب بالحل الذي يشتهونه لذلك الإشكال، ثم ليتلفه ويتمسك به كل مفتون بالغرب ومعجب بنهجه وأفكاره. وهكذا يكونون قد وضعوا بواسطة رسلهم بيننا سماً بين قواعد الإسلام التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها تنزيل من عزيز حميد.

ولقد كان من الواجب علينا أن نمعن قليلاً، لنعلم أن هذا الإشكال غير وارد من أصله حتى نتكلف حلاً له ومخرجاً، فالإسلام في كل حين دين السلام والأمن وهو بمقتضى هذا يتجه إلى كل من اتضحت له حقيقته، وقام أمامه برهانه، وظهرت لعقله دلالة فأصر على أن يقابل الحق المسالم بالباطل والعدوان؛ بالدعوة إلى الانقياد للحق والكف عن العدوان، والاستسلام لما جاء من عند الله. أي فهو لا يكره الناس أن يلبسوه وهو في نظرهم باطل، ويتمسكوا به وهو في عقيدتهم لغو، ولكنه يضع أمامهم البراهين، ويبسط لهم الآيات، ويقيم بين يديهم الحجج، حتى إذا ظهر الحق لكل ذي لبّ ظهور الشمس لكل ذي عينين - وأيُّ ذي عقل تبقى لديه غاشية من لبس بعدما أنزل الله ما أنزل من بينات وآيات وأدلة؟ - وحتى إذا لم يبق حائل دون الاتباع إلا الاستكبار وأصروا إصرارهم على العدوان بالفعل أو التخطيط، أرغمهم على اتباع ما ظهر لهم من الحق والعدل عن العدوان، وجالدهم بالسيف على ذلك عدلاً منه وإحساناً.

وهذا المعنى في الواقع هو رأس المعاني التي حملت الدعوة الإسلامية في سنها الأولى على أن تقتصر على مجرد إيضاح البراهين ومتابعة الحجج، بينما تتروى العقول ويتضح لها الحق. بل إن الإسلام في كل عصر من العصور يعادي أشدَّ العداء أسلوب القسر والإكراه في الدعوة، لمن لم يدرس بعد حقيقته ويحصل على فكرة تامة عنه وجنح إلى السلم والمسالمة. ألم تر إلى رسول الدعوة عليه السلام كيف بقي ثلاثة عشر عاماً يتلقى إيذاء قريش وسفاهتهم، وهو ماض في أسلوب واحد من الدعوة.. أسلوب التبیین والبحث المنطقي والإرشاد إلى سبيل العقل، لا يزيد على ذلك إلا قوله: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون؟ ثم ما جاءتهم مرحلة القسر والإكراه إلا بعد أن علموا.. وقبلوا المسالمة بالبغي والكيد.

ثم ليس شأن هذا القسر والإكراه إلا كشأن القصاص الذي لا يخفى على أحد، وما عمله إلا كعمله تماماً، فكما يصح لنا أن نقول:

إن القصاص الذي هو القتل في بعض الأحيان، هو وحده السياج الذي يحوط الأمن والسلام ويحفظ قيم الحياة كما يقول الله تعالى، لا ريب أنه يصح لنا من باب أولى أن نقول: إن الضرب على يد كل مستكبر ومعادٍ للحق وأهله في دولة الله تعالى هو وحده السبيل إلى ارتكاز واستقرار ما يحمله الإسلام للعالم في طياته من أسباب السلام والنظام والسعادة.

ذلك أن القاعدة في المسألتين واحدة، وهي أن التضحية بالفرد في سبيل حياة الجماعة ونظامها طريق لحفظها وسبيل لرعايتها، بل ما من ذلك بدٌّ إن أريد أن يصار إلى أخفِّ الضررين وأقرب المكروهين، وأيهما أخف وأقرب؛ الشرك بالله وإلقاء قوانينه وأحكامه التي فرضها علينا، أم القتل لمن قاتل عناداً واستكباراً؟ اللهم ليس لنا أن نقول في هذا شيئاً بعدما أجاب الله عن ذلك قائلاً: {وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: 2/191] أجمع عامة المفسرين على أن الفتنة هي الشرك.

أما الآية التي يتذرع بها المخالفون لهذا وهي قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: 2/256] فلقد انتهت أن أعثر على مفسر واحد من المتقدمين أو المتأخرين قد جنح إلى المعنى الذي فسروها به فلم أعثر. وكل ما قيل في تفسير هذه الآية - على اختلاف بعض الصحابة في ذلك - يدور حول ثلاثة معان، وما أنا ذا أذكرها إيضاحاً وتحريراً للأمر:

المعنى الأول: وهو ما ساقه معظم المفسرين في مستهل كلامهم عن معنى الآية ورجحوه على غيره، هو أن «لا» في قوله «لا إكراه» نافية، والجملة خبرية لا إنشائية، والمعنى على ذلك لا يتأتى الاعتقاد القلبي عن طريق الإكراه. ومن ثم فلا يقبل الله من العبد دخولاً في دينه على كره، والرضا به ظاهراً في حين أن ضميره مدبر عنه وخارج عليه. إذ إنه دين مكانه النفس والعقيدة، فما لم يكن كذلك فهو عند الله لغو لا قيمة له ولا يعتد به. ولكن قد تبين الرشد من الغي، وظهر الحق من الباطل، فلا عذر في أن يكون المرء مكرهاً لا يطاوعه عقله وقلبه، ولا معنى للإكراه عليه.

المعنى الثاني: وهو ما رواه عبد الله بن عباس، أن هذه الآية إنما تعني أهل الكتاب. وذلك أنهم لا يجبرون على الإسلام وحده، إذ لهم أن يؤدوا الجزية مع بقائهم على دينهم وعقيدتهم. ويستند بعض القائلين بهذا إلى ما روي من سبب نزول الآية، وهو أن أنصارياً ألزم ابنين له بالإسلام وكانا قد تنصرا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله ذلك في شأنه إقراراً له على الجزية.

المعنى الثالث: أن الآية عامة في حكمها لأهل الكتاب وغيرهم، وكان ذلك في مستهل ظهور الإسلام، ثم نسخت بعد ذلك حينما قوي المسلمون ولم يبقَ على الغي إلا المكابرون والمعاندون، ويرى هذا من الصحابة عبد الله بن مسعود، والآية على هذين المعنيين إنشائية و(لا) ناهية، ولا ريب أن المعنى الأول هو المعنى المتوجه والمقبول، وهو الذي جنح إليه جمهور المفسرين.

ثم إنني رأيت من يستشهد أيضاً بقوله تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: 18/29]. ولأجل أن تتم لهم صورة الاستشهاد يبترون الآية من نصفها، ويقفون بها عند قوله «فليكفر» متناسين ما لها من تنمة تنادي بالمعنى المراد للآية.. إن المعنى الذي تنادي به الآية لا يخفى على أي خبير ومتذوق لبلاغة الكلام

وأصوله؛ وهو التهديد الشديد بهذا الأسلوب القوي المشرق الذي طالما يتميز به كلام الله تعالى. وذلك طبقاً لما يقوله أيضاً في معنى الآية كل المفسرين، ولذلك فهي لا تدل على شيء من الخيرة والحرية في الدين. وإنما هو حرية الاختيار في الدنيا فقط. وبعد فإن الحق في دين الله بيّن، وقوانين الإسلام في أحقيتها وسلامتها من النقص لا تحتاج إلى الزلفى والقربى من أعدائه المستشرقين وغيرهم ^[11].

بيبي وبين دكتور فاضل

«... فقلت: ولكنني سأتعيب نفسي وأنشر هذا الذي تقول. وحسبي انتصاراً أن يسجل التاريخ ويشهد أن حضارة القرن العشرين ظلت دون ارتفاع في كثير من مظاهرها إلى مستوى العقل وحقيقة التفكير الحر».

قال لي أستاذ دكتور - وهو يشرح نظرية له في معالجة الجرائم الجنسية -: إنني أرى أنّ من الخطأ معاقبة هذا النوع من المجرمين بالتعذيب والتنكيل كغيرهم من الجناة والاثمين. فذلك يربي في نفوسهم شعوراً مختلاً نحو مجتمعهم، ومن ثم فلا يكاد يستقيم لهم سلوك، ويخرج بذلك أمرهم عن طوق المعالجة والتربية.

قال: وخير من ذلك شيء واحد، هو أن نعهد إلى المجرم بضحيته ونكلفه بها، ونلزمه بالسكون إليها إلزاماً، ونجبره على ذلك إجباراً، وبهذه الطريقة فقط يضمحل شأن الجريمة، وتشيع روح الأسرة.

قلت له: ولكن أعتقد أن هذا حقاً يشيك سبل الجريمة ويضيقها، أم يمهد لها ويوسع منها؟

قال: بكل تأكيد، هو حلٌ يشيكها ويعقدها، بل وأخيراً يقضي عليها.

قلت: ولكن الذي يتبادر إلى العقل أن هذا الحل يقرب ما بُعد من الوسائل لارتكاب الجرائم الخلقية، ويلين ما استصلب في طريقها. فهذا الذي يُقبل - وقد قرر في نفسه جريمة يسعى إلى تنفيذها مع فتاة من فتيات أحلامه - إذا أدرك أن العقاب الذي سيتلقاه على جنايته لا يعدو أن يكون قراراً بإباحة تلك الجناية له، وتقديم ما تصبو إليه نفسه تقديماً قانونياً مباحاً؛ إذا أدرك هذا فما الذي سيصدّه عن ارتكابها ويحذره من عواقبها؟ بل لماذا لا يندفع نحو هذه الجريمة بجرأة نادرة كلٌّ من طلب يد فتاة من أهلها فامتنعت أو امتنعوا، ليجعلهم بذلك تحت الأمر الواقع، وهو عالي الرأس مفتول الشارب؟

ثم هل يكفي لبناء الأسرة ضم رجل وامرأة كلّ إلى الآخر بحبال الجبر والإلزام؟ وأين الحب الذي يجب أن يشيع بينهما؟ وأي ذرية هذه التي ستنشأ عن إنسانين متنافرين متدابرين جمعهما الإثم والإجرام؟

ثم هبّ أن ما تقول صحيح، ولكن لماذا لا تحاول أن تعالج هذا الموضوع معالجة وقائية، وتبحث عن الطرق السليمة لاقتلاع أسباب الجريمة من أصولها، وتريح المجتمع من عناء التفكير في تداركها ونوع عقابها ووجه القصاص فيها؟ ألا ترى معي أن من أهم أسباب الجرائم الخلقية هذا الاختلاط الفاحش، وهذا الكشف الذي زاد على التبرج، وهذا التعري الذي هان أمامه ما كنا نهلع لرؤيته، ونخشى أن يدركنا من ذلك عقاب من عند الله؟!

فقال: إنني أوافقك على نصف ما تقول، ولكنني أخالفك في النصف الآخر، فأنا معك في أن من الواجب البحث عن علاج وقائي للقضاء على أسباب الجريمة.. ولكنني أخالفك في أنّ الاختلاط من جملة هذه الأسباب. بل أنا شخصياً ممن يرون أن الاختلاط من شأنه أن يضعف من النهم الجنسي الذي لا يكون 30% منه إلا وهماً أثاره وكشفه هذا البعد بين الجنسين، وضرب هذه الحجب والستر بينهما..! وساق لي مثلاً لذلك الاختلاط في القرى، وكيف أن نسبة الجرائم الخلقية تكون هناك أقل.

فقلت له: ولكن هناك فرقاً شاسعاً بين المدن والقرى. فالاختلاط في المدن اختلاط حربي مسلح، وهو في القرى اختلاط سلمي أعزل، والاختلاط في المدن أساسه إظهار الزينة وعرض الفتنة، وهو في القرى أساسه التثمير للعمل المضني، والانهماك في مشاق الفلاحة والزراعة. والاختلاط المدني الحاضر لا تتراءى فيه أي قابلية لبعث هذه الروح التي تصفها، والأسلوب الذي ينهج عليه لا يبشر بأي فائدة مما تقول.

فالفتاة حينما تريد أن تبرز إلى الشارع، أو تظهر في الجامعات أو تنتقل بين الوظائف والمحلات.. لا يمكن أن تخطو إلى شيء من ذلك ما لم تُعدَّ للفتنة عدَّتْها، وتهيئ لاصطياد القلوب أسبابه، وتخلع حقيقة وتلبس أخرى. ويا خيبة تلك التي تعود من سعيها أخيراً دون أن تصطاد فؤاداً أو تكوي نفساً أو تقع في أمنية إنسان على الأقل. ولئن شذ عن هذه الحقيقة البعض، فإنها والله القاعدة للأغلبية العظمى منهن، وكلنا يعلم أن القوانين حينما توضع إنما يراد بها إغلاق منافذ الضرر وإن تضاعل المنفذ وكان ثقباً صغيراً..

والفتى الذي يبرز إلى المجتمع.. هو أيضاً لا يكاد يخطو ذات اليمين أو الشمال حتى يُضفي على نفسه من زينته ويزيد إلى شبابه شباباً ثانياً من التصفيف والتنميق، وحتى يتأكد من إغرائه ولطف شخصيته، وحتى يستعرض شكله في المرأة طويلاً بعين الفتيات اللواتي سيرمقنه.. ويا شؤم ذاك الذي يرجع من مغامرته بعد هذا، دون أن يسلب قلب أي أنثى أو يرى كيف أعجبت به العيون النجل على الأقل.. ولئن شذ عن هذا بعضهم، فهو والله القاعدة السارية لدى معظمهم خصوصاً الشبان الجدد الذين تخرجوا في معهدي السينما والروايات...

هذا هو الاختلاط المدني عندنا، مباراة ثائرة، وصراع عنيف لا ينتهي إلا بتحطيم القلوب، وتصديق الفكر، وهدم الأسر. فمن أين تنبعث هذه الروح التي تتفلسفون عنها، وكيف تظهر، ومتى ذلك؟!

وهنا ابتسم الدكتور.. ثم دنا إلي وقال:

اسمع، إن هذا الذي تقول، لا يشك عاقل أنه حق، وهو حقيقة مفروغ منها، ولكن من الخير ألا تتعب نفسك في أمر لن تجد من هذه المدنية الجارفة، خضوعاً له. لأن أحداً لن يستطيع مبارحة نعيمه وهواه في ظل حضارة القرن العشرين، إلى تقاليد عفى عليها الدهر والقدم!

فقلت: ولكنني سأتعيب نفسي بذلك، بل وسأُنشر هذا الذي تقول. وحسبي انتصاراً أن يعترف أرباب هذه المدنية وأنصارها، أنهم إنما يسعون إلى تحقيق أهوائهم وشهواتهم الساذجة على حساب المنطق وتحت ستار العقل، وحسبي أن يسجل التاريخ ويشهد، أن حضارة القرن العشرين ظلت

دون أن ترتفع - في كثير من مظاهرها - إلى مستوى العقل وحقيقة التفكير الحر [12].

على رسلك أيتها الفتاة [13]

«.. لا يا حضرات القضاة، إن الشرف لا يُنتصر له عن طريق امتهانه، والخلق لا يدعى إليه عن طريق تقديره وخلق رواده».

على رسلك أيتها الفتاة، فما أنت التي ينبغي أن تنتحر.
على رسلك أيتها الفتاة، فما أنت إلا ضحية مظلومة، وجنون من العدالة أن تدع الموت للمظلوم فوق نكبته، وتقدم الحياة للظالم جزاء جريمته.

أجل أيتها المسكينة، فما أنت إلا ضحية بريئة، تسأل إليك الكيد عن طريق مشاعرك الحساسة، وعواطفك الرقيقة، وقلبك الطاهر. ومن منا لا يدري أن عاطفة الأنثى أقوى من إرادتها، وشعورها أدق من تفكيرها، ووجدانها أسمى من بصيرتها؟

وهل كان في طوق الأنثى أن تحقق معجزتها في العالم، فتغذي النشء من ينبوع حنانها، وترويه من رحيق حبها، وتربيته في ظلّ عواطفها، لو لم يكن في طبيعتها ذلك؟ ثم هل كان يحوطها الإسلام بكل ما رأيناه من رفق، ويعوذها بكل ما عرفناه من صون وحفظ، إلا لأن شأنها كذلك، أي ليس في قلبها غير معنى الطهر، وفي المجتمع قلوب مأكرة، وليس في صدرها غير الحنان والعطف، وفي المجتمع ذئاب كاسرة؟

أيتها الفتاة، تعالي قبل أن تنتقمي من نفسك إذ أعجزك تطهيرها فانتقمي من ذلك الذي رشقك بالعار.

تعالي فتقدمي إلى قاعة الشرف والعدل، القاعة التي أرسى أركانها شرعة السماء، ورفع عمادها إباء الشرف، ففي هناك بقدّم راسخة ثم تكلمي... تكلمي، فستجدين لصوتك دويّاً ينبث في أرجاء الأرض، ويتعالى إلى جو السماء، ويهز أركان الدنيا.

أما خصمك المتهم، فهو شبح المدنية الحديثة.. وستجدينه متمثلاً في مظاهر ثلاثة: مظهر ذلك الفتى الأرعن الداعر، الذي اتخذ من اسم تلك المدنية لجريمته مخبأً وناباً، ومظهر أسرتك التي استعذبت طعم تلك المدنية، فغذتك بعقارها، وأنبئتكَ بمائها، ثم في مظهر هذا المجتمع الذي سهت عينه ونامت حتى تسلل هذا الشبح إلى أرجائه، وتغلغل في شتى مظاهره، فكم من أسرة هُدمها، وكم من سعادة أطفأها، وكم من حياة قوضها.

وسيقوم الدفاع عن هذا الخصم فيتكلم.. سيتكلم بثلاث كلمات «انطبلت» من تكرارها آذان الدنيا، وضجت من التسبيح بها الأحياء والأموات. سيقول: التقدم، الرقي، الحضارة. التقدم، الرقي، الحضارة. وهكذا... كلمات تفسيرها في تكرارها، وشرحها في التغيي بها، ولا على هذه الكلمات أن تحرق بيتاً أو تमित فضيلة أو تزلزل كيان أسرة، مادام أنها: التقدم، والرقي، والحضارة.

وستقوم بعد ذلك (النيابة).. وستهدر على سمع العدالة بكلام طالما ردّته شرائع السماء، وآمنت به عقول من في الأرض، وسيكون من بعض كلامها ما يأتي:

- يا قضاة الأمة وحماة الشرف:

إن مشكلتنا هذه أجل من أن نفتديها بألفاظ.. ولو أتيح لنا أن نحلّ مشكلاتنا دائماً بظلال الألفاظ، إذن فما كان أغنانا عن عقول المفكرين وقوانين المشرعين، وإذن لكان لنا في كل كلمة لمشكلة حلاً:

إننا يا حضرات القضاة، أمام قصة إنسانية بريئة.. كم انسحقت بين ماضغي هذه المدنية الحديثة، فمزقت عنها جلباب كرامتها، وأطفأت لها رونق طهارتها، ثم لم تجد بين شيء من ألفاظ تلك

المدنية ما يواسي ضررها أو يرحم نكبتها، فلم تر بدءاً من الالتجاء إلى ظلام الموت وأمواج العدم، لتتخذ من ذلك جلباباً يستتر عريها، وطهوراً يزيل عارها.

ألا فاسألوا البحار المتلاطمة، كم رسا في قاعها من جثث مثل هذه الضحية التي قذفت بها يد هذه المدنية إليكم! واسألوا الليالي الحالكة كم اختفى وراء سُدفِتها من أمثال هذه البائسة الماثلة بين يديكم! واسألوا هذه البيوتات والأسر، كم دهاها من زلازل، وسال في جوانبها من دماء، ودار فيها فلك الموت على ضحايا مظلومة بريئة! كل ذلك بفضل هذه المدنية التي تَقَمَّصَتها وحوش الشهوة وكلاب الرذيلة.

يا حضرات القضاة:

أحسب أنه لم يعد يخفى على أحد أننا قد أخطأنا في شرح هذه المدنية التي يتغنى الناس بها. وأحسب أنه لم يعد يخفى على أحد أن اختلاط الجنسين في أكثر مظاهر هذا المجتمع لم ينبت لنا إلا قناداً وأشواكاً من مثل هذه الضحية الماثلة أمامكم.

وأحسب أنه لم يعد يخفى على أحد أن ألفاظ الحب والشعر والغرام بين فتى وفتاة، إن لم تشرف عليها عقدة النكاح، كانت ألفاظاً ليس معناها إلا المكر والخديعة والإجرام.

وأحسب أنه لم يعد يخفى على أحد أننا أخطأنا كثيراً حينما عرّفنا الفتى الاجتماعي بذلك الشاب اللبق الخبير بفنّ مغازلة الفتيات، الذي يعرف كيف يحادثهن ويجاذبهن ويراقصهن. وحينما عرفنا الفتاة الاجتماعية بأنها التي بلت طبائع الشبان واستحوذت على طريق مداورتهم واللعب بعقولهم.

وأحسب أن قد آن لنا أن نترفع عن الإنصات إلى هذيان المتشبهين المتفلسفين الذين يقولون: إن إقامة الحواجز التقليدية بين الجنسين يدعو إلى الكبت.. وإن مثل هذه الضحايا لا بد من تقديمها لأننا في فترة انتقال...!

إنهم يا حضرات القضاة يريدون أن نرضى بدفع الثمن الذي دفعته أوربة بفترة انتقالها، لقد كان هذا الثمن هو آلاف الأمهات اللواتي لم يعرفن في حياتهن معنى الزوج، وآلاف الأطفال المشردين الذين لم يعرفوا في حياتهم معنى الأبوين، وآلاف العائلات التي لم تعرف في حياتها معنى الشرف والعفاف، على أن فترة الانتقال عندهم لا تزال باقية، والثمن لا يزال يقدم ويدفع!

يقولون: إن المحترق الظمآن إلى الماء، إذا اتخذ مكانه بين ينابيع الماء البارد الزلال بردت حرقة وزهد في الماء وزال ظمؤه.

نعم، إن هذا صحيح، ولكن أيُّ حمار يجهل أن انطفاء ظمئه إنما جاء من انتفاخ بطنه بالماء الذي يجري من حوله؟ اللهم إلا أن يكون هذا الحمار مثل ذلك الأحمق الذي قالوا إنه جاء من البادية جائعاً تنقلص أمعاؤه الخاوية من الجوع، فوجد خبازاً يقف على أكوام من الخبز الجيد الساخن في هدوء تام، دون أن يلتهم أو يأكل شيئاً منه، فعجب منه الأحمق وهو يتهافت على الخبز، وقال في نفسه: إن هذا إلا ملك كريم، يشبعه الدعاء والتسبيح. أي تماماً كملائكة أوربة الذين طهرتهم كؤوس هذه الفلسفة عن الشهوات والأهواء...!

لا يا حضرات القضاة، إن الشرف لا يُنتصر له عن طريق امتهانه، والخلق لا يُدعى إليه عن طريق تقديره وخلق رواده.

إنني يا حضرات القضاة، أطالبكم باسم شرعة السماء التي كلنا ننضوي تحت لوائها، وباسم شرف العروبة الذي يجري أواره في دماننا، وباسم هذه الفتاة ودموعها؛ أطالب باسم ذلك أن تقلموا

مخالب هذه المدينة وأنيابها، وأن تصحوا ما التبس علينا من أفاظها، وأن تلبوا داعي السماء
فتقيموا أحكامه التي خضعت لسلطانها.

أيتها الفتاة: بعد أن يجلس النائب العام وينتهي من كلامه، وبعد أن يتداول القضاة الحكم فيما بينهم،
إما أن تنتصر العدالة فيحكم لها، وحينئذ فارجعي إلى بيتك عالية الرأس كريمة النفس، وإما أن
تعود المدنية فتنتصر ونرجع إلى عسفها واضطرابها، وحينئذ.. وحينئذ أرى أن تعودني إلى ذلك
المكان الذي وقفت عليه لتنتحري.. فما في بقائك في المجتمع الذي سحق كرامتك ومزق طهرك
من سعادة وأنس.

النفوس الذليلة

... إنني قد أرى في وحدتنا الجديدة بريقاً من التفاؤل والأمل، ولكن هذا البريق لا يمكن أن يدنو فيلامس نفسي مادام في شعوبنا عرب مستعجمون ومسلمون متفرنجون...

كنت راكباً البحر في سفرة لي من دمشق إلى القاهرة، وكان إلى جانبي في الصالون ثلاثة من الشبان، عرفت أنهم من بعض هؤلاء السواح الأجانب، فقد كانوا لا يتكلمون فيما بينهم إلا باللغة الأجنبية، ولم يكن يتبين في نوع حركاتهم، وشكل لباسهم، وغطاء رؤوسهم، إلا ما يدل على أنهم أجانب غربيون لحماً ودماً.

ولكن كم كانت دهشتي بالغة حينما وصلنا إلى ميناء الإسكندرية واجتمعنا حول رجال الأمن لختم جوازاتنا. فقد تبين إذ ذاك أن أولئك الشبان الأجانب لم يكونوا إلا عرباً مسلمين مثلي ومثلك... يعيشون في بلاد عربية شرقية مسلمة! وأسفت أشد الأسف، وتأثرت أبلغ ما يكون التأثير، ثم مضت أيام ونسيت الحادث.

وبعد مدة.. صليت الجمعة في جامع قلعة محمد علي بالقاهرة، فرأيت هناك ثلّة من الأجانب الغربيين يستعرضون ما في الجامع من آثار وتحف، وقد حفّ بهم المترجمون والمعرفون، لأن أحداً منهم لا يعرف اللغة العربية.. ولكن كم كانت دهشتي بالغة حينما رأيت أحد هؤلاء الذين يجهلون العربية يدنو بقرينته إلى لوحة في المسجد، فيقرؤها أحسن ما تكون القراءة، ثم يلتفت إليها فيترجم لها ما قرأ أحسن ما تكون الترجمة والبيان!

قفزت إلى ذهني في تلك اللحظة قصة أولئك الشبان العرب المسلمين، وعادت إلى خيالي صورتهم تلك في تفرنج «سحتهم» وتمشّدق ألسنتهم. ولا يعلم إلا الله مقدار الألم الذي أطبق عليّ من ذلك، ولا يعلم إلا الله مرارة الأسف الذي تلبس مشاعري من مقارنة هذه الصورة بتلك.

أولئك عرب مسلمون، يعيشون في بلادهم وبين إخوانهم، ثم لا ينظرون إلى لغتهم التي هي روح كيانه إلا نظرة ازدراء تجعلهم يتجاهلون، ليديروا بين فكاهة رطانة أعجمية غريبة، ليس بينها وبين دينهم وعروبته أي نسب!

وهؤلاء أجانب أوروبيون، يسيحون في بلاد غريبة في لغتها وعاداتها عنهم، ثم لا ينظرون مع ذلك إلى لغتهم إلا نظرة إكبار تجعلهم لا يتعرفون إلى غيرها حتى في ساعات حاجتهم وأوقات غربتهم! أما إنني قد أرى في تكاتفنا ووحدتنا الجديدة بريقاً من التفاؤل والأمل، ولكن هذا البريق لا يمكن أن يدنو فيلامس نفسي ما دام في شعوبنا عرب مستعجمون، ومسلمون متفرنجون، قد ران الاستعمار على قلوبهم، فسلب منها الإكبار للغتهم، والإيمان بدينهم وقوميتهم.

ووالله إن أمثال هؤلاء فينا ليسوا بقلّة، بل إنهم لكثيرون، وإنني لأذكر أني شاهدت كثيراً ممن يحاولون بكل ما لديهم من جهد أن يدخلوا إلى أذهان من حولهم أنهم غربيون في لباسهم وفي لغتهم وفي عاداتهم، وأنهم إنما يصنعون من حولهم هؤلاء الشرقيين مصانعة ويجاملونهم مجاملة، وكم جالست أناساً لا يعرف أحدهم من حديث الجامع والمجالس إلا أن يقول - في تلمّظ وتشدق، وتغمّ في العين، وتمطّ في الفم -: إن هذا الشرق متأخر.. غير راق.. وأنه يتمنى لو كان أوروبياً يعيش في أوربة، بل إنه قد كان ينبغ كثيراً لو عاش في مجتمع أوربي... وأنه مظلوم... مظلوم بسبب ضياعه في هذا الشرق..!

وأقسم لو كان لرأيي في مثل هذا الشأن قوة الحكم والنفوذ لما ترددت في القول بأن أمثال هؤلاء يجب أن يعاقبوا ولا عقاب كبار المجرمين، بل يجب أن ينفوا ويعدموا من هذا الشرق كله، فهم - كما يقولون - ببقائهم هنا مظلومون، وإن الشرق نفسه لمظلوم بذلك أكثر.

إن أمثال هؤلاء إنما يعيشون في هذا الشرق ليتلها بنعمه، ويستمرئوا خيراته، ثم ليكونوا أشواكاً في طريقه وعثرة في تقدمه. وإنهم والله قد أعياهم الخمول والكسل أن يعيشوا في وطنهم أفراداً صالحين يتجاوبون معه، ويساهمون في خدمته، ففعدوا يتمشّدون بكلمات أجنبية لم تبصم غيرها أدمغتهم، وأخذوا يرددون في المجالس قصة أوربة وعادات أوربة ومناهج أوربة، وأن الشرق في كل ذلك دون أوربة، وأنهم يأسفون كل الأسف لأنه لم يكن مثل أوربة. يحسبون أن مثل هذا الهرج يعوض لهم عزاء، أو يحدث لهم شأنًا أو يضعهم في مصاف المتقفين والمفكرين.

ولعمري لو لم تكن الحماسة قد ركبت أدمغتهم، لأدركوا أن هذا الشرق إن كانت فيه نقطة سوداء فإنما هي من ظلهم، ولعلموا أن الذي يغار على وطنه ويأسف لتأخره - إن كان فيه تأخر - لا يدبر لبيتعه عنه، ويخلع عاداته ليتبرأ منه، وإنما يشمر عن ساعديه ليتفادى نقصه، ويبذل كل جهده ليعمل على تقدمه. ولو كان كل الذين يغارون على أوطانهم وبلادهم يلجؤون إلى مثل ما يفعل هؤلاء... إذن لما سجل التاريخ لواحد منهم أي خدمة أو إنسانية، ولما أشاد ببطولة أحدهم أو تضحيته وإخلاصه.

ولعمري لو لم يكن هؤلاء مصابين أيضاً في وعيهم وكرامتهم لأدركوا أن اللغات الأجنبية لم توضع بين مناهجنا الثقافية لكي تكون مادة للفخر والتعظيم في المجالس والمجتمعات، أو لتكون من مقومات ثقافتنا الحقيقية. وإنما قررت لتكون باباً إلى استجلاب ما ينقصنا من أسباب القوة والحضارة عن طريق الترجمة والاطلاع.. وليس في استجلاب فنون القوة وأساليب الحضارة بأي طريق كان ومن أي أمة كانت أي غضاضة أو عيب.

هؤلاء فريق... وهناك فريق آخر، هم أغرب من هؤلاء.

والحديث عنهم يثير الضحك... الضحك المؤسف المر، إنهم كثيرون وكثيرات ممن يتصنعون ويتصنع الثقافة والوعي.. ولكنهم لا يملكون من مقومات هذا الوعي العظيم سوى التقزز والقرف من كل قديم، والاندفاع الأعمى نحو كل ما هو جديد. ثم لا يملكون من الحقائق العلمية التي يدافعون بها عن جديدهم سوى أن يقولوا في استنكار مترفع: أفتريدون أن تعودوا بنا إلى القرون الوسطى..؟

بهذا فقط سمعت أحدهم يبرر دعوته إلى اختلاط الجنسين في المدارس. وبهذا أيضاً سمعت إحداهن تبرهن على أحقية ما تدعو إليه من أفكار مستوردة.. فهل علم هؤلاء ما هي القرون الوسطى التي يقرفون من اسمها؟ وهلا درسوا شيئاً من التاريخ ليعلموا أكانت تلك العصور الوسطى متاهة مظلمة وانحطاط كما يتوهمون، أم مثار معجزة تاريخية لعل دماغ القرن العشرين بين كثير من فتياننا وفتياتنا لا يبلغ أن يدرك سرّها، فضلاً عن أن يحقق لهذا العصر مثلاً..

إن العصور الوسطى - يا أرباب الوعي والثقافة الخارقة - هي التي صنعت تاريخكم العلمي والحضاري، وهي التي سجلت لكم في سمع العالم دويًا، وهي التي أكسبتكم في صدور الأمم مكانة وفخراً.

من عقلية العصور الوسطى التي تقرفون منها خلق علم الاجتماع. وما كان كل من فيكو، وواجيست كونت، وكتلييه، إلا عالة متسولين من حولها، ومن بساطة تلك العصور التي تترفعون في خيلاء عنها انطلقت علوم الطب والكيمياء والفلك والنفوس ومختلف الفنون الرياضية، وما كان أولو الفكر الذين أناروا شعلة الفكر بعدئذ في أوربة إلا تلامذة معترفين لتلك العصور، وآباؤكم من رجال القرون الوسطى هم الذين مدوا في فتوحاتهم الجبارة يميناً إلى الغرب أخضعت لهم بلاد الأندلس، وشمالاً إلى الشرق أوصلتهم إلى بلاد الصين، وفي عزمة لم ينسها الدهر قذفوا إلى البحر بالصليبيين وحملاتهم، وبقي بيت المقدس طاهراً لم يدنسه قذئ من أرجاسهم، واليهود الذين يستحلونه اليوم لا يبلغون معشار ما بلغوا...

هذه هي القرون الوسطى، وتلك هي حضارتها وريقها..

وإلى شباب البروتوكول والسلاسل الذهبية التي تتلوى على معاصمهم أو تتدلّى من أعناقهم، وإلى فتيات الجابونيز، ربات المرأة والتواليت ومتعشقات كل ما هو غربي أتوجه سائلاً:

ما الذي نفع الوطن من الترقيع الذي سعيتم مهرولين فيه وراء غيركم، والذي سميتموه لنا مدنية وحضارة، حتى تتمشدقوا به مباهاة وتثوروا من أجله غيرة ودفاعاً؟ وما الذي ضر الوطن والتاريخ من العصور الوسطى وذويها حتى تنفضوا آذانكم من غبار الحديث عنها وعن تقاليدها ومميزاتها؟

لعلكم سمعتم أهل أوربة يلعنون عصورهم الوسطى، فقلدتموهم حتى في ذلك؟ ولكن ويحكم! إنها في الوقت الذي كانت ظلاماً تخيم عليهم، كانت إشراقاً معجزاً ينبعث من عندنا، فهل وصلت بكم المتابعة العمياء حتى إلى هذا الحد...!!

إن فرق ما بينكم وبين قرونكم الوسطى، أن أهلها خلقوا للعالم معجزة، وأسسوا للدنيا حضارة، وخلدوا فيها تاريخاً وعلماً، كل ذلك في تواضع ووقار وصمت. وخلقتم أنتم في مكان ذلك كلاماً.. واستعصتم عن الاختراع تقليداً واتباعاً.. وتباهيتم بآثارهم في الوقت الذي تتبرؤون من تقاليدهم ولون حياتهم.

والكلام لا يبني مجداً جديداً، والاستهواء التقليدي لا يعوض عزاً فائتاً، والشباب الذي لا يهديه عقله إلى اتباع خطأ أجداده الفاتحين لا يعرف أن يطرد من بلاده عدواً. والفتاة التي تتخذ من الثقافة والفنون مسحوقاً جديداً من «الماكياج» للسانها ليست هي التي تهز العالم بشمالها، والمشكلة ليست مغروسة في فصل الطالبات عن الطلاب أو في عدم تقرير حياة الاختلاط، إنما المشكلة في أننا لا نعلم ولا نريد أن نعلم لماذا خلقنا، وما هي وظيفتنا في الحياة، وكيف يجب أن نضن على الوقت بضياعه في توافه الكلام، والعادات والتقاليد والحفلات والجيئة والذهاب، دون أي عمل جوهري يتصل بالوظيفة التي خلقنا لأدائها.

إن هذا الشرق لن يعثر على مجده الضائع إلا إذا تطاول واستعلى، وبلغ في نهج حياته وروحها وتقاليدها ذلك المستوى الرفيع الذي كان يسير عليه أجدادنا في القرون الوسطى... القرون التي نعيش اليوم تحت منئتها وتفضلها.

وما الحياء الإيجابي إلا تحقيق لهذا التطاول والشموخ، وما وحدثنا التي تمت إلا ابتداء سير في هذا

الغايات والوسائل في حياتنا العملية

... يا رجال الأمة: اضمّنوا لي مجتمعاً تنتظم فيه الوسائل والغايات، أضمن لكم حياة تستقر فيها السعادة والأمن

من أهم الأسباب التي تمنع حياتنا العملية أن تؤتي ثمارها وارفة كاملة، والتي تجعلنا كأنما نسير في دائرة مفرغة، تبدأ من حيث تنتهي، وتنتهي من حيث تبدأ، اختلاط الوسائل والغايات علينا، والتباسها وتداخلها بعضها ببعض.

فنحن في معظم اتجاهاتنا وشؤوننا، قلما نحاول أن ندرك ونفرق بين ما هو غاية تستحق لذاتها التقديس، وما هو وسيلة إلى تلك الغاية، تقدر ولكن لغيرها، وتعظم ولكن مادامت تحقق المراد منها.

وكيف تستطيع أمة أن تستثمر أعمالها، وتفيد من جهودها إذا لم تكن بحيث تميز بين هاتين الطائفتين من شؤون الحياة، لتقدر كلاً منها قدره وتوليّه من التقديس ما يستحق؟

وعندي أن الغايات الرئيسية التي يجب أن يكون لها منا التقديس التام الدائم، لا تكاد تزيد على ثلاث غايات: التدين الذي خلقنا من أجله، والكيان القومي الذي ترتبط به حياتنا، والثقافة التي هي ميزان قيم الأمم، ولا يردُّ هنا ما يقوله بعض فلاسفة الاجتماع من أن النقطة الأخيرة المقدسة من مقاصد الأمة لا يمكن أن تتسع لغايتين، إذ إن إحداها ستكون في الحقيقة وسيلة للأخرى، وبذلك لا بد أن تعود الغاية واحدة فقط، نقول: إن هذا لا يرد هنا، لأن كلاً من غاياتنا الثلاث متمم للآخر ومرتبطة به. فديننا الإسلامي لا يقبل أن يقوم إلا على أساس ثقافي دقيق، وثقافتنا نفسها لا تتكامل إلا إذا تشربت روح الدين، وكياننا القومي حقيقة لا تقوم إلا على تاريخنا الديني والثقافي. فنقطة الغاية المقدسة في حياتنا إذن هي هذه الوحدة الكاملة المتضمنة لهذه العناصر الثلاثة.

ولكن هل نتذكر هذه الحقيقة في حقل حياتنا العملية، ونعمل طبقاً..؟ وهل نقدر كلاً من هذه العناصر الثلاثة على أنها غاية بذاتها، ونجلّها على أنها مقصد برأسه ما وراءه من بغية؟ الواقع أننا ننسى هذا.. والواقع أننا إذ نتعلم إنما نعتبر التعلم مرتقى إلى غاية ووسيلة إلى هدف، والطالب الذي يعكف على اقتناص الحقائق العلمية وكشفها، لا تهمله تلك الحقائق بمقدار ما تهمله الشهادة التي ينتظرها بفارغ الصبر، ليصل بها إلى أيّ وظيفة يتمتع من ورائها بعيش رخي.. ولا على الحقائق العلمية بعد ذلك إن بقيت لديه أو محيت..

وواضح أن من آثار الخلط في فهم هذه الناحية أن تغيض الصناعات العملية والمهارات اليدوية من المجتمع، وأن يصبح عامة الناس عيلاً على رصيد الدولة، يتقاسمون لقاء لا شيء... ثم تقدم بعد ذلك النتيجة الطبيعية، وهي العجز في الدولة والفقر في الأمة والضعف في الإنتاج.

أما الدين فلست بمبالغ إن قلت إنه قد نزل في صدور معظم أربابه ودعائه في مكان الوسيلة لتحقيق أغراض والأمان، لقد اكتشفوا أنه شيء مريح.. ونظيف.. ومحبب إلى الناس ومعظم لهم في الأفئدة والأبصار... ثم هو فوق ذلك كله تجارة رابحة مئة في المئة، وبمقدار لباقة أحدهم ودهائه وتأثيره على (الأحباب)، ترتفع نسبة الأرباح... وهكذا نزلوا بالدعوة الدينية عن مستقرها الأقدس السامي، وراحوا يجرّجرونها وسيلة للمطامع الأرضية المادية الفانية..

وكان أن فقدت الدعوة الدينية بذلك كيانها العظيم الموحد، وتصدعت إلى قطع وأجزاء.. كل قطعة في يد واحد منهم، يشدها وينفخها ليجعل منها ديناً برأسه يدعو إليه دون غيره.. وكانت النتيجة

الأدهى من ذلك أن تفرق دعاة الدين وتدابروا وتطاعنوا... وهم أخرى الخليقة كلها بتقدير المثل العليا، والإخلاص لها والاستماتة في سبيلها.

ولست أنسى أن بينهم من هو كالنجم في الإضاءة والطهارة والإخلاص، ولكن ذلك هو الشأن الغالب على كثير منهم اليوم.

أما الوسائل... أما الوسائل التي ننسى أنها أغراض تستخدم لغيرها، ونُحوّرها بذلك عن مجاريها فكثيرة جداً. وإنك لتستطيع أن تلمس في كل وجه من أوجه نشاطنا الاجتماعي وسيلة إلى غاية من الغايات التي ذكرناها، لو أننا أردنا أن نستعمل ذلك على وجهه المناسب.

فالفن مثلاً وسيلة... الفن بأنواعه من غناء وتمثيل وشاشة، كل ذلك وسيلة، وأيما وسيلة! لغاياتنا المقدسة، لو أنا استخدمناه استخداماً منظماً، كم من ألحان أمدت أمماً بالشجاعة والبأس، ونبهتها من حلم، ونشطتها من خمول؟! وكم من مسرحيات فعلت في الألباب ما لا تفعله مواعظ، وبعثت فيها من النهضة والوعي ما لا تبعثه الخطب الحماسية، ولا الحقائق العلمية؟! والسينما...

هل السينما إلا دار لتربية النفوس ومعالجتها، وورشة لبعث الصناعات وإحياء الاختراعات، وهل اقتبست أوربة جل رقيها إلا عن طريق السينما ومدرستها؟

ولكننا مع الأسف، قد نسينا أو تناسينا أن كل ذلك وسيلة، فجعلنا من الطرب والغناء مادة للتداعي وإشباع النهم الغريزي، واتخذنا من دور السينما مثابة لحك الجرب الجنسي، ثم عدنا بعد ذلك دون أن نلمس نتيجة أو نرقى إلى أي غاية.

والمال أيضاً وسيلة، يعتمد عليها الفرد في أداء وظائفه ويستخدمها المجتمع في بناء نظمه وأسسه، وما أعظم فائدته وإنتاجه حينما يستعمل على أنه كذلك، وما أشد كوارثه حينما يقصد لذاته. أما نحن فنأبى أيضاً إلا أن نقصده لذاته، ونأبى إلا أن نتخذة على أنه من أسمى الغايات وأجلّها، يُجمَع ليُكُنَز، ويُدَّخَر ليُخلَد، ويربى ليُتَعَظَم به، وكان من نتيجة ذلك أن تكاثفت وتزاحمت الأمة من حوله، ولم يكن للحصول عليه إلا وسيلة المباراة والصراع... فربح المعركة أناس، وخسرها آخرون، أولئك يعيشون في ظلال من الترف، ولا يجدون أمامهم ثغرة يبعثون فيها ما معهم من مال، وهؤلاء يعيشون في ظلام العُدم، ولا يجدون أمامهم قرشاً يحصلون به على لقمة من طعام. ولو أننا شئنا أن نعترف بأن المال إنْ هو إلا وسيلة... ولو أننا استخدمناه على أنه مجرد وسيلة، لقام لنا على ذلك مجتمع رخي تفيء سعادته على جميع أهله وأفراده.

وبعد، فيا رجال الأمة: اضمّنوا لي مجتمعاً تنتظم فيه الوسائل والغايات، أضمن لكم حياة تستقر فيها السعادة والأمن.

قلب يحترق [15]

... فقلت له: ولكن ما الذي منعهم من أن يمكنوك من رؤية الفتاة قبل زواجك منها؟

قال: التقاليد يا سيدي... الشبهة الأبية... منعهم عن ذلك أنهم بزعمهم محافظون...

زارني بعد غيبة طويلة، ظننته في خلالها قد غادر القاهرة إلى بلده، ولمّا عرفته وتبينته أهّلت به ورحبت، وقمت أهّئي له كأساً من الشاي، وكانت ليلة مطيرة باردة، والشتاء في القاهرة وإن كان أخف وطأة منه في سورية إلا أنه كثيراً ما يدفع بموجات من البرد القارس، لا تعلم من أين جاءت أو كيف ظهرت.

ثم جلستُ إليه، أكلمه، وأسأله عن شأنه وحاله، فراعني أن رأيته ينظر إلى ما حوله بعين شاردة، ويكلمني بما لا يعي، وشعرت أن تفكيره لا يكاد يرسو عند أمر. ورأيته يقفز من حديث إلى آخر، ومن موضوع لغيره، فأدركت من مظهره، ورائحة حديثه، أن الرجل قد ألتمت به نكبة ما.. جعلته من تأثيرها كالتائم المغشي عليه، وضربت بين لسانه وعقله بحجاب، فهو يهذي بما لا يعلم! وبعد لأي، استطعت أن أوقظه من غمرة سباته ليمك من الوعي ما يقص به عليّ كارتته القاتلة...

قال لي: كنت إلى أيام أعيش خالي القلب، مستريح البال. وكأنما كنت متوجساً ألا تبقى لي تلك الراحة، ولا يدوم لي ذلك الهدوء... فكنت أسأل الله تعالى اللطف والستر. وكنت أحوط قلبي دائماً، وألفه بالحب والتعاويد، خيفة أن تمتد إليه من هذا المجتمع شرارة تحرقه أو يد تسرقه.. إلى أن جاء قضاء الله، ووقعت فيما كنت أخشاه، وإلى أن رأيته.

لقد رأيته يا أخي، ويا ليتني لم أعرف الطريق الذي زجني إليها، رأيته صاعداً في العمارة التي أسكن فيها وهي نازلة... وفجأة التقت عيناها بعيني، واشتبكت النظرتان، وجمدنا على ذلك لحظات..

أما أنا فماذا رأيته؟ لا أقول لك: جمال، ولا سحر، ولا شيئاً من هذه العبارات. فكلها قد تكون كاذبة إذا صدرت من إنسان محب.. ولكن الذي أتأكد من أنني صادق فيه، هو أنني لم أكد أنظر إليها حتى خيل إلي أنني أمام إنسانة أعرفها منذ أزمان وأحقاب، وأن هذا الهيكل القائم حيالي إنما هو بقية من قلبي، طالما أرقتني وأزعجني للبحث عنه، ورأيته يقفز ويصّاعد في صدري، كأنما يبحث عن سبيل لينقض منه على جزئه الذي عاد إليه، وبقيته التي طالما حنّ إليها.

أما هي، فقد رأيته نظرتها الشاردة في عيني كأنما تقول:

ألا تذكر؟ ألا تذكر أنك تعرفني؟ ألا تذكر إذ كنا قلباً واحداً وجسداً واحداً، فتقسّم الجسد وتمزج القلب. والآن.. أفلا تغتبط أن التقى الجسمان واتحد القلبان؟

ثم مضت - يا صاحبي - ومضيت، دون أن أكلّمها أو تكلمني.. مضيت متحاملاً على نفسي، أستقبل هذه النكبة التي لا أدري ما الذي سيختمها به القضاء. مضيت ويا ليتها كانت اللقيا الأولى والأخيرة، ولكن الحب نبّه كلاً منا إلى صاحبه، وأصبح بعد ذلك سلّم العمارة التي يسكنها كلانا كموعّد لقاء.. لقاء لا تتحدث فيه سوى الأفئدة والعيون..

فقلت له: ولكنك يا أخي متزوج، فكيف رأيت تلك الفتاة فراغاً في قلبك حتى استحلّته؟!

فاستضحك بفتور، ثم قال:

وهل نفخ هذه النار في ضلوعي إلا أنني متزوج... إنني لدى الناس الذين يبصرون ولا يعرفون، متزوج... ولكنني في الحقيقة عازب... عازب اتخذ من الزواج قيداً يحبسه على عزوبته ورهبانية

حياته كلها!

قلت: وكيف ذلك؟

قال: خطبت لي أسرتي فتاة لم أكن قط شاهدها ولا عرفتها، وأصدروا أوامرهم إلي أن أقبل ذلك على ظلام الجهل بها وبشكلها، دون أي تردد أو دلال. ذلك أنهم قد عرفوا الفتاة وأحبوها واقتنعوا بها.. وإذا أحبها قلب الأب والأم، فقلب صاحب العلاقة لا عبرة به، ولينقلب الحال بين الفتاة وزوجها بعد ذلك إلى جحيم إن شاء، فكل ذلك شيء عارض مادامت رغبة الأسرة هي التي تحققت! ولذا فإنه لم يكن عليهم سوى أن يتخيروا ويأمرؤا.. وليس لي إلا السمع والطاعة... فسمعت وأطعت.

سمعت وأطعت، لأجد نفسي أمام فتاة ليس بينها وبين قلبي أي صلة لا في شكلها ولا في طبعها ولا في سنها.. ورأيتني وإياها قد أصبحنا ضحية للأسرة الحاكمة... أمّا أنا فبهيات الخلاص وقد وقعت... وأما هي فقد رأيت أن أمر إسعادها في يدي. فقلت في نفسي: إذا فاتني أن أشعر السعادة نفسي، فيجب ألا يفوتني أن أشعرها غيري، ومن رحمة الله بعباده المنكوبين، أنه يشعرهم بمثل ما فاتهم من سعادة في إحسانهم إلى من يعيشون معهم في النكبات. ومنذ ذلك الحين وأنا أطلعها مني على قلب مستعار وشعور غير حقيقي.

أما اليوم.. أما اليوم، وقد وقع ما كنت أخشاه فكيف أصنع؟ وكيف أعيش؟ كيف أسعد نفسي، وأبقي على سعادة تلك؟

لقد وقعت والله يا صاحبي تحت كارثة ذات ثلاث شعب: حب يحرق القلب، ويأس يقتل النفس، وشفقة تمزق الكبد!

فقلت له: ولكن ما الذي منعهم من أن يمكنوك من رؤية الفتاة قبل زواجك منها؟

قال: التقاليد يا سيدي.. الشهامة الأبية.. منعهم عن ذلك أنهم بزعمهم محافظون.. ثم هب أنني رأيتها، ولكنني لن أستطيع الخروج أيضاً عن حكم الأسرة الحاكمة وقرارها. ثم قام تاركاً كأس الشاي كما هي، وأدبر، دون أن أستطيع مواساته ولا بكلمة. قلت لنفسي بعد أن حدث حديثه ومضى: إنا لله، إن هذا وكثيراً من أمثال هذا يذهبون ضحية مجتمعهم لأمرين: الجهل بروح الإسلام والبعد عن أحكامه، والشغف بكل ما ينبع به الغرب من مفساد.

فلو أننا أدركنا أن الإسلام يعتبر رضى كل من الزوجين، ويأمر برؤية الفتاة عند خطبتها رؤية كافية، وخضعنا لذلك... ولو أننا نظفنا مجتمعنا مما عصفه علينا الغرب من هذا التبرج والاختلاط؛ إذن لما شقي هذا الفتى في بناء أسرته ولما فقد قلبه في لحظة واحدة، وهو أحوج ما يكون إليه.

من المسؤول عن هذه الضحية

... ولكني ما علمت إلا أخيراً أن اسم الثقافة والفن على هذه الكتب ما هو إلا لفافة سوداء تشد بها أعين قارئها، لتوصلهم من حيث لا يشعرون إلى أسفل الهاوية حيث الخمر والليل والشقاء. تلاقينا في الفندق.. ورأيت منكباً على مصحف بين يديه، يردد في خشوع وتأثر بعض آياته، ولم يخطر في بالي أن أفهم الآيات التي يرددوها، أو أن أقف على سر خشوعه منها، فقد استرعاني شيء أغرب من ذلك، لقد عرفت هذا الفتى كما يتحدث عنه من يعلمون تفاصيل حياته، شاباً ماجناً مقامراً، يعاقر الخمرة، لا يفلتها ولا تفلته. فمن أين هبت في نفسه الجامدة هذه النسمة من الروحانية والتقوى في هذه الساعة؟!

وشجعتني هذا الاستغراب، مع ظلال روحانيته المنتشرة حوله إذ ذاك أن أتقدم إليه مسلماً ومصافحاً، وأن أسأله أخيراً عن السبب الذي أثار في نفسه هذا الخشوع على الرغم من كل ما يُسمع عنه من الخروج على دائرة الشرع في كثير من أحكامه الخلقية، بين جميع أهل حيّه وجيرانه!

فنظر إليّ نظرة صامتة، كأنما أثار سؤالي في نفسه ألماً حزّ في مشاعره، ولم يخف عليّ أن هذا الألم إنما هو التحسر من شيوخ التواء سلوكه بين جميع أهل حيه كما أقول. ثم أمال كرسيه نحوي، ورفع إليّ حاجبيه قائلاً:

دعاني إلى الخشوع والتأثر، أنني تذكرت برؤية هذا المصحف حياتي الماضية، حياتي المستقيمة التي طويتها وأدبرت عنها... سعادتي التي لا أدري كيف عفتها وفارقتها.. دعاني إلى هذا الذي تسميه خشوعاً أنني أنظر إلى حياة الاستقامة والتدين التي عشت في ظلالها خمساً وعشرين سنة، كما ينظر الموتى من وراء قبورهم إلى الحياة التي فارقوها، يحرق فؤادي ذكراها والحنين إليها، وتمنعي نفسي التي أفلت بيدي زمامها من العودة إليها.

ثم سكت الفتى، وراح يحملق في الأرض ضاماً شفثيه بشدة، كأنما يدافع غيظاً قد تجمع في نفسه، ولكنه سرعان ما عاد فرفع رأسه إليّ وحدّق في وجهي قائلاً:

ولكن أتريد أن تعلم ما هي اليد الحقيقية التي أفلتت مني زمام نفسي، ودفعت بي إلى الهاوية؟ وهبّ من الكرسي الذي كان جالساً عليه إلى معطفه المعلق على مقربة منه، فانتزع من جيبه «رزمة» من المجلات والقصص المختلفة وألقاها بين يدي قائلاً:

هذه.. هذه هي اليد التي خربت بيتي، وألقت بي في يم متلاطم من حياة الفجور والشقاء، لا مأوه المالح يرويني، ولا كبدي تبرد حرقة وتسكن لهفته، ولا أوصالي تسعفني بالعودة إلى شاطئ السعادة والأمان، هذه المجلات، دفنت سعادتي وهي في المهد... قوضت بناء بيتي الذي طالما فكرت فيه، وأسرتني التي طالما كنت أحلم بها وأقيم في ذهني نموذجاً سعيداً لها، فرقت بيني وبين فتاتي الطاهرة التي رضيت بها لطهارتها، وقنعت بي لطهارتي، فلما أزلقتني هذه المجلات في الهاوية تنكرت، وتنكر لي أهلها، بل وتنكرت أنا أيضاً لهم، ولم أعد أستطيع أن أبصر المرأة أو الفتاة إلا من وراء زجاجة الخمر وبين أضواء الليل وأوكاره.

ثم قام الرجل من مكانه يتململ... وراح يذرع أرض غرفته جيئة وذهاباً، وأخذ يحدثني عن كيفية إفساد هذه المجلات له وتغيير سلوكه قائلاً:

أتدري ما هو أول شيء دفعني إلى قراءة هذه المجلات؟ لقد كان أول ما حملني على ذلك هو الثقافة والفن...! فقد كنت أؤثر أن أنفق فضل وقتي كل يوم في قراءة موضوعات خفيفة سهلة توسع فكري وعقليتي، كما أنني كنت أتعشق قراءة القصة ويستهويني فيها.

ولكنني ما علمت إلا أخيراً أن اسم الثقافة والفن على هذه الكتب ما هو إلا لفافة سوداء تشد بها أعين قارئها، لتوصلهم من حيث لا يشعرون إلى أسفل الهاوية، حيث الخمر والليل والشقاء.

قال: وأخذت تستقر في تفكيري شيئاً فشيئاً صور تلك العاريات التي تطالعي مجلاتي (الثقافية) عليها، وراحت أحلامي تصوّر لي لو رأيتهن وعاشرتهم... وجاءت القصص هي الأخرى بفنها، تنتم لأحلامي طريقة هذه المغامرة والمعاشرة، وإلى أن انتبهت إلى خطورة هذه التصورات والأحلام في حياتي كان الوقت قد فات، وكنت قد علقت بهذه الصور وتلك القصص، كما يعلق المبتلى المسكين بأفيونه!

وباشرت بأولى المحاولات لتحقيق شيء من أحلامي والوصول إلى حقيقة بعض ما أقرؤه وأتخيله، وكانت المحاولة الأولى مخففة، فقد كنت أعمد إلى المشي في الشوارع الحديثة المزدحمة، متنقلاً بين رأسها ونهايتها، أبحث عن واحدة أعاكسها أو تعاكسني، كما يفعل أهل هذه الصنعة ويتحدثون عن ذلك بأفلامهم، ولكن فأتني أنني حيي، لا أكاد أستقبل الفتاة التي أستجمع نفسي للحديث معها حتى يجف دمي وتخور أعصابي ويبيس لساني، فعلمت أخيراً أن هذه المرحلة شاقة عليّ، وإنما هي صالحة للقادمي فقط في هذا الفن.

هنالك عقدت عزمي على سلوك المرحلة الأخرى.. ورحت أنتظر الليل حتى إذا أقبل وأرخى سدوله، خرجت أؤم أقرب ملهى راقص في المدينة. وكانت مغامرة شديدة بين نفسي وأعصابي، لا أزال أتصورها إلى الآن، أعصابي تخور... وقلبي يدق في صدري دقات عنيفة... وريقي ينشب في حلقي، ولكن نفسي ثائرة تريد أن ترى.. تريد أن تذوق ما تقرؤه وتسمع به.

وهكذا تغلبت نفسي عليّ، ودخلت في تلك الليلة لأول مرة في حياتي إلى وكر من أوكار الرقص والدعارة، واندفعت إلى داخله وأنفاسي تتلاحق، وما إن صرت في وسطه، وأبصرت الناس الذين من حولي هنا وهناك، وانتبهت إلى الجو الأغبر القاتم المتضرب بالدخان من فوق الرؤوس، حتى أخذتني قشعريرة كأنها البرداء، وراحت تسري في مشاعري من الفرق إلى القدم، وتخليلت كأنما الجدران الأربعة من حولي عيون بارقة تزجرني وتلعمني، أما الضحكات التي كانت ترتفع من شتى جوانب الصالة، فلم أكن أحسبها إلا ضحكات على مظهري المريب وجسمي المرتعد، واخترت أظلم ركن هناك فقبعت فيه منتظراً ما سيكون.

وهنا عاد الرجل فجلس على كرسيه، ثم تنهد قائلاً:

في تلك الساعة يا صاحبي... وفي ذلك الركن المظلم من ذلك الملهى، دفنت حياة ملؤها التدين والطهر والاستقامة، واستقبلت شطر حياة قاتمة سوداء، مملوءة بالشقاء والتعاسة والانحراف.

في تلك الساعة جاءت تدنو إليّ واحدة منهن في خطا مغرية وفي لباس أشد إغراء، ثم جلست إلى جانبي... وأخذت تكلمني.. ولكن القشعريرة والبرداء لم تدع لي لساناً ينطق أو يتحرك، فأدركت أنني صيد جديد، والتوت في حديثها إلى أبحاث بعيدة عن الجو الذي أنا فيه، إلى أن نسيت نفسي، وذهلت بالحديث معها، هنالك عادت وأظهرت رغبتها في زجاجة من الخمر...! فاستحييت ألا ألبى طلبها في ذلك، كيف وقد نشأت على الكرم في بيتي، وعلى ألا أردد سائلاً مهما كان الأمر.

فلما جاء الخمر، كان الأمر الذي لا مفرّ منه هو أن أشاركها في الشراب، ولم أكن قد ذقت الخمر قبل ذلك ولا عرفتها، ولكن الوصول إلى الغاية يحتاج إلى سلوك الطريق، وما كان الخمر إلا أولى خطوة في طريق الفاحشة والإجرام، يشربها المرء إذ ذاك كرهاً، ويتجرعها كما يتجرع المريض الدواء، ثم يهرع إليها بعد ذلك تمويهاً لآثار الشقاء في النفس، وتغطية لآلام الندم والتحسر على ما وقع وفات، فلا تحسب أنّ أحداً في الناس يشربها للذة في مذاقها أو رغبة فيها بخصوصها، فما هي والله إلا أقدر شراب يبتلى به الشقي فوق بلائه.

وهكذا سلكت الطريق إلى أن وصلت إلى الغاية... الغاية التي رسمتها في فكري هذه السموم من ماركة القصص والمجلات العارية.

ثم قام إلى «رزمة» كتبه ومجلاته التي كان قد ألقاها مبعثرة في الأرض، فأخذ منها واحدة يُريني غلافها.. وهي صورة لامرأة عارية على حالة لو نطقت لما تكلمت إلا بهذه الجملة: «انظر.. ألا تفضل هذه الطريقة على سواها؟» ثم قلب منها بعض صفحات، ودنا إليّ يريني صورة فتاة عارية تحاول إتمام عريها بحلّ القطعة الصغيرة التي تستر أسوأ ما في الجسم، بينما تنظر عيناها إلى المتأمل فيها نظرة ينطلق منها تعبير كامل لقصة فاحشة بأكملها!

ثم رفع المجلة بيمينه إلى الأعلى، وألقاها على الأرض في حنق غريب، وسكت قليلاً كأنه لا يدري ماذا يقول وماذا يصنع، ثم رفع يديه إلى الأعلى ينطق بهذه الكلمات التي بكى وهو يقولها: «الله يخرب بيتكم مثل ما خربتوا بيتي، وحرمتوني من سعادة أهلي وأولادي، ودوبتوا حياتي ومالي...» [16].

وبعد، فهذه قصة شاب من مئات الشبان الذين يقعون فريسة لهذه المجلات والقصص الماجنة.. وهي قصة لم نختزعها من الخيال، ولم ننقلها من غير هذا العالم العربي الذي نعيش اليوم في دوامة مشاكله.

فمن أجل أي غاية يا ترى، نبرر التضحية بهذا الشاب ومئات من أمثاله؟ وفي سبيل أي مصلحة يجوز أن نسكت على هذا الأفيون المتغلغل في عقول هذه الناشئة؟

أما أنت أيها الأخ الضحية المسكين، فليس لي إلا أن أدعو الله لك ولأمثالك قائلاً:

اللهم كما وفقت قادة هذه الأمة لحراستها وإعادة وحدتها وكرامتها، فوفق اللهم هؤلاء القادة لحراسة أخلاق هذه البلاد أيضاً وحفظها من كل ما يهددها في أخلاقها ودينها.

مأساة السلوك الخلقي في مجتمعنا

... والتربية الخلقية ليست دراسة في كتاب.. ولا هي بالقواعد العلمية للدين... ولا هي بتلك النظريات الفلسفية الفارغة التي تسمى (الأخلاق)... إنها شيء فوق كل ذلك، وأقدس من كل ذلك، وهي مع هذا، المادة الوحيدة التي لا تتعرف مدارسنا على شيء منها.

من أهم مأسينا الاجتماعية اليوم، مأساة التربية الخلقية لدى ناشئة البلاد. إنها المأساة الوحيدة التي لم تستطع المعالجة أن توقفها عند حدٍ، بل وما قدرت المعالجة سوى أن تنفخ في ضرامها، ثم تصبح هي الأخرى مأساة ثانية إلى جانبها.

ولعل معالجتها - من أجل ذلك - لا تزال إلى اليوم أهم مشكلة تستدعي الحلَّ السليم الدقيق. ولعل من الخير أيضاً أن نصارح بأننا لا نزال مع الأسف نعالج هذه المأساة معالجة بدائية غير ذات جدوى. إذ إن أمرها موكول في معظم الحالات إلى شعبة الأمن والأداب في البلاد، وما كانت لدى شعبة الأمن يوماً ما أي سلطة لمعالجة أي انحراف سوى سلطة الجراء، والتلويح بعصا الإرهاب، وما كان الزجر والإرهاب في يوم ما سبيلاً إلى تربية أية أمة، وما عهد العلم والتاريخ أنهما أثمرا في يوم ما أي سلوك داخلي مستقيم.

إن من الواجب أن نعلم بأن معالجة الخلق والسلوك لها ميدان غير هذا..

إن ميدانها الأول هناك.. على ثغر الطريق... حيث يبرز النشء ويتزعرع، ثم يدرج مقبلاً نحو نهر هذا المجتمع وصخبه، أما مجالها الثاني فهو المحافظة على نظافة المجتمع ومكافحة الأوباء الخلقية التي قد تظهر في بعض جهاته وجوانبه.

وثغر الطريق إلى هذا المجتمع إنما هو المدرسة، فهل يتلقى النشء في المدرسة شمة من رائحة التربية الخلقية؟

والتربية الخلقية ليست دراسة في كتاب... ولا هي بالقواعد العلمية للدين.. ولا هي بتلك النظريات الفلسفية الفارغة التي تسمى (الأخلاق)... ولا هي بالكلمات التقليدية التي تلقى لأدمغة تتلقى.. إنها شيء فوق كل ذلك، وأقدس من كل ذلك، وهي مع هذا، المادة الوحيدة التي لا تتعرف مدارسنا على شيء منها.

إنها شيء يؤخذ به التلاميذ أخذاً، وتشرب به طباعهم عن طريق المران التطبيقي على النماذج الخلقية السامية، وعن طريق صبغ مواد الدراسة عامة بالصبغة الخلقية والدينية، كما يحصل على قسط كبير منها عن طريق (القدوة الحسنة) بأن يكون التلاميذ دائماً أمام نماذج سامية من الأساتذة والمعلمين خلقاً وديناً، إذ إن طبيعة التقليد في الصغير - حتى سن المراهقة - تعتبر من أهم العوامل غير المقصودة التي تنغرس بتأثيرها معظم العناصر الخلقية في نفسه.

ولصلاة واحدة يحمل على أدائها الطلاب - سواء في المرحلة الابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية - عن طريق طبعي كالقدوة الحسنة التي ذكرناها، أبلغ فائدة من عدة دروس في الأخلاق والدين، يقذف فيها إليهم المدرس بالحقائق العلمية الغزيرة، فكيف إذا رُسم ذلك طريقة لهم، وعهد إليهم أنفسهم بتعهد المصلّى مثلاً وتنظيفه وبالإمامة والأذان والخطابة في معظم الأحيان، وعهد إليهم بين الفينة والأخرى بإقامة تمثيلات تتراءى في أبطالها نماذج خلقية عالية، في ثوب زاه محبب إلى نفوسهم، وعهد إليهم بإخراجها وتمثيلها تحت إشراف المدرس التربوي الخاص؟

إن هذا ما من ريب لو طبق تطبيقاً منظماً تحت إشراف مدرس خاص بهذه المادة - كمدرّب التربية البدنية مثلاً - لما وقعنا في كل هذا المروج والاضطراب حيال هذا التيار الخلفي الملتوي، ولعمري إن ههنا فقط مركز الثغرة الحساسة الأولى التي إن أهملت تسرب منها إلى المجتمع وباء خلفي ما مثله وباء، وإن أغلقت وعولجت هانت من بعدها معالجة كل شيء وعاش المجتمع مع مقوماته المادية والمعنوية في أمان من كل ما يهددهما.

ولقد بلغ ذلك القسيس الإنكليزي (دنلوب) منتهى الخبث حينما لعب لعبته في الإقليم الجنوبي من جمهوريتنا العربية المتحدة أيام الاحتلال الإنكليزي لها، وذلك بوصفه مستشاراً للمعارف إذ ذاك، حيث عمد إلى جهاز التربية فيها، فكشط عنه الصبغة التطبيقية للتربية الخلقية والدينية، ثم ألبسه لباس التعليم الجاف، وبالفعل ما استطاع في حشو عقول الناشئة بالحقائق الجافة التي تبدل العقل وتغلظ الحس، ولم يدع في المنهج الدراسي متنفساً يشم منه الصغار المعنى الروحي الواقعي لمفهوم الأخلاق العامة الذي يسود مجتمعهم ويقوم حياتهم؛ عمل ذلك لكي لا ينتج ذلك الجهاز سوى إمعات من الرجال ذوي نفوس متداعية، لا يصلحون إلا مستخدمين في وظائف أو كتاباً في دواوين، يأكلون ويشربون وينامون.

ومن المؤسف جداً أن نقول إن حالتنا الراهنة اليوم قائمة تماماً على النهج الذي كان يتمناه دنلوب، مع أن الاحتلال الإنكليزي والفرنسي قد ولّى.

ومن المؤسف أيضاً أن نقول بأننا لم نكن خيراً بكثير من دنلوب وفرنسة في رعاية شؤوننا التربوية والدينية. مما جعلنا نقذف إلى المجتمع بشباب لم ينضج فيهم الوعي الخلفي الكامل الذي يربطهم بتاريخهم العربي والإسلامي، ثم نحاول بعد ذلك معالجة الوضع، ولكن أنى للعلاج حينئذ أن يفيد، وأنى للمنطق والتهديد أن يجدا وسيلة إلى تقويم ما استصلب ملتوياً معوجاً؟

ولقد جمعتني المصادفات بواحد من هؤلاء الذين نشؤوا وتخرجوا في شوامخ هذه المدارس، ولكنها لم تقدر أن تملكهم أخيراً أي سلاح من الحصانة الخلقية والدين.. وراح يشكو إلي بصراحة تامة آلامه النفسية التي لا يجد مفرّاً منها، فاسمعوا ما قال:

قال لي: إنني أحب الفضيلة، وأهتز طرباً للمثل العليا والمتمسكين بها، وما أكثر ما أقعد لأتخيل نفسي بطلاً من أبطال الفضائل، وحامياً من حماة الأخلاق، وكم أنسج في غمرة هذه الأخيلة أحلاماً مختلفة أروي بها ظمأ قلبي لهذه المثل والفضائل، ولكني - ويا للأسف - لا أستطيع أن أحقق شيئاً من هذه الأحلام. فقد رُبيت دون أن يبصرني أحد بالطريق المؤدي إلى الفضيلة ويدربني عليها ويوضح أمامي معالمها.

أما هؤلاء المعلمون، فقد كانوا يضعون أمامي عن الدين والفضيلة ألفاظاً مغمضة صماء... لا أجد في ناحية منها أي نافذة تهديني إلى تحليلها أو معناها، فكنت أتلقي هذه الألفاظ كما تتلقى صندوقاً أقفل على ما شئت من لآلئ وجواهر، دون أن تتسلم له مفتاحاً أو تهتدي لفتحه إلى دليل، فإن استطاع هذا الصندوق أن يشرح لك ظاهره بالذهب الذي في جوفه، استطاعت تلك الألفاظ أيضاً أن تجمعني بالفضيلة التي أبحث عنها.

وهكذا أعيش اليوم...! أتعشق الفضيلة ولا أهتدي إلى صميمها، وأبغض الرذيلة ولا أقوى على الخلاص منها. ذلك لأنني أقرأ عن الرذيلة كل يوم مئة درس تطبيقي عملي في الأزقة والشوارع، فلماذا لا أندفع إليها وأنطبع بها؟ ولا أعثر على واحد من هذه الدروس في المعاهد والمدارس فضلاً عن الأزقة والشوارع، فأين أعثر عليها وكيف أهتدي إليها؟

ماذا نتوقع من أساليب المعالجة التربوية المفيدة لمثل هذا المسكين بعد أن اجتاز الطريق وتوسط أمواج هذا المجتمع وعبابه؟ أمّا أنا فقد رأيتني أثقل عليه من شروره التي يتأفف منها إن أنا قعدت أدندن حول رأسه عن طريق قال الله... وقال رسول الله... بعد أن تطبعت نفسه على ما شاء أن يطبعها عليه هذا المجتمع دون أن يكون له إذ ذاك من واقٍ أو حافظ.

إن هذا الإنسان زجّته المقادير في بحر خضم وبين أمواج متلاطمة، دون أن يجد قبل ذلك من يعلمه السباحة ويدربه عليها، فماذا يغنيه وهو يغوص بين أمواج الموت أن تصيح به قائلاً:

خبط برجلك.. شق بيدك الماء.. انفخ بفمك..؟ لا ريب أنه سيختنق بكلامك هذا قبل أن يخنقه زبد البحر وأمواجه.

أما عثرات هذا المجتمع.. أما الصخور الراسية القائمة في جنباته التي من شأنها أن تصدع هذه الروح التربوية حتى بعد تعهدها وممارستها في المدارس، فلا ننكر خطورة ذلك وأثره في زلزلة الكيان الخلقي لدى الشباب. ولكننا نرى أن معالجتها تأتي في الخطوة الثانية بعد الأولى [17]. ولا شك أن تلك العثرات - بعد ذلك - أمر لا يجوز الغض عنه أو التساهل فيه، ولا بد من العمل على توافق روحي المدرسة والمجتمع والتفاعل بينهما. إذ الطفل ابن لمجتمعه قبل أن يكون ابناً لأسرته أو مدرسته، ومعنى ذلك أنه لا بد أن تنطبع في نفسه تقاليد ذلك المجتمع وعاداته رغم أنف المدرسة والأسرة، ورغم أنف مجهودهما. بل ما من شك في أن المجتمع ينقض كل ما نسجته الأسرة والمدرسة، ويجعله أنكاثاً، إذا لم يتطابق معهما في روحه وتقاليده. بل إذا نزلنا عند رأي العالم الفرنسي (أميل دوركايم) وأعضاء مدرسته، نجد أن البيئة الاجتماعية هي العامل الوحيد في تربية الطفل، وأن ما أبرمته هذه البيئة حيال ذلك، لا يمكن لأي عامل من العوامل التربوية الأخرى نقضه أو تغييره.

ولذلك، فقد كان أمراً مفروغاً منه وجوب كنس كل ما في جوانب هذا المجتمع من أقدار وأوباء خلقية، إن أريد للروح التربوية أن تسير في نفوس النشء سليمة هادئة إلى آخر الطريق. وماذا نرى في مجتمعنا اليوم؟

إننا نرى فيه حمماً من الأوبئة والأقدار والمفاسد. بعضها يتجسد ويسير تحت راية (الحرية)، وبعضها الآخر يشق طريقه من وراء امتياز (الفنون والآداب)، والبعض منها يخبئ باسم التقدمية والتمدن. والجميع ينقلب في نهاية الطريق إلى وقود يزيد من أوار هذه المأساة ولهيبها، وتبحث هنالك عن رسالة تلك الفنون والآداب والتقدمية أين بقيت وماذا فعلت، ولكنك لا تبصر إلا ناراً تتضرم...

ففي ميدان الأدب، تجد معظم أدعيائه لا يحلو لهم سوى أن يجعلوا منه غلالة رقيقة يلبسونها لقضايا (الجنس) ثم يعرضونها أمام الأبصار، كأن شؤون الجنس قد منيت بيننا بزهد فيها وإدبار عنها، فهي تحتاج إلى الإطراء لها والدعاية إليها...

ومن تحت لائحة (الحرية) تبصر خليطاً متلاطماً من مئات الأشكال والأزياء التي فجرتها أخيلة الرذيلة وأظهرتها النزوات الملتهبة.

هذه فتاة هجمت إلى الشارع وقد كشفت للناس من منكبيها إلى أقصى فقار ظهرها.

وتلك قد اخترعت أمكر صورة من العُري الفني... حيث كشفت للناس عن معظم جسمها، ولقّت سائرهم بمزق رقيقة عصرت نفسها فيه عصرًا، ثم راحت تنقر الأرض نقرًا في مشية متعثرة بين الغادين والرائحين.

وهذه واحدة أخرى قد غمست شعرها ووجهها وفمها وعيونها وأهدابها بشتى الأصباغ المتضاربة المختلفة التي لا يفوح منها إلا رائحة النهم الجنسي الصارخ.

ومن وراء صيحات (التقدم والمدنية) تبصر مظاهر شاذة غريبة، لمفهوم الروح الاجتماعية في بلادنا - بصفتها بلاداً عربية مسلمة لها مبادئها الراسخة الخالدة - فهي مفاهيم لا تجد نظيرها إلا

بين الأمم الأجنبية عنا، هذه الأمم التي نعتبر أنفسنا في حياض إيجابي عنها [18].

وبعد هذا كله فالغريب أن نثور ضد النتائج الطبيعية لهذه المظاهر الاجتماعية الشاذة عنا، ونعترف ونقرُّ أننا في مأساة يجب أن نتداركها ونقضي عليها!!

إن القضاء على النتائج يتطلب قضاء على المقدمات... ولذا فلا بد من القضاء أولاً على المفاهيم البشعة المعكوسة للأداب والفنون بيننا، ولا بد من الضرب الشديد على أيدي الذين يحلو لهم هذا الافتراء على الأدب والفن.

أما المرتزقة الذين يبحثون بذلك عن الطعام و(العيش) كما يقولون، فعليهم أن يفتشوا عن سبيل غير هذا لتجارتهم وطعامهم و(عيشهم)...

ولا بد أيضاً من وضع حدود إلزامية يتوحد عندها زي المرأة، ويمنع عنها كل ما هو غير لائق بمكانتها بصفتها امرأة عربية، وبمكانة المجتمع بوصفه مجتمعاً عربياً شريفاً. ولسنا نقصد بذلك إلزامهم بالاحتجاب من الفرق إلى القدم، ولكننا نوجب أن يلتزم الحشمة التي تعبر عن كرامتهم، ولا تنثير أنظار الشهوة نحوهم.

وليس لأحد أن يزعم أنه حرٌّ في شأن أهله وعائلته، ولا لواحدة أن تزعم أنها حرة في شأن نفسها، إلا إذا صح لأحد أن يزعم أنه حرٌّ في أن يتصرف بقانون السير والمرور كما يشاء....

فالعربة التي يسوقها صاحبها في عرض الشارع ويلتوي بها ذات اليمين وذات اليسار، وذلك الذي يمشي وهو يزرع الشوارع العامة بما شاء من أفذار وأوساخ، وأولئك الباعة الذين يتخذون من قارعة الطريق العام مخزناً تجارياً لبيعهم، وتلك التي تسير في هذه الشوارع وبين أنظار الشباب... متعربة متكشفة، لتستقبل الأنظار فنّ ميوعتها ولتخلف من ورائها آثار فتنتها؛ كل ذلك مظاهر للفوضى البشعة، ومنابع للأضرار الجسيمة التي لا يجوز المكابرة في اختلاق الفروق بين بعضها والآخر.

وليس لواحد أو واحدة أن تزعم أيضاً أن ذلك قيد تأباه الديمقراطية التي يجب أن ننعم في رحابها، فالذين درسوا الديمقراطية بمعناها الواضح البسيط يعلمون العلم اليقين أن الديمقراطية لا تخلو من قيود، بل لا بد لاستقامتها من وجود القيود، غير أن الفرق بين القيود التي يفرضها الوضع الأرستقراطي والتي يفرضها الوضع الديمقراطي أنها في الحالة الأولى تكون لمصلحة القادة فحسب، وفي الحالة الثانية تكون لمصلحة الأمة والأفراد.

وليس لأحد أن يتأفف من هذا التنظيم بحجة أن في ذلك خدشاً لقدسية التقليد الأصمّ الأبكم.. وانحرافاً عن جادة الغرب وحضارته... ذلك لأن الأساس الذي أقام عليه الغرب حضارته، أساس لا يطبق هذا الشرق العربي إرساء مثله، فهو أساس كوّنت عناصره - كما قلنا قبل هذا الفصل -

من أمشاج من الأمهات، والأطفال والأزواج الذين ضلّت بهم المدنية عن مثابة الأسرة وحبل النسب!!.. حينما يقبل حضرات المتأففين هذا الأساس لحضارتهم ومدنيتهم فإننا نكون حينئذ في غير حاجة إلى التربية الخلقية وقوانين التربية الخلقية التي نوجع رأسنا اليوم بالحديث عنها. وبقيننا أنه لن يسود هذا الرضا والقبول في مجتمعنا ما دام هنالك متمدون مثقفون يجيبون على معاكسة المثقفين لزوجاتهم في الشارع بالرصاص يطلقونه عليهم...! [19]

وبعد فهذه هي الأسس المنظمة السليمة لمعالجة هذه المأساة في حياتنا الاجتماعية وهذه هي الطريق المؤدية من غير شك إلى نتائج مرضية للذين يبحثون لهذه المشكلة عن حل. أما إذا كنا نأبى أن نعالج هذا إلا بتلقف الحوادث والجرائم والترصد لها لنعاقب الواقعين فيها والمندفعين إليها، فما أطرفها من معالجة يضحك منها المنطق السليم والبدهيّات الواضحة. أنا أشدّ عصابة على عينيك.. وأضع في طريقك الشباك... وأحفر في مواقع قدميك الحفر... ثم أترصد لك، حتى إذا تلقفك الشباك أو هويت في الحفرة، هرعت نحوك مؤدباً ومعاقباً ومريباً!! وتكون في أشدّ حالات الظمأ، يلتاع كبدك شوقاً إلى جرعة ماء، فأعرض أمام عينيك الملتهبتين قدحاً بديعاً رقيقاً يشف عن ماء بارد زلال، رؤيته وحدها تثير العطش، وأدنيه منك، وأديره حول بصرك، وأغريك بالانقضاء عليه، ولكني أجعله مع كل ذلك فوت فمك، ودون غايتك، لأنه ماء لا تملكه أنت ولا جدك ولا أبوك، فليس لك أي حق في الارتواء منه!! فقل لي أيها العاقل وحدثني، ماذا يصنع هذا المسكين المحترق عطشاً، أليس بدهياً من البدهيّات أن يفقد أعصابه، وينقضّ على ذلك الذي يذود عن هذا الماء، ليرتوي من دمه قبل أن يرتوي من الماء الذي يشتاقي إليه، ثم ينقلب فيلعن الشرائع التي تحرم، والأخلاق التي تمنع وتتحكم؟! مع أن الشرائع ما جاءت في يوم ما لتجثّ طبيعة أو تخنق رغبة، وإنما جاءت لتقوم هذه الطبيعة في الأفراد، وتحقق سبل الرغبة المنظمة للجميع..

مأساة الوعي الخلقى فى مجتمعا

.. صحيح أن من شأن الحكومات إقامة الروح التربوية الخلقية فى مدارسها، وحفظ مجتمعا من الأوبئة والأقذار التى تناقض عمل تلك المدارس، ولكن ليس من شأنها وحدها أن تبث الوعي فى نفوس الأفراد.

لعل أول ما يسترعى القارئ فى صدر هذا البحث، هو التساؤل عن حقيقة الفرق بين (السلوك الخلقى) و(الوعي الخلقى).

والمواقع أن هناك فرقاً كبيراً بينهما، وأن أبسط مظهر لهذا الفرق، هو أنهما ليسا بمتلازمين، فكثيراً ما يرى فردٌ من الناس على حالة من السلوك الخلقى الحسن، ولكنه يكون فى الوقت نفسه فقيراً إلى وعى خلقى كامل يجعله يعنى كيف يقرر لنفسه ذلك السلوك. كما أن معايير الوعي الخلقى قد تتكامل فى نفوس بعض الشباب وعقولهم، غير أنهم لا يجدون لديهم الطاقة الكافية لصب سلوكهم وأعمالهم فى تلك المعايير.

فالسلك إذن هو الخطوات العملية فى فجاج الحياة، أما الوعي فهو ما ينطبع فى النفوس والأذهان، من اعتبارات لقضايا الخلق، وحماس لتطبيق الحياة وفق تلك الاعتبارات.

وإذا كانت معالجة السلوك الخلقى - وفق ما حصرناه فى ذينك السبيلين - موكولة إلى الحكومات والمراجع، فمن الظلم البين أن نحمل معالجة الوعي الخلقى أيضاً للحكومات والمراجع وحدها.

صحيح أن من شأن الحكومات إقامة الروح التربوية الخلقية فى مدارسها، وحفظ مجتمعا من الأوبئة والأقذار التى تناقض عمل تلك المدارس، ولكن ليس من شأنها وحدها أن تبث الوعي الخلقى فى نفوس الأفراد، بل لا تجدى هذه المحاولة نفعاً، إلا إذا كانت من عمل الأمة نفسها، أما تبعة الحكومات حيال ذلك فليست سوى أن تنشط وتعين وتيسر أمام ذلك السبيل.

ولكى ندرك سبيل (بث الوعي الخلقى فى الجيل) يجب أن ندرك أولاً أن انحراف شاب فى سلوكه الخلقى ليس ناتجاً عن كونه شريكاً فى طبعه، أو خالى النفس من عناصر الخير والرشاد؛ ولكن ذلك ينتج فى معظم الأحيان عن ظروف موبوءة خاصة حفت بمتالية بذلك الشاب أيقظت فيه كوامن الشر التى هى كامنة لدى كل إنسان، ولم تنتهياً له فى مقابل ذلك ظروف أخرى توقظ فيه كوامن الخير، فاستقلت به عوامل الشر وجرفته فى تيارها، ومن هنا كان جل مهمة (بث الوعي الخلقى) إيقاظ عوامل الخير فى نفوس هؤلاء عن طريق إنعاشها بتهيء الظروف الملائمة التى كانت محرومة منها.

ونستطيع أن نوجز مهمة (بث الوعي الخلقى) فى: العمل على أن تُشرب نفسية الجيل حبّ المثل العليا، وأن تلين عقلية لإدراكها وتقديرها، وذلك عن طريق نشر الثقافة الإسلامية وروحها التربوية السليمة، وعن طريق معالجات نفسية عامة منظمة.

أما الوسيلة إلى ذلك فهي: إنشاء فروع متنوعة منظمة متشابكة، بعضها يستهدف نشر الثقافة الإسلامية العامة ومعالجة ما يجد بين الحين والآخر من مناقشات ومشكلات حول بعض قواعد الإسلام وأحكامه، وذلك عن طريق حلقات دائمة من المحاضرات والندوات والنشاط الفكرى العام، فى مختلف الأحياء والأماكن.

وبعضها يستهدف الإكثار من حلقات المواعظ والنصيحة والإرشاد، في المساجد وغيرها من الأمكنة الشعبية العامة بأسلوب حديث يتمشى مع ما انطبع عليه الجيل الجديد من أصول المنطق والتفكير (وهذا يقصد منه تقويم حياة العائلات والأسر، ومحاولة تسريب الروح الوعظية إلى داخل البيوتات).

وبعضها يهدف إلى إنشاء روح تربوية إسلامية قائمة على قواعد من أصول علم النفس، وذلك عن طريق نوايا عامة تفتح لهذا السبيل، يكون من شأنها جذب النشء إليها، وإتاحة الظروف المناسبة المختلفة من النشاط الفكري والعمل لها، وفق ما يلائم كلاً في رغبته واتجاهه، بغية إيقاظ كوامن الخير في نفسه واستغلالها ليكون لها على صاحبها القوة والسلطان.

وبعضها يعمل على تركيز القواعد والمبادئ الإسلامية الدقيقة في الأذهان بواسطة ما هو معروف من العناية بالمؤسسات التعليمية لخصوص ذلك. (وهذا للتوقي من الحملات الإباحية والإلحادية التي تسوق أمامها لسان الجدل والنقاش وترفع فوق رأسها راية العلم والمنطق).

هذا، ولا بد لكي تؤتي هذه الفروع ثمارها، من أن تسير في عملها متفاعلة متشابكة وحدةً ومجموعاً، لا متفرقة متدبرة شيعاً وأحزاباً، إذ لا المحاضرات والنوادي وحدها تنتج، ولا المواعظ وحدها تثمر، ولا الدراسات العلمية الدقيقة وحدها تصلح حرزاً، ولكن مجموع المحاضرات والنوادي والمواعظ والدراسات هي التي تصلح أن تكون مصلاً مطهراً ضد المفساد والأرجاس.

والآن علينا أن نجعل النظر في هذه الأمة ونتساءل: أي فئة منها ترى يجب

أن تحمل أكبر مقدار من المسؤولية عن (بث الوعي الخلقي) في الجيل؟

والواقع أنني وإن كنت أنكر أن تكون بين المسلمين طائفة اسمها (رجال الدين) ذلك لأن كل مسلم في حد ذاته رجل دين، وكلاً مئراً راع ومسؤول عن رعيته، غير أنني أجزم بأن الفئة الأولى التي تقع على كاهلها تبعه هذه المسؤولية هي فئة السادة العلماء..

لا لأنهم هم وحدهم الذين وكل إليهم حفظ المثل العليا في المجتمع، ولكن لأنهم أقوى فئة شعبية تملك الروح المسيطرة والقدرة على الإصلاح. ففي أصواتهم يتمثل دائماً دوي الإسلام، وفي مظهرهم يتمثل شكل الخلافة الموروثة عن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ولا ريب أن

فئة هذا شأنها لا يصلح غيرها لقيادة مثل هذه الحركة التربوية الكبرى [20].

والحقيقة أننا نستطيع بحمد الله أن نفخر بوجود حركة إصلاحية ما في هذا السبيل من هؤلاء السادة.. فهناك الوعاظ والدعاة الدائبون إلى الحق، وهناك العلماء الذي لا يفترون عن نشر الثقافة الدينية في المجتمع، وهناك في بعض الأحيان المحاضرات التوجيهية العامة. ولكننا مع ذلك، لا نستطيع أبداً أن نزع بأننا نلمس أي ثمرة لكل هذه الحركات... فلماذا؟ لماذا لا تتغلب جهود هؤلاء الدعاة على شيء من هذا التيار الهاجم وهذه الشرور الكثيرة المتغلغلة؟

إن إيضاح الجواب عن هذا لا يحتاج إلا إلى العودة إلى ما اشترطناه في الفروع التي تعمل على (بث الوعي الخلقي). لقد قلنا إنه يجب أن تكون فروع هذه الدعوة منظمة متشابكة، ومعنى ذلك أنه يجب أن تشيع روح الثقة بين القائمين على هذه الفروع، وأن يكون كل منهم موقناً بما يقوم به الآخر.

وهذا وحده هو الشرط الذي يفقده السادة العلماء... وهذا وحده الأساس الكبير الأول الذي لم يستطيعوا - مع الأسف - إلى الآن إرساءه وتقريره، فعلمائنا لا تربطهم فيما بينهم رابطة،

وجهودهم فردية متفرقة شتى، لا تجد روحاً جماعياً تكلؤها، وسياسة الدعوة الإسلامية في نظر أحدهم لا يمكن أن تجدها تلتقي مع سياسة الدعوة لدى الآخر، ولقد كنت أتمنى ألا أقول إنما مرجع كل ذلك إلى الاعتداد بالذات.. إلى الشغف بالتسامي على الغير... لقد كنت أتمنى لو عثرت على

سبب آخر لهذا التفكك والتدابير، ولكني - ويا للأسف - لم أعثر.. لم أعثر على غير ذلك [21].
ولو أن هذا لم يكن... ولو أن سبل الدعوة والإصلاح فيما بينهم تلاقحت واتحدت، ولو أنهم نظموا هذه السبل كما ذكرنا... وتعاونوا جميعاً على تحقيق الوعي الإسلامي لآتى العمل ثماره، وظهرت نتيجة الجهد، ولانطلقت هذه النتيجة قوية جبارة تبدد كل شر، وتصلح كل فاسد، وتقوم كل

معوج [22].

ومن هنا نشأ فراغ كبير في هذا المجال... مجال (بث الوعي الخلقي) بين أفراد هذا الجيل، وكان أن نشأت من الفراغ هذه المأساة التي نتحدث عنها، فالنشء حيثما نظر والتفت يبصر غزواً أجنبياً مدهماً... غزواً في الفكر والعقائد... غزواً في الأخلاق والمقومات... غزواً في المبادئ الإسلامية وتقاليدها، فإذا بحث عن عاصم من تيار هذا الغزو، لم يبصر من كل ما حوله إلا تاريخاً غابراً يناديه من وراء جدران من القرون... فأنى له أن يرحل عن أضواء حياة القرن العشرين إلى تاريخ مضى واندثر ولم يخلفه من يجدد فيه الحياة ويجعل منه حلقات تمتد وتتوالد مع كل قرن وعصر؟

فإذا كان واقع مجتمعنا كذلك... وإذا كان معظم الظروف التي تحيط بالنشء تخنق الوعي الخلقي فيه... فمن أين للمأساة أن تنتهي، وأنى للحكومات وحدها أن تعتصر من سبيلي التربية المدرسية ومراقبة المجتمع دواء كافياً لمحنة السلوك الخلقي، بل وأنى للمجتمع نفسه أن يخضع لمراقبتها وحكمها؟

رسالتنا في الحياة

.. أجل، إن من الواضح أن رسالة الإسلام عاجزة عن مسايرة التيار الحضاري الداهم إلينا من أوربة. ولكن ذلك لسبب بسيط يعرفه كل عربي صحيح، وهو أن الإسلام ما جاء ليخضع يوماً ما لأي تيار حضاري جارف، ولكنه جاء ليخضع هو الحضارات كلها طبق مبدئه وسبيله.

إن علينا أن نختار لحياتنا أحد سبيلين:

إما أن نذوب ونتلاشى في تيار مدنية أوربة وحضارتها، ونستقي من تاريخنا العربي كله ورقة تتقاذفها الأمواج على وجه العباب، كتب عليها: (القومية العربية).

وإما أن نجمد ونستصلب، ونجعل من قوميتنا العربية عصباً ممتداً في كينونتنا وحياتنا، يورثها الاستقامة، ويحفظها من الاغوجاج والانحناء.

فإن قنعنا بالأول، فلنتبنّ السبيل الذي يدعو إليه من يدعون أنفسهم: (المتمدنين)، من الاحتفاظ بشعارات عربية في اللسان، والانطباع بحياة أوربية كاملة في الروح والاتجاه.

أما إن اخترنا الثاني، فعلينا أن ندرك بسهولة أن القومية العربية ليس لها من معنى إن لم تكن رسالة، وعلينا أن نعمل في تكاتف وإخلاص على انتهاز سبيل هذه الرسالة وحدها.

وقد نسمع بسبيل (خيالي) ثالث، يبتدعه الذين لا يجدون في نفوسهم عاصماً عن أن يكونوا ذيولاً لأوربة، ولكنهم يشتهون في الوقت نفسه أن يحتفظوا بانتساب فخري لهم إلى تاريخهم العربي، وهو محاولة التوفيق بين رسالة العرب وحضارة الآخرين، غير أن النتيجة الواقعية التي لا مفرّ منها، لا تعدو أحد السبيلين السابقين.

ذلك لأن من أوضح أمثلة المستحيل، التوفيق بين رسالة الإسلام ورسالة أوربة؛ فهذه الثانية إنما ظهرت نتيجة تفاعل عدواني شديد في نفوس الأوربيين ضد الإسلام طوال العصور الوسطى.. فأنى لهما في حين من الدهر أن يصطلحا ويلتقيا؟!

وهؤلاء (الخياليون) لا يروجون هذا السبيل الخرافي لجهل منهم بطبيعة المستحيلات أو شواهد العلم والتاريخ، ولكن الحقيقة أنهم لا يحبون أن يعترفوا بأن القومية العربية قائمة على رسالة، بل إنهم يتمنون لو لم يكتشفوا أو تكشف لهم الحقيقة أنها تحمّل أهلها تبعه مبدأ ورسالة.. وتفرض عليهم سلطانها.

وقد يدافع بعض هؤلاء (الخياليين) عن وجهتهم، بأن الإسلام اليوم عاجز عن ملائمة الوقت، ولم يعد صالحاً لمسايرة هذا الانقلاب الحضاري الداهم الذي يفرض نفسه في كل مكان.

غير أن من سوء حظ هذه الحجة، أنها جاءت متأخرة عن ظرفها الملائم ألفاً وثلاث مئة وسبعاً وسبعين سنة، فلو أن قائلها احتج بها في صدر الإسلام عندما بدأ يرتفع صوته شاذاً عن اتجاه التيارات المدنية والحضارية والدينية جميعها، لاستطاع أن يكسو حجته من قوة العادة والطبيعة التي تفرض أن يسير كل شيء في اتجاه التيار العام لا معاكساً له، ولكن أما وقد وقعت المعجزة، واستطاع الإسلام أن يحوّل مجرى العالم كله بسائر حضاراته ومدنياته، ومرت ثمانية قرون بعد ذلك، كلها يؤكد انتصار القوة الخارقة في الإسلام؛ فإن هذه الحجة لم تبق فيها أي ذرة من خطورة أو شعاع من المنطق.

أجل، إن من الواضح أن رسالة الإسلام عاجزة عن مسايرة التيار الحضاري الداهم إلينا من أوربة، ولكن ذلك لسبب بسيط يعرفه كل عربي وكل مسلم، وهو أن الإسلام ما جاء ليخضع يوماً

ما لأي تيار حضاري جارف، ولكنه جاء ليُخضع هو الحضارات كلها طبق مبدئه وسبيله. وكلمة (لم يعد صالحاً..) التي لا يفتوون يرددونها، تنبئ عن مدى خلطهم وسوء وعيهم عن تاريخهم العربي الإسلامي، فمتى كانت رسالة الإسلام تساير حضارة مدهمة، حتى يقال إنها اليوم (لم تعد صالحة لأن تساير..)? ولو كان مقياس صلاحية الإسلام هو هذا الذي يتوهمون، لما انقشعت حضارة الرومان إلى هذا اليوم عن بلاد الشام، ولا تقلصت مدنية الفرس عن بلاد العراق، ولا انحسرت التيارات المختلطة عن أراضي مصر... ولما بقي للإسلام في هذا العصر اسم أو مسمى يعرف.

إن ربي بن عامر حينما أراد رستم أن يشعره أن حضارة الفرس شعاع شمسي يلمع في الدنيا كلها، وأنها تتهدى في تيار من ماء الذهب والجواهر والإستبرق، فليس لحفاة العرب المحترقين في لهيب الصحراء أن يطمعوا بمناوأتها والنيل منها، لم يتصاغر في نفسه قائلاً: إن حضارة الإسلام لا تستطيع أن تساير أو تقف إلى جانب التيار الفارسي الداهم؛ ولكنه راح يتوكأ برمحه المسنون على فُرش الذهب والإستبرق والحرير التي مدت بين يدي رستم، متعامياً عن بريقها، متجاهلاً أنها شيء غير حقارة الأرض وترابها، ليرد عليه ويشعره بأن الحضارة الإلهية شيء فوق بريق الذهب والإستبرق، وأن الباب الذي فتح لهم ليدخلوا منه إلى عروش الدنيا هو أوسع بكثير من هذا الباب المادي الذي لا يملكون هم غيره..

والمشكلة هي أن هؤلاء (الخياليين) يظنون عاجزين عن أن ينظروا إلى شؤونهم بعيون عربية، فهم دائماً يستعيرون نظارات أجنبية لتبرز أمامهم سبيل الحياة في بلادهم من الوجهة الأجنبية عنهم فقط. وإلا فلماذا لا يقولون: إن حضارة أوربة عاجزة عن مسابقة حياتنا، لأنها لم تعد صالحة لأن تلائم حقائق الإسلام وروحه؟ وما المرجح لأن يعكسوا هذه الجملة، ويعتدروا عن قبول الإسلام لأنه لا يلائم حضارة أوربة؟

إن علينا أن ندرك الفرق بين صلاحية الإسلام للحياة، وصلاحيته للانضواء تحت سلطان الحضارات الأخرى.

فأما أنه صالح للحياة فهو أول عهدة دائمة يأخذها الإسلام على عاتقه لمن اتبع سبيله واسترشد بهديه، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: 16/97] ، وأما أن يقبل الانضواء تحت سلطان ما لأية أمة، فذلك ما ينتزه عنه الإسلام ويأباه: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: 6/153].

والحياة التي يتيحها الإسلام لأهله، حياة قائمة على عقد الصلح بين العالم والوجود، لا على انتزاع الوجود من أمة ليسلمها لآخرين، أو على أن تكون سلعة تتداولها الأمم على سبيل التبادل والتنازع، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات: 49/13].

ويخط الإسلام في سبيل تقرير هذه الحياة ثلاثة خطوط عريضة من المبادئ العامة. أما المبدأ الأول فهو الإيمان بآله هذا الكون وسر وجوده، واختصاصه وحده بالعبادة والتعظيم دون سائر المتألهين والمخلوقين.. ومن هنا قامت ثورة الإسلام على أولئك الذين استعبدوا شعوبهم واتخذوا من كواهلهم عروشاً يتألهون عليها، ومن هنا أصبح أدنى رجل في المسلمين يجير على

أعلامهم [23].

والمبدأ الثاني هو وضع المثل الروحية العليا في مكان الغاية المقدسة من الحياة، واتخاذ العنصر المادي منها سبيلاً منظماً محترماً إلى تلك المثل... {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} [القصص: 28/77]. فلا هو يبرر حياة روحية مترتبة تعيش من العالم في كهف منعزل غريب عنه، كما تتكلف لذلك الفلسفة البوذية، إن الرسول يرد على ذلك قائلاً: «أما أنا فأصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»، ولا هو يرضى أن تتحكم المادة وحدها وتكون هي الغاية المقدسة من الحياة كما تتكالب عليها حضارة أوربة ويلبسون في سبيلها المخالب والأنياب.

ومن نتيجة هذا المبدأ الثاني أن يصبح المسلمون في ظل الحضارة الإلهية أسرة واحدة، أفرادها متحابون متساوون، لا تعنو جباههم إلا لربهم الواحد الكبير، ثم أن يصبح كل ما تحت أيديهم من مال ومتاع مقسماً بينهم في غير تطاحن، كافياً لجميعهم بالعدل. ذلك لأنهم يستمتعون به وسيلة إلى العيش، لا سبباً للتأله والاستعباد. وكان من نتيجة هذا أيضاً أن أعطى الإسلام للعلم قداسة أيما قداسة، إذ هو السبيل لاستقرار حياة الإنسان على هذه الأرض في سعادة ورفاهية.

وحسبك أن تعلم أن الإسلام يدفع المسلم إلى اجتذاب الحقائق العلمية من أي جهة أمكن، ويعتبر الحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجدها فهو أولى بها.

والمبدأ الثالث، هو إرساء قواعد تشريعية لضمان العدالة في شتى نواحي الحياة من حقوق مدنية وأحوال شخصية وشؤون قضائية، وفي كل ما يتعلق بالاقتصاد والسلم والحرب وغير ذلك... ولقد كان من أسرار خلود هذا التشريع أن نص على جميع القواعد الكلية من سائر هذه الفروع، ولم يدع للزمن والتطور الحضاري صلاحية في التصرف بها ليحتفظ بجوهره وروحه، ثم عهد بمعظم الجزئيات المتفرعة عن تلك القواعد العامة إلى الخليفة الإسلامي العادل، مع منحه الخطة الاجتهادية التي ينبغي أن يسير على هداها وألا يتجاوزها. وبذلك يجري بالمسائل المتعلقة بعجلة الزمن وفق تطوره مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بالروح الإسلامية الموجهة حتى في هذه الجزئيات نفسها.

وضمن الوحدة الإسلامية الشاملة لهذه الحياة الدنيا والحياة الأخرى معقود أولاً وآخرًا بسلسلة مؤلفة من ثلاث حلقات هي: العقيدة، العبادة، التشريع. فالعقيدة ضمان لتطبيق التشريع وتحري الدقة فيه، والعبادة ضمان لبقاء العقيدة حية مزدهرة في النفس. إذ إن أمواج هذه الحياة وفتنتها تجعلها دائماً في خطر، وتجعل الإنسان عرضة للغفلة عنها، فكانت العبادة الدائمة في شتى صورها وأنواعها منبهاً مستمراً إلى العناية بالعقيدة. ثم هذه الحلقات الثلاث كلها ضمان لإسعاد الفرد والمجتمع في المعاش والمعاد.

هذه هي الحياة التي يتعهد الإسلام لأهله بحفظها وإتاحتها لهم بعيدة عن كل شقاء في كل عصر وزمن، فأين نقص يتراءى في هذا النوع من الحياة حتى نقول: إن رسالة الإسلام لم تعد صالحة لحياتنا اليوم؟

إن عدم صلاحيتها آتٍ من اصطدامها بشهوات أوربة التي اتخذت مثابتها عندنا في كل شارع ومجتمع وبيت، عدم صلاحيتها آتٍ من أنها لا ترضى أبداً بالمعايير الخلقية المصممة في أوربة والمستوردة إلينا في بلادنا العربية، عدم صلاحيتها آتٍ من أن أكثر نشئنا هذا ترعرع على التجرد من كل مظهر من مظاهر التنسك والعبادة والتقيّد بمعاييرها، فمن الصعوبة بمكان أن نلزمه بما

اشتتهى أن يتجرد ويتفَلَّت منه، عدم صلاحيتها أت من أن أوربة علّمت هؤلاء كيف يتعشقون من الحياة، المادة فقط، ويؤمنون منها بالمادة فقط، حتى أصبحت فكرة الإله نفسها غير صالحة لهذا الزمن في اعتبارهم.

هذه هي العقبات التي جعلت الإسلام في نظر هؤلاء غير صالح لهذا الوقت، وإنها - كما تجد - عقبات صيبانية، كتلك الشهوات أو اللعب التي يبكي من ورائها الأطفال عندما يلمحونها في السوق أو لدى الباعة... وبدهي أن الذين يبكون من وراء هذه الشهوات عندما يمنعهم الإسلام إياها، ليسوا هم الذين يقدرّون (القومية العربية) قدرها أو يفكرون في خدمة التاريخ العربي أو يقلقون من أجل ضياع حقهم العربي... إنهم يعيشون في الحياة من أجل شيء واحد فقط، وهو شهواتهم.

وبعد هذا كله فإن أمثال هؤلاء، حينما يجادلون في قضايا الإسلام والدين، يتصورون أنفسهم كما لو كانوا فئة من الجنود تنمرّد على قائدها في بعض ما يحملهم عليه، أو ثلة من الشعب تحاول إسقاط الحكومة ومجابهتها بالعصيان، أو كتلة برلمانية تأبى إلا أن تعدل مادة من الدستور!! ولكن إله الكون لا يشبه القائد العسكري أو رئيس الحكومة أو اللجنة العليا للتشريع.. إنه مبدع هذا العالم كله، فله وحده أن يتصرف في هذا العالم كما يشاء. وهو عندما يصدر للعالم أحكامه، لا يفتقر إلى أن يسلك السبيل إلى اكتساب أكبر جمهرة مؤيدة من الشعوب، إنه يحكم بما يشاء، ولا معقب لحكمه، وبلاغه الذي أعلنه على عباده: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 5/3] ليس قراراً حكومياً موجهاً إلى الشعب قابلاً للتعديل أو الاستئناف، وإنما هو حكم جبريٌّ إلزاميٌّ تنزّل من لدن بديع السماوات والأرض إلى الصفوة المختارة من مخلوقاته، وهو عقل مستقل بنفسه، أي إنه حجّة لذاته، فمن الحق أن يراد منه الخضوع لحكم أو تصرف العقول، والذي أعلن العصيان له والخروج عليه، فإنما هو يدعي بذلك أنه على استعداد لأن يتحرر عن مملكة الله، ويستقل عن حكمه في عالم آخر... فعليه قبل أن يجادل الله بتلك الذرة التي وضعها في رأسه من العقل، أن يستنجد عقله في إنشاء ذلك العالم الثاني الذي يريد أن يعيش فيه متحرراً عن قوة الله وسلطانه.

أما كون هذا السبيل الذي ألزمتنا به يتلاءم مع حياة متكاملة النعيم، فذلك تفضّل منه وإحسان، لا ثمّن لتقبل الأوامر والخضوع للأحكام.

رسالتنا... والحرية

... إن علينا قبل كل شيء أن ندرك أن ميلاد هذه الكلمة في الأذهان، يرجع إلى أواسط عهد الاستعمار في بلادنا، ولعل من الغريب في الأسماع أن نقول إنها كلمة ولدتها سياسة الاستعمار نفسه... فكيف ذلك؟.. ولماذا؟..

من الكلمات التي تأخذ مكاناً متألقاً من صفحة مجتمعنا اليوم، وتتجلى فيه بأحرف لماعة وضيئة، كلمة: (الحرية)... الحرية بمعناها العام، أي الحرية في القول، والحرية في الرأي، والحرية في العمل والسلوك... والإخ، ولعلك تستطيع أن تقول إنها كلمة الموسم في هذا العصر، أي إنها كلمة القرن العشرين... أي الكلمة الدولية التي تجري على كل لسان، وتمر بكل حلم. ومن شأن مثل هذه الكلمات التي تستأثر باهتمام الأفراد وحماسهم، وتتخذ قرارها المكين في أحلامهم وأفكارهم، أن تكون قد أديبت دراسة وتحليلاً، وفهماً للمصدر الذي أتت منه والنتيجة التي تنتهي إليها، ولكن في اعتقادي أن كلمة (الحرية) مع أنها تحتل مكان الصدارة من الأحلام والألسن، ومع اكتناف التعليقات والشروح بها، لا يزال معناها خفياً عنا، ولا يزال بعيدين عن تحليل مصدرها وموردها وطبيعتها.

إن علينا قبل كل شيء أن ندرك أن ميلاد هذه الكلمة في الأذهان، يرجع إلى أواسط عهد الاستعمار في بلادنا، ولعل من الغريب في الأسماع أن نقول بأنها كلمة ولدتها سياسة الاستعمار نفسه... فكيف ذلك؟.. ولماذا؟..

إن روح التحرر في الواقع من الأمور الطبيعية التي تركز إليها النفوس، ويلد لها الانطلاق في ميدانها، ولا ريب أن جثوم المستعمر فوق صدور الأمم يعني انغلاق أوسع باب لهذا الميدان في وجهها، والنتيجة الطبيعية لذلك أن تتجمع في النفوس عوامل الثورة للانقضاض على ذلك الباب وتحطيمه...

ولكي يتفادى المستعمر هذه النتيجة، فقد كان من خبثه ومكره أن يشغل النفوس عن الانتباه إلى القفل الكبير الذي أوصد به بابها الطبيعي الشرعي إلى ميدان التحرر، وذلك بصرفها إلى المنافذ والثقوب التي أوصدتها - لحكمة - الشرائع والمبادئ والتقاليد... وغايتها من وراء ذلك أن يحيل - بالتدريج - مظهر الباب المقفول أمام تلك الشعوب ظلاماً وعدواناً، إلى مظهر جدار طبيعي قائم، لا يعقل أن يهدم أو يثقب، أما مجال الانطلاق والتحرر الإنساني فهو تلك النوافذ الأخرى التي أغلقها ما يسمونه بالشرائع والأخلاق همجية ورجعية وظلماً...!!

وإن كلاً منا يذكر فرنسا - يوم كانت جاثمة في بلادنا - كيف كانت تسلك بنا هذا السبيل الماكر إلى تلك الغاية، لقد كانت تغرينا باسم رسالتها الحضارية والتحررية، بتحطيم كل ما ورثناه عن تاريخنا وما عرفناه من مقوماتنا وأخلاقنا، لأن كل ذلك في نظرها أغلال.. أغلال تقيدنا وتحرمنا من متعة المدنية الحديثة وحضارة القرن العشرين التي قامت على تحقيق كل رغائب الإنسان.

ولقد عرفت فرنسا، وعرف كل عاقل وأحمق على وجه الأرض، أن فرنسا لم تكن لتقلق إلى هذا الحد من أجل راحتنا ومن أجل أننا لا نتمتع بكل رغائب الإنسان.. وما كان كبدنا ليتحرق كل هذا علينا من أجل أننا مقيدون في الأغلال...

ولكنها كانت تحرص على أن يكون سبيلنا الطبيعي في التحرر والاستقلال بعيداً عن مجال منفعتها منا، نائياً عن الطريق الذي تمتص منه حقنا وكرامتنا، وليكن ذلك السبيل منحرفاً بعد ذلك نحو أي جهة أخرى، ليكن جاريّاً على حساب ديننا ومبدئنا وتاريخنا.. فإن لها في ذلك تجارة بربحين، ربح استغلالها لبلادنا وحقنا، وربح تحطيم مبادئنا والثأر من ديننا وشريعتنا.

والشيء الثاني مما يجب أن ندركه بدقة، هو أن من المستحيل أن يتمتع إنسان ما بحرية تامة نزيهة كما نتخيل أو نظن، وكلمة الحرية لا يمكن أن تتحمل كل ما يحملها بعض الناس من أمانٍ وغايات. إذ إن دوافع الإنسان نحو سلوك ما محصورة في ثلاث قوى. فإما أن تكون العقل والمنطق السديد، أو دافع التشبه والتقليد (وهو دافع نفسي برأسه لا يستمد قوته لا من العقل ولا من التشهي)، أو دافع الشهوة والأهواء.

فالإنسان على كل حال مستعبد استعباداً كاملاً لأحد هذه الدوافع الثلاثة، ولئن استطاع أن يتحرر عن توجيه الموجهين وتقليد الآخرين فإنه لن يستطيع أن يتحرر من كلا السلطانيين الآخرين، ولئن استطاع أن يفلت من سطوة أحدهما فما من شك في أنه سيظل مستعبداً لسطوة الثاني.

ولكن تحت أي هذه القوى يضع الإنسان تصرفه، ولأي مملكة من هذه الممالك ينضوي ويخضع؟ إن الإنسان هنا فقط يملك حرية تامة صحيحة، وفي هذه اللحظة فقط يستطيع أن يشعر بامتلاكه لزام أمره، فهو يملك خياراً تاماً في أن يسلم زمام أمره إلى أيّ هذه السلطات يشاء.. وعليه في تلك اللحظة أن يفكر في البحث عن أنبل تقيد وأشرف استعباد وأعدل سلطة من هذه السلطات.

ومن منا لا يدري أن أعدل مملكة من هذه الممالك الثلاث هي: المنطق والعقل المتدبر الحكيم؟ ومن منا يجهل أن أشنع استعباد وأرذل تقيد هو ما جاء عن سيطرة النفس الثائرة والنزوات العابرة والتقليد الأعمى؟

إن كثيراً من الناس ينادون دائماً بالحرية، يدعون إليها في كل مجال، ويحبونها إلى كل عقل، ويدخلون هواها في أذهان الناشئة من هذه الأمة، ولكن ألا يجدر بنا أن نعمن في واقعنا الذي نعيش فيه لتبين مدى اقترابنا من هذه الحرية وتلمسنا لها؟ لقد أرادوا أن يكونوا أحراراً في أقوالهم، وأرادوا أن يكون أحراراً في كل اتجاهاتهم، فماذا فعلوا حين أرادوا ذلك؟ لقد استجمعوا جرأتهم ثم قفزوا قفزة جعلتهم من هذه الحرية أبعد ما يكونون!

ولقد كانت النقطة التي قفزوا منها هي تراث هذا الشرق العربي الإسلامي... صحيح أنه تراث لا تتراءى فيه روح التفلت، ولكنه على كل حال يأبى أن ينحني وينقاد يوماً ما إلا لسلطان العقل وحده، وشعاره في سلوكه دائماً هو: خذ «الحكمة»... ولا تبال من أي وعاء خرجت.

أما النهاية التي قفزوا إليها، فهي شهوات أوربة ومدنية أوربة. صحيح أنها نهاية متحررة عن تقاليد الشرق وشعاره، ولكن من الذي يجهل أنهم تحرروا من هناك ليتصاغروا مستذلين تحت سلطان النزوات البدائية والتقليد الأصم الأبكم هنا؟ أما شعار هذين السلطانيين فهو: متّع حيوانيتك، ولا تبال أكانت حكمة أم جنوناً.

أما الطاقة التي دفعتهم إلى تلك القفزة فليست هي الروح التحررية كما وهموا... ولكنها استجابة لتلك الحيل الاستعمارية التي كانت تسير نحو غاية مرسومة طبق مصالحها. ومهما يكن من أمر

الاستعمار معهم بعد ذلك، فإن تلك الاستجابة لديهم ليست سوى إشارة إلى مكان المملكة الاستعمارية الجائئة في نفوسهم.

وقد يدافع هؤلاء عن أنفسهم فيقولون: إن ما نريده هو أن تنجلي عن بلادنا يد الاستعمار وجيوشه، ومادام هذا قد تم فلنا أن ندع ما نشاء ونأخذ، ولنا في حياتنا الاستقلالية أن نترك تاريخاً ونأخذ غيره.

فانظر..! أليس هذا منطق قوم يعترفون بضعف كينونتهم، وبأنهم فقراء الشخصية والإبداع، لا مندوحة لهم عن الاتكاء على عصا الغرب أو الشرق، ولا غنى لهم عن استجداء مناهج الحياة ومقوماتها من الآخرين، فضلاً عن أنهم لا يملكون عقلاً يستطيع أن يدرك أنهم حملة رسالة... قادة تاريخ... ورثة مبدأ ونظام وشرعية.. ومن ثمّ فهم لا يملكون شخصية معتزة تستطيع أن تهضم فلسفة الحيات الإيجابي وتتبنّى المساهمة في إرسائه وتقريره.

ومثل هؤلاء الناس حينما يحاولون أن يتحدثوا عن القومية العربية، يبتعدون بمفهومها ما أمكن عن ظل المبادئ وتبعية الرسالة... وحينما يريدون أن يكونوا بارعين في تحليل مفهوم القومية العربية لا يزدون على جعلها نتيجة تفاعل نفسي في أمة اتحدت في اللغة والمشاعر والبقعة الجغرافية..! ولعلك تحسّ كيف أن هذا التعريف يصور لك القومية العربية أشبه ما تكون بعائلة متكئة منعزلة، كل ما تبتغيه هو أن تغلق على نفسها باب دارها لتستقر في ركنه بأمان...

ولو أن قادة العرب السابقين ممن صنعوا تاريخنا العربي، فهموا القومية العربية على هذا الشكل لما كان للعرب اليوم أرض من عالمنا هذا سوى شبه جزيرتهم المنعزلة القديمة التي تحدّها سورية من الشمال، والفرات من الشرق، والبحر الأحمر من الغرب، فذلك المكان هو وحده مهدهم الجغرافي، وهم وحدهم الذين كانت تجمعهم اللغة العربية، وهم وحدهم الذين كان يشيع فيهم الشعور والدم العربي كما يقولون.

ولكن التاريخ العربي لا يتعرف على هذه الصورة المتقلّصة الرجعية عن مفهوم القومية العربية، إنه يعرفها بالشعور العربي الذي يتوحد على رسالة ويجتمع على محور من المبدأ، ثم يتحمل في ثورة موحدة تبعة أدائها ونشرها في كل جهات العالم. ومن ثم فقد استطاعت القومية العربية أن تقتلع جدران حدودها الجغرافية، ثم تتمطّى وتنتشر في شرق العالم وغربه، وإذا بمملكة فارس ودولة الرومان، وإذا بشرق العالم إلى الصين وغربه إلى أواسط أوربة، إذا بكل تلك الأصقاع فروع للجزيرة العربية، وإذا بمعظم أهلها ينطقون بلغة الضاد، وإذا بهم يتخذون أمكنتهم أعضاء عاملين في مجلس القومية العربية!

وسبب ذلك أن القومية العربية - في تاريخنا العربي - إنما قامت على مبدأ... مبدأ لا يعترف بأنانية ولا يحصر الخير لطائفة أو عنصر أو جماعة، شأن القوميات الأجنبية الأخرى التي حدثنا عنها التاريخ... وإنما هو مبدأ يصنع السعادة لكل من على هذه الأرض ويمد ظلال الأمن والسلامة في كل شعب وأمة، ومن ثم فقد كان هذا المبدأ عمادها الذي عصمها من الانهيار، وطاقتها التي بعثت فيها النمو والانتساع، وكان هذا المبدأ هو رسالة الإسلام... رسالة العرب إلى العالم..

غير أن هؤلاء لا يريدون القومية العربية كذلك.. إنهم يريدونها رجعية تنفصم عن المبدأ، وتراجع متصاعدة متضائلة إلى داخل جغرافيتها الصغيرة التي انطلقت منها، وهم بذلك يناقضون أنفسهم مناقضة صارخة في زعم أنهم تقدميون! فلماذا؟! لماذا يريدونها ممسوخة كذلك..؟!!

إنهم يشتهونها هكذا لأنهم يتضايقون من تبعة المبدأ، ولأنهم مقيدون، مقيدون بأغلال (الحرية)... ولذلك فهم ليسوا على استعداد لتجديد رسالة وقيادة مبدأ، وخير ما يجمع لهم بين التحرر من تبعة المبادئ والتقاليد، ومظهرهم القومي العربي، هو أن يفسروا القومية العربية هذا التفسير الذي لا يحوجهم إلى تعب ولا يقيدهم بشيء.

ولكن الرسالة على كل حال قد بدأت اليوم تعود... والمفهوم التاريخي لقوميتنا العربية هو الذي أخذ ينتصر، لقد أخذ كل ذلك يتجلى ويفرض نفسه على يد قائدنا المؤمن العربي الصادق: جمال عبد الناصر [24].

فخير لنا جميعاً أن نحطم أغلال هذه (الحرية).. ونستبق إلى إحياء تراثنا... ومبادئنا... وأخلاقنا... لنعيد اليوم الذي يحدثنا عنه التاريخ بأننا كنا فيه متبوعين لا تابعين. ولنعلم جميعاً أن الإنسان لن يستطيع أن يكون حراً في ذاته مهما جهد، ولكنه يستطيع أن يتقرب إلى الحرية، وإن أقرب ما يكون الإنسان إلى الحرية حينما يسلم مقادته لعقله ويدخل تحت سيطرة تفكيره السليم، وإن أبعد ما يكون الإنسان عنها حينما يستذل لهواه ويستكين إلى نفسه ويركن لحيوانيته [25].

رسالتنا... والأدب

... ولكننا نجد قادة الأدب في هذا العصر قد أخرجوا الأدب العربي عن سبيله، وألبسوه هو الآخر قبة وحلة أوربية وشدوا عنقه برباط أفرنجي، ثم سخروه سفيراً بين مدنية أوربة ونفسية هذا الشعب العربي! فهل من شيء يدعو إلى الأسف ويملأ القلب مرارة وأسى أكثر من هذا؟

الأدب، هو الباب الشعبي الكبير إلى ميادين الثقافة والعلم.

والأدب، فلسفة عملية عن الحياة والنفس... تقدّم إلى العقول اللينة المدللة في مدرسة مضمخة بالعطر، قائمة وسط ظلال أشجار الورد والياسمين..

والأدب من أجل ذلك، أعظم رسول بين العقل الشعبي العام ورسالة ذلك الشعب في الحياة، إنه المتعهد الوحيد لتلك العقول بأن يُشربها فلسفة تلك الرسالة وروحها بأسلوب واقعي عملي، بعيد عن الافتراضات والنظريات الأكاديمية، ودون أن يحوجها إلى أي انعصار أو انحباس مجهد في هذا السبيل.

فهل يباشر أدبنا العربي اليوم هذه المهمة ويقوم بهذه السفارة؟

إن من المؤسف أسفاً بليغاً أن يكون الجواب: لا... لا، بكل مرارة وتأكيد قاطع.

إننا في الوقت الذي نبحث فيه عن سبيل شعبي محبّب يدخل الوعي العربي الصحيح إلى العقل الشعبي العام ويسقيه روح الرسالة العربية المقدسة، نجد قادة الأدب في هذا العصر قد أخرجوا الأدب العربي عن سبيله، وألبسوه هو الآخر قبة وحلة أوربية وشدوا عنقه برباط أفرنجي، ثم سخروه سفيراً بين مدنية أوربة ونفسية هذا الشعب العربي! فهل من شيء يدعو إلى الأسف ويملأ القلب مرارة وأسى أكثر من هذا؟

خذ أي قصة من معظم هذه القصص التي تسمى: (أدبية) وقرأها من الغلاف إلى الغلاف، فإنك لن تجد فيها سوى حياة أوربة وملاهي أوربة ومجتمعات أوربة وعقلية أوربة، ولن تبصر فيها مقابل كل ذلك حرفاً واحداً يربطك بأي نسب إلى عروبتك التي تسري في دمك وفؤادك!

واستعرض معظم قصائد هؤلاء الذين ينتحلون لأنفسهم شاعرية الأدب الحديث.. فإنك لن ترى فيها سوى أسلوب الشعر الأوربي، ولن تبصر من خلالها سوى الأخلاق الأوربية نفسها مكتفة في مظهر ما يسمونه بـ: (المكشوف) و(الرمزي).. ثم لن تعثر مشاعرك في خلال ذلك على هزة في بيت منها تبعث فيك كوامن تاريخك العربي أو تسوق منك الذهن إلى رسالتك العربية التي ولت مع التاريخ!

واقرأ أي كتاب أدبي في النقد والتحليل، فإنك لن تجد الألفاظ العربية وحروفها - في معظم تلك الكتب - إلا مسخرة لمعان واصطلاحات ومجارٍ أوربية ليس لها أي ارتباط بجوهر الأدب العربي في أي عصر من تاريخه. فالكلاسيكي والرومانسي والتراجيدي، والتجريبي والرمزي والمكشوف، وما لف لفيف ذلك، هو وحده عماد الأدب العربي الصميم!! ومن تنمة الخزي المخجل أنك ترى الكاتب الأدبي في كثير من الأحيان غائصاً إلى قمة شعره في هذا النوع من النقد والتحليل في نشوة وطرب، بينما العفونة اللغوية الظاهرة تتصاعد من المادة الشعرية أو النثرية التي يتناولها بنفقه الثقيل المتكلف، وهو غير شاعر بها!.

ومرجع المشكلة في هذا يعود مرة أخرى إلى الطامة الكبرى التي جرها هؤلاء على أنفسهم في سذاجة وفخر... مشكلة التداعي والانسياق الداهل الأعمى وراء الغرب.

إن هؤلاء يشتهون أن تكون الروح الأدبية في لغتنا هي الروح نفسها التي تشيع في آداب الغرب. مع أن هنالك فرقاً كبيراً بين طبيعة لغتنا العربية واللغات الأوروبية الأخرى. فلغتنا هي وحدها التي تمتاز باتساع عظيم في متنها، وافتتان عجيب في أساليبها الدلالية. إنها اللغة الوحيدة التي تستطيع أن تسجّر ثلاث كلمات منها لثلاثة معانٍ مختلفة، حسب تأليفك لتلك الكلمات بعضها مع بعض وترتيبها في النسق. ومن ثم فقد كان ثلاثة أرباع الجهد الأدبي في هذه اللغة منصرفاً بطبعه إلى فقه هذه الأساليب ودراسة ذلك البحر الزاخر من الكلمات...

أما اللغات الأخرى، فإن ضمورها من هذه الناحية - على تفاوت بينها في مقدار هذا الضمور - جعل آدابها بطبيعة الأمر تنصرف إلى العناية بناحية أخرى وهي الموضوع. ولقد كان أن برزت من خلال العناية المستمرة بتلك الناحية، مذاهبهم وابتداعاتهم فيها من واقعية وخيالية ورمزي ومكشوف، وما بين ذلك من فلسفات نظرية وتحليل نفسي في معظم الأحيان، ومن هنا كان واجباً علينا ألا نغفل عن أن الأدب الغربي أصدق مرآة يترأى فيها سلوك الغرب وأخلاقه وطباعه. وما الرمزي والمكشوف إلا عنوان طرف من أخلاقه المتحللة الفارغة. فهما سبيلان للتعبير الفاتن عن مواضع الشهوة.. ولعلهما يستمدان فلسفتيهما عن السبيلين الفتيين في لباس المرأة للتعبير عن أمكنة الفتنة في جسمها، والسبيلان هنا في مجموعهما: ثوب الشاطئ المكشوف... وثوب الشارع الرمزي...

غير أن شهوة التقليد الساذج لدى جمهرة (المتأدبين) عندنا اليوم لا تدعهم يدركون هذا الفرق الواضح، إنهم يريدون على أي حال أن يصبح الأدب العربي هو بنفسه الأدب الغربي، لا يميزهما بعضهما عن بعض سوى هذا الغطاء من الألفاظ فوق كل منهما... وهم فوق ذلك لا يجدون أي غضاضة في أن يدعوا بأن هذا هو وحده الطريق إلى الرقي بالأدب العربي اليوم.

وعندما نفضل أن ندع الجدل اللفظي وأسلوب التفاخر بالادعاءات إلى البحث عن النتيجة العملية للرقى الأدبي على يدهم بوصفه أدباً عربياً نجدنا أمام كارثة خطيرة.. ونجدنا ملجئين إلى انتزاع ابتسامة فاترة مريرة من منظر اللائحة الغزورية التي كتب عليها من فوق الكارثة: (الأدب العربي الراقي). ونجدنا ننذكر بوحى الحالة قصة «غني الحرب» الذي قالوا إنه تضابق من كلاحة ورثة الطلاء على صندوقه المالي إلى جانب المظهر الفاتن لخزانة الملابس القائمة إلى جانب الصندوق، فأرسل وراء من يطليه له طلاء فاتناً يشبه فتنة الخزانة... قالوا: وكان الشخص الذي استدعاه ماهراً في طلاء الصناديق واقتناص ما في داخلها في آن واحد، فكان من خبثه أن راح يشغل الغني بما يجب أن يكون عليه شكل الطلاء وهندسته حتى إذا استغفله اندست يده إلى الداخل ولم تخرج إلا وقد نظف ما في باطن الصندوق، أما «غني الحرب» فقد كان غارقاً في تلك اللحظة في تخيل أحسن الألوان (الرومانسية) لطلاء الصندوق..!

ليس من فرق في نظري بين التقدم الذي أحرزه غني الحرب لصندوقه بجمال ذلك الطلاء، والتقدم الذي انتهى إليه المتأدبون الجدد بتلقيح الأدب العربي بطبيعة أدب الغرب. فالأول فقد الصندوق كله لأنه حصر اهتمامه بجانب تافه من متعلقاته الشكلية، والآخرين نسوا فقه اللغة العربية وجعلوا أبسط قواعدها وأحكامها من وراء ترقيتهم له، أي من وراء تعطيلهم لرسائله الأصلية التي تعنى كما قلنا بفقه الأسلوب العربي ودراسة متته.

وإلا فهل يجوز أن نطالب الأديب الصحيح بأقل من تذوقه وتفهمه للقرآن الكريم وإدراكه لضوابط اللغة العربية وأساليبها؟

ولكن ماذا.. إن قلت لك إن كثيرين من هؤلاء الذين يزعمون أنهم من أولي الفضل على الأدب بسبب هذا التجديد لا يفقهون كثيراً من أبسط القواعد العربية، ويجهلون كثيراً من أساليب العربية في القرآن وغيره؟!

اجتمعت بأحدهم مرة - وهو من الذين يتخذون المذاهب في الأدب - ومع سياق الحديث بيننا أخرج من جيبه مذكرة قد كتب فيها بعض آيات القرآن التي استغلقت عليه ورأى فيها محط نقاش ومحاكمة لصوغها العربي، وراح يريني كيف أنه انتبه إليها ولم يعثر عند أي وجه عربي على سبيل لصحتها.. ولقد كان من جملة آياته التي استشكلها قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا} [الأحقاف: 46/26] وكان مأخذه عليها أن جواب (إن) في قوله إن مكناكم غير موجود، مع أنه لا يجوز حذف جواب الشرط في مثل هذه الجملة بالاتفاق!.. وآية أخرى استوقفته وهي قوله تعالى عن سيدنا يوسف: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [يوسف: 12/45] إذ كيف يقال إن يوسف تذكر بعد انقراض أمة، مع أن الأمة التي كان يعايشها لم تكن قد انقضت بعد؟! ولما قلت له إن (إن) في الآية الأولى نافية وليست للشرط، وإن كلمة (أمة) معناها هنا الحين، والمعنى أنه تذكر بعد حين، فكر قليلاً ثم نظر إليّ قائلاً: وهل أنت متأكد من أن (أمة) تأتي في اللغة بمعنى الحين؟..

وأعجب من هذا أن أحد الذين يظنون يكتبون المقالات في القصص والأدب ويحللونه التحليل الأوربي الجديد سمعته يقرأ هذا البيت العربي المشهور:

إن الثمانين - وبلغتها -
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

باسكان اللام من وبلغتها أي (وُبلغتها)! ولما سألتها متجاهلاً عن محل هذه الكلمة مما قبلها أسرع قائلاً: إنها معطوفة على الثمانين! ولقد ظل يعجب ويجادلني برهة طويلة عندما قلت له إن الرواية والمعنى: بُلِّغَتْها على أنها جملة دعائية معترضة، وكان الذي ختم الجدل هو أن أتى أحد الحاضرين له بأحد كتب شواهد الشعر في النحو يريه رواية البيت.

وحدثني أحد الأصدقاء المدرسين أن أديبة تعلم الأدب العربي في المدارس، قالت في إعراب كلمة (إذا): إنها ظرف لما يستقبل من الزمان مبني على السكون في محل رفع مبتدأ..!

إن انصراف هؤلاء السذج عن العناية بفهم مثل هذه القواعد الأساسية في الأدب، إلى التحليل الموضوعي على الطريقة الغربية، هو في حد ذاته أتفه بكثير من انصراف الغني الأحقق عن العناية بحفظ ماله إلى الانشغال بتشكيل الصندوق بالألوان والطلاء. فالصندوق قد يحتاج في بعض الأحيان إلى نوع من الطلاء، ولكن الأدب العربي لم يكن يعوزه يوماً ما أن يحمل هذه الفلسفة الأجنبية عنه على حساب خدمته لفقه اللغة العربية وتخليدها.

وأفضل بكثير من انشغال (المتأدب) الحديث بتحليل مزايا الكلاسيكي والتراجيدي ومزايا الرمزي والمكشوف، أن يتأكد من معرفته لمزايا الكلمات العربية في الجمل وأمكنة استعمال كل منها. وقد يظن عند نفسه أنه يغوص في حقائق أخطر من هذا فيما تعود به من نفع على الأدب، غير أننا لو سألناه مثلاً أن يجيبنا عن الفرق بين كلمتي (القضم) و(الخضم) أو (الخوص) و(الحوص) أو (الغلط) و(الغلت) أو (الهامة) و(الخامة) أو شبه ذلك مما يتعين عليه بوصفه أديباً دركها وفهمها، فإنه لن يجد في مغاصه الخطير ذاك ما يُنجده لمعرفة ذلك والإجابة عنه.

أنا لا أهدف من كلامي هذا إلى أن الأدب العربي يجب أن يعيش في عزلة عن الأدب العالمي، ولكنني أقول يجب قبل كل شيء أن يحتفظ الأدب العربي بمستلزماته ورسالته، ومستلزماته هي أن يتذوق هؤلاء الذين يتهافتون عليه اليوم الناحية العلمية في تراثنا العربي مرتبطة بمعينه السحري الأول: القرآن الكريم، أما رسالته فهي أن يثمر في نفوس ذويه وقرائه أخلاقاً عربية متحررة.. والأدب العربي حينما يسلك سبيله الطبيعي السليم خير عون على التطبع بالأخلاق والمبادئ العربية السامية.

فإذا ضمن للأدب العربي هذان الركنان الأساسيان، فليس من مانع أن يُزاد عليهما بعد ذلك كل خصائص الآداب الأخرى وميزها، بل هو أمر لابد منه، ولكن من الجهل والسذاجة بمكان أن نستعيض عن مقوماته الأساسية، هذه الخصائص والميز، إنها حينئذ تبدو أجنبية عنه تماماً، ولا تزيد فيه إلا الضرر، ولا تجعل منه دعوة لغير المجتمع العربي وآدابه.

ولقد كان من خير ما تفاعلت به في بداءة مستقبل سعيد للأدب العربي في بلادنا ما قاله الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الأدبي الأخير الذي عقد في القاهرة، حيث قال للأعضاء: «إن المجال الفكري والأدبي هو أهم متسع لمرتج الحرب الباردة التي يعتمد عليها المستعمر اليوم اعتماداً أساسياً، فلا بد إذن من إقامة أدب عربي متحرر مستقل خالٍ عن السيطرة الأجنبية والنفوذ الأجنبي».

غير أنني أعود لأستعرض الأدباء الذين كانوا ينصتون إلى هذا التوجيه، فأراهم أو أرى كثيراً منهم رسلاً للأدب الأوربي بيننا، الأدب الأوربي في فلسفته وموضوعه، والأدب الأوربي في أخلاقه ومبادئه، ترى هل يؤمل أن يقلعوا عن هذا الاتجاه ويعودوا إلى إنشاء أدب عربي متحرر لا يتصل نسبه إلا بأصله العربي العظيم، ولا تشرق في مرآته سوى شمس خلقه الراسخ المتين، ولا يستبين في ألحانه سوى رنين العدالة والإخاء ودوي الحق والقوة؟

إننا إلى هذا الحين ما وجدناهم يحاولون الاتجاه نحو شيء من هذا، وإنما نجدهم ينشرون بين الحين والآخر في صفوف فتياننا وفتياننا روايات تضرب أفئدتهم بدقات الثورة الجنسية عوضاً عن أن تحيي فيها دقات من التطلع إلى الدفاع عن عرض هذا الوطن العربي وأرضه، وتُصور في أفكارهم الطاهرة دم العذارى إذ يسفح تحت أغشية الظلام والخمر، بدلاً من أن تصور فيها دماء أبطالنا التي تستباح هدرًا في الجزائر واليمن على أيدي الطغاة المستعمرين.

وإن أي مكابر على وجه الأرض لن يستطيع أن يزعم أن هذا يعني أي اتصال بين الأدب وروحه العربية المتحررة عن السلطة الأجنبية.. أو أي اتصال بين الأدب والقومية العربية أو بينه وبين الأخلاق الإسلامية العليا.

ولكنه يعني الاتصال بين ما يسمونه (الأدب) و(لقمة العيش) كما اعترف بعضهم بذلك، غير أن لقمة العيش لا يجوز أبداً أن تتقدم لهم على حساب أخلاقنا وعروبتنا وميراثنا العلمي والأدبي [26].

لغتنا... والقرآن

... هذا القرآن الذي هانت عظمته على نفوسنا، فتلاشى بسبب ذلك الخوف منه في صدور أعدائنا، حتى غدت إسرائيل أيضاً تطربنا متغنيةً بألفاظه، ولو علمت أنه يمس طرفاً من أفئدتنا لما أنطقت إذاعتها بحرف واحد منه... هذا القرآن لولاه أيها العرب لما كانت اليوم للعرب لغة تعرف...

اللغة العربية.. هذه اللغة الخالدة التي شَيَّبت الدهر ولم تشب.. هذه اللغة التي توارثها إلى يومنا هذا جيل من العالم بعد جيل، وهي في أسمى ذروة من الإشراق، لم تَبَلْ ولم ترث ولم تتضاءل. هذه اللغة التي انبثق منها إلى أقطار الدنيا كلُّها نور الحضارة والعلم، يوم أن كان العالم كله راقداً في ظلمات الجهل!

هذه اللغة التي أثارت عجب المغول وألهبت حقدهم، فانقضوا عليها ليخنقوها ويقذفوا بها في مياه دجلة العارمة، ولكن الخنق لم يمتها ودجلة لم تغرقها، وهبَّت اللغة العربية منتصبه على قدميها تعلن عن وجودها فوق أرفع ذروة من كرة الأرض!

وجاء نابليون كالثائر المسعور يريد محوها ودفنها في متاهات الصحراء.. وجاء الترك هم الآخرون يريدون الكيد منها وإشفاء غليل حقدهم عليها^[27].. وعقدت مؤتمرات باريس لاستكشاف السبل إلى محوها وفرئسة العرب الأحرار.. وهُرع الاستعمار كله بشتى حيله وأساليبه ليطفئ جذوتها.. ولكن اللغة العربية ظلت رغم كل ذلك من المناعة وبُعد المنال، مثل ذلك الكوكب المتألق في صفحة السماء، وعاد الغيظ منها خنجراً استقر في أفئدة أصحابه. هذه اللغة المدهشة العجيبة.. أي شيء أكسبها هذا الخلود والإشراق؟

أي روح هذه التي وحدت جميع لهجاتها المتباعدة المتباينة من: معينية، وسبئية، وقتبانية، ولحيانية، وشمودية، وصفوية، وحضرية. فالتحمت كلها في لهجة معينة واحدة، وراحت تمتد ثائرة في آفاق العالم، شامخة فوق متن الخلود؟ وأي شريان سحري هذا الذي امتد في أجلها، فجعلها تمر على مصرع أعظم لغة عالمية شاملة (اللاتينية)، بينما تغلي هي حيوية وقوة وإشراقاً؟

إنه لا يكفي أيها العرب أن نقف عند حدود الفخر بهذه القوة للغتنا وخلودها دون أن نتساءل عن سر هذه القوة وذلك الخلود. كما لا يكفي أن أزعم للناس أن أجدادي كانوا عظماء وأثرياء دون أن أقف على سر عظمتهم وثرائهم لأسعى سعيهم وأكسب من موارد كسبهم.

إن السر في كل ذلك أيها العرب هو القرآن... إن الروح الجبارة التي أكسبت لغتنا هذه الديمومة الخالدة هي القرآن. إن الجاذبية التي ضمت ووحدت لهجاتها النائية المتفرقة ثم قذفت بها وحدةً مشرقةً في آفاق العالم كله هي القرآن. إن الطاقة الخارقة التي خلقت من لغتنا هذه عملاقاً مدهشاً يبسط سلطانه في العالم بقوة لا تغلب وحياة لا يصرعها الموت هي القرآن.

هذا القرآن.. هذا القرآن الذي طويناه جانباً عن التدخل في معظم شؤوننا ولم نعد نتذكره إلا للتغني بألفاظه، وتزيين خطبنا وكلامنا بفقرات من آياته، هذا القرآن الذي هانت عظمتة على نفوسنا، فتلاشى بسبب ذلك الخوف منه في صدور أعدائنا، حتى غدت إسرائيل أيضاً تطربنا متغنية بألفاظه، ولو علمت أنه يمس طرفاً من أفئدتنا لما أنطقت إذاعتها بحرف واحد منه؛ هذا القرآن لولاه أيها العرب لما كانت اليوم للعرب لغة تعرف، ولما كانت نتيجتها خيراً من نتيجة اللاتينية التي تفتتت وتحولت إلى تاريخ يقال.

أيها العرب: هل قعد أحدكم يوماً ليفكر في أننا لم نود هذا الكتاب أقل جزء من حقه علينا لقاء فضله على إبقاء لغتنا وحفظ تاريخنا على الأقل؟

هل قعد أحدكم في ساعة من نهار لينتبه إلى صوت هذا الكتاب المدوي يعظنا ويوقظنا ويحذرنا ويأمرنا.. ولكننا جميعاً عن صوته المدوي معرضون؟

ترى متى يحين الوقت لأن نستحي من فضل هذا الوحي السماوي علينا، وأن نخجل من لمساته الرقيقة التي تمتد إلى مشاعرنا قائلة: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: 57/16] وأن نستشعر رهبة هذا الكتاب الإلهي العظيم إذ يقول: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: 59/21] ولكن قلوبنا أيها العرب أقسى من صخور الجبال.

هل علم العرب المتفكرون بعروبتهم أن أولادهم في المدارس يتقنون تلاوة كتاب إنكليزي أو فرنسي أكثر من تلاوة القرآن؟

هل علموا أن كثيراً من شبابهم الذين يحملون الشهادات والإجازات، تمر على مسامعهم الآية من القرآن وهم لها جاهلون، لم تطرق قبل ذلك سمعهم، ولا يعلمون هل هي جملة من كلام عربي حكيم أم فقرة من حديث التوراة والإنجيل أم كلمة من مآثورات تولستوي أو نابليون؟

أيها العرب: إن لم يدفعكم إلى العناية بقرآنكم أنكم مسلمون لتشريعه وأحكامه، فليدفعكم إلى ذلك الحفاظ على لغتكم والعناية باستمرار تاريخكم، وإن لم يدفعكم إلى ذلك كلا الأمرين فليدفعكم إليها الحياء من منته عليكم وتفضله على غابر مجدكم، أما إن لم يجد كل ذلك سبيلاً إلى إنهاضكم للقيام بحقه، فاعلموا أنما هو قبر الحضارة العربية تحفرونه بسواعدكم، وتخفقونها بأيديكم، بعد أن عجزت عن ذلك الدنيا كلها ثائرة متألبة مجتمعة، ولعمري ليس العجيب أن تكون الثروة في ركن منبع عن يد الباغي، ولكن العجيب ألا يتلف الثروة إلا ربها وحارسها.

وإلا فمن الذي يجهل أن القبر قد بدأ يُحفر... ومن الذي يجهل أن هذا الجيل الناشئ أضعف في فهم اللغة العربية بكثير من الجيل الذي سبقه مباشرة؟ ومن الذي يستطيع أن يأتيني بثلاثة شبان تخرجوا في ثانوية واحدة يستطيعون أن يكتبوا صحيفة واحدة من الإنشاء العربي الصحيح، أو يقرؤوا قدر ذلك من أي كتاب عربي دون لحن أو تكسير؟

ثم من الذي يستطيع أن يتجاهل بأن هذا الضعف إنما هو ناشئ عن عدم سريان الروح القرآنية في نفوسهم لتحبي فيها الذوق العربي وتربي في مشاعرهم السليقة البلاغية لهذه اللغة، بل من هو هذا الذي استطاع أن يصبح أديباً عربياً صحيحاً دون أن يتخرج في مدرسة القرآن ويعكف عليه تحليلاً وتدوقاً وحفظاً؟

إن وزارة التربية والتعليم [28] تظل حائرة في مجال البحث عن سبيل يضمن تقوية اللغة العربية في السنة النشء... وهي دائماً تبحث عن هذه الغاية في الإكثار من ساعات دروس العربية مرة، وفي رفع مستوى درجاته في الفحوص أخرى. غير أن هذا كله لن يجدي نفعاً - وأقول هذا بكل تثبت وتأكد - لأنها لم تهتد بعدُ إلى المعين العظيم الأول لارتشاف فن العربية والتطبع بروحها وسليقتها، ألا وهو القرآن، القرآن في مزاوله قراءته (وينبغي أن يبدأ ذلك من لدن معرفة التلميذ للقراءة والكتابة) والقرآن في دراسة أسلوبه ومعناه وتحليل وجوهه البلاغية المعجزة، والقرآن في حفظه أو حفظ مقادير منه على الأقل.

ولأنتهز هنا هذه المناسبة، لأقول بأن الوزارة ستلمس تقدماً واضحاً إن شاء الله في صفوف طلابها الثانويين في فن العربية في مدة وجيزة من الآن، لا بفضل اهتمامها بدروس العربية، بل بفضل دخول فرع القرآن على مادة (التشريع الإسلامي)، إن هذه الساعة الواحدة كفيلة بأن ترفع مستوى اللغة العربية في المدارس من خلال سنة واحدة بشرط أن يتوافر الإخلاص والكفاءة في تدريس ذلك، وبشرط أن تكون الأسرة عوناً للمدرس على أداء هذه الوظيفة والنجاح فيها.

أقول هذا، لأن في قلبي كياً من كثير من العائلات التي تزعم أنها عربية، وتتمشّدق بشعارات العروبة، وتعلن للملأ كله تمسكها بمبادئ الإسلام أو انتماءها لدين الإسلام، ولكنها تقف موقف الساخر من ابنها الشاب أو ابنتها الشابة عندما يقوم أحدهما في البيت بمحاولة إتقان هذا الواجب الإسلامي العربي وإعطائه حقه.

حدثتني إحداهن أنها كثيراً ما تأخذ تفسير القرآن في بيتها لتتلو بعضاً منه أو تذاكر درسها فيه، فيلنف من حولها كبار العائلة ليلقبوها بـ (الشيخة)!!
ألا بعداً لكل من يزعم أنه عربي ولا يملك من الوعي العربي ما يهديه إلى تقديس مقومات عروبه.

وسحقاً لكل من يزعم أنه مسلم، ثم لا يتجاوب مع أبسط القواعد التي تبرهن على صدق إسلامه.

ويا ما أبعد اليوم الذي تنتصر فيه العروبة على أيدي هؤلاء الأطفال المتعاضمين [29]!!..

وأخيراً...

... هل نختار ثوبنا الحضاري الذي خلفه لنا التاريخ وأورثنا إياه رسولنا الكريم، وبذلك يكون سابقاً لنا متسعاً على قدرنا، أم ننقصه ونقصه لنجعل منه زياً آخر، وإذا به يستحيل إلى مزق لا تستر عرينا ولا يتفق مع زي أي أمة غيرنا؟

وأخيراً، تعالوا نتساءل: هل يوسع هذه الأمة العربية والإسلامية - لو شاءت أو شاء لها بعض فئاتها - أن تتحول إلى أمة أوربية فيما قد يبدو على مظهر حياتها من سيما الغبطة والسعادة؟ إن علينا أن ندرك أن الأمة العربية تستطيع بسهولة أن تخرج على مبادئها وتحيد عن صراطها الذي انتهى بها إلى أوج التاريخ، ولكنها لن تستطيع في يوم ما أن تصبح من وراء هذا الانحراف والعدول ذات طابع أوربي صميم.

والسبب أن هنالك فوارق متأصلة بعيدة الجذور بيننا بوصفنا أمة شبت منذ فجر تاريخها على غذاء الروح الإسلامية ومبادئها، وبين الآخرين بوصفهم أمماً اتخذت من فلسفة المادة الساذجة وحدها الهواء الذي تتنسم منه الحياة.

إن هذه المبادئ التي ترعرع بغذائها هذا الشرق قد استحالت مع توالي الأجيال والدهور - ولا ريب - إلى طبيعة راسخة موروثية تكمن في قرارة نفسه كمجموع، وإن كانت تتفاوت فيها قوة وضعفاً بالنظر إلى الأفراد. وسواء كتب لهذه الطبيعة الكامنة أن تتجلى وتسيطر أم كان من سوء حظها أن تخبو وتندثر، فإنها على كل حال تقوم أكبر حاجز في طريق اكتساب حياة أوربية أصيلة لمجتمعنا.

والذي يحصل بالتأكيد بعد أن نحاول إقامة مثل هذا المجتمع بيننا هو أننا نقع في جوٍّ من الفراغ النفسي، وننتهي إلى حالة نشعرنا بأن أي تاريخ لا يتعرف علينا، وسنتخيل أن الأمم كلها تنظر إلينا بهذا الاعتبار، أي شحاذين تتقاذفنا جدران التواريخ والحضارات التي نتطفل عليها، وستتراكم على نفوسنا من ذلك مركبات النقص، وسيحول كل ذلك بيننا وبين الوصول إلى ثمار ذلك المجتمع التي نتخيلها وتتحلب منا الأشداق شهوة إليها.

إن بعضاً منا قد يقنع بأن عقلية الأمة العربية وحدها لا تكفي لإنشاء حضارة، فيستعيرون لتقويم حضارتهم عقولاً من الغرب، ولكن الذي يتم بعد ذلك أنهم لا الحضارة يستبقون ولا يعقول أولئك ينتفعون. وقد يتخيلون أيضاً أن المدنية لا تصبح في الشعب زاهرة إلا إذا صقلها فن الميوعة ونشطت من سيرها عوامل العاطفة والأهواء، ثم يؤمنون بوجههم شطر الغرب ليحملوا إلى وطنهم من هناك فن الميوعة وطرق اكتساب الأهواء، ولكنهم يعودون وقد أصبحوا من تأثير البيئة لا يريدون أن يكونوا شرقيين لتسم أفكارهم وتطور اتجاهاتهم، ولا يستطيعون أن يصبحوا غربيين لإباء عنصرهم واختلاف دمهم، فيظلون هناك في مفترق الطرق شعباً مذبذباً في أفكاره وعقيدته وأخلاقه.

أجل... وإن أتاتورك الذي اجتث من بلاده عروق الإسلام، وخلق فيها الحضارة الشرقية بكل مظاهرها، ثم انطلق يحث بها الخطأ نحو الغرب، لم ينجح في أن يدخل أمتة إلى دار أمريكا أو أوربة لتشاركها في حياتها ومستواها... ولكنه نجح في أن يقف بها على أعتاب دارها فقط، مفلسة من تاريخها، عديمة من الشعور الاستقلالي، ضالة عن مميزاتها كأمة... وها هي ذي السنوات التي مضت من تسكعها على تلك الأعتاب قد أربت على الثلاثين، وهي بعد لم تلج إلى الداخل...

ولم ينسج لها كل تلك السنوات ثوباً غربياً تستطيع أن ترتديه بعدما مزق عنها ثوبها الشرقي القديم. وكل من يلمحها وهي في ذلك المرمى الذي قذفها إليه أتاتورك لا يملك إلا أن يحار طويلاً في شأنها كما يقول الأستاذ لويس. ف. توماس؛ فهو لا يستطيع أن يعثر لها على وصف حازم يضعها في فريق من الأمم؛ فلا هي بالدولة المسلمة المنطبعة بحضارة إسلامية، كيف وهي لا تزال تتبرأ من ذلك، ولا هي تستطيع أن تزعم بأنها دولة أوربية أو أمريكية، إذ إن الدم الإسلامي في كثير من أفرادها لا يزال حاجزاً حصيناً يمنع انطباعها بالروح الأوربية الصادقة^[30].

فما الذي نختار نحن إذن؟ هل نختار ثوبنا الحضاري الذي خلفه لنا التاريخ وأورثنا إياه رسولنا الكريم، وبذلك يكون سابغاً لنا متسعاً على قدرنا، أم ننقضه ونمزقه لنجعل منه زياً آخر، وإذا به يستحيل إلى مِرَق لا تستر عريناً ولا يتفق مع زي أي أمة غيرنا؟ إنني على يقين من أن أحداً بيننا لا يرضى بهذا العري والعار. إن ثورتنا ما قامت، ووحدتنا ما تمت إلا انتصاراً لتراثنا القدسي الخالد، وحفظاً لثوبنا الحضاري السابغ، وهذا هو وحده معنى انتصار الحياء الإيجابي وانتهاج سبيل الحياء الإيجابي. إننا - ونحن أمة عربية مسلمة تنتهج لنفسها بكل حماس هذا السبيل - مدعوون حكومة وأمة وأفراداً إلى تحقيق مثلنا العليا التي سما بها تاريخنا وتحققت بسببها عزتنا، إننا مدعوون جميعاً إلى مكافحة هذه الأوبئة الخلقية والإلحادية والانحلالية التي تشيع اليوم في ثنايا مجتمعنا وتهدد أرفع عماد يحفظ عزتنا وكياننا الداخلي. وهنالك سبل عريضة ثلاثة، هي خير ما يكفل انتصارنا الداخلي هذا.

وهي أولاً: المدارس.

فعلى وزارة التربية والتعليم أن تجند كل عنايتها واهتمامها لتحسين الخلق وحفظه في سياق من العقيدة والإيمان، وذلك لا يكون عن طريق دروس الدين والتشريع الإسلامي وحدها، وإنما ينبغي أن توضع من أجل ذلك مادة دراسية مستقلة برأسها، اسمها: (التربية الخلقية) تُسند إلى معلمين ومدرسين متخصصين بشؤون هذه التربية.

ثانياً: الوحدة الوطنية.

فمن واجب هذه الوحدة العمل على اصطباغ المجتمع والأفكار بالصبغة الإسلامية المعتزة، ومعالجة النفوس التي سرى إليها داء الافتتان بتقاليد الغرب، بخلق وعي عربي صحيح لديها عوضاً عن الألفاظ الفارغة التي لا تسوق وراءها أي معنى من المبادئ والأخلاق. وهذا هو وحده الهدف الكبير الذي يبرر بل يوجب رعاية الوحدة الوطنية فيما بيننا، أما إذا عجز وعينا العربي عن أداء هذه الرسالة أو استهان بها فلن ترى له أي نفع جوهرى ملموس من وراء ذلك.

ثالثاً: علماء الدين.

إنني أعود هنا وأكرر واثقاً بأن هؤلاء الرجال يستطيعون في كل وقت أن يفرضوا جلالهم وسلطانهم على المجتمع، وأن يقودوا زمام النفوس في طواعية كاملة، هذا إن اتفقوا فيما بينهم، وبرهنوا على إخلاصهم، ووضعوا هدف تحقيق المبادئ الإسلامية وحده نصب أعينهم.

أجل... إنهم يملكون هذا لو تقدموا، ولكنهم لا يتقدمون ولا يتفنون [31]...
غير أنهم مكلفون من قبل الله، ومن قبل هذه الأمة بأسرها، ومن قبل الروح التي تسري في وحدتنا الجديدة، مكلفون من قبل كل ذلك بأن يساهموا في الكفاح، وبأن يعملوا هم الآخرون شيئاً في سبيل مبادئنا، وأن يدأبوا على الانتصار لمثلنا العليا وانتشالها من بين براثن هذه المدنية الأجنبية الزائفة، والعمل المجدي في هذا السبيل لا يكون إلا بأن يتحدوا ويتضامنوا ويسيروا جبهة واحدة كرجل واحد، لا أن يتدابروا ويجعلوا ما يمكن أن يتفوقوا عليه من قضايانا الهامة ضحية للجزئيات التي يختلفون من حولها.
فإذا تضافرت هذه القوى الثلاث واتجهت في سبيل إحياء الروح العربية الصحيحة في مجتمعنا، فإننا من غير شك نحرز بإذن الله انتصارنا الداخلي المنتظر.
وانتصارنا الداخلي هو وحده العماد الراسخ الذي يحفظ لنا انتصارنا الخارجي ويجعلنا في حصن منيع بعيد عن أطماع الطامعين والمتكالبين.
والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير [32].

المذهب الاقتصادي
بين الشيوعية والإسلام
تحليل علمي أمين لكل من المذهبين على حدة

المقدمة

النواة الأولى لهذا الكتاب، محاضرة كنت ألقيتها في قاعة المركز الثقافي بحمص، تحت عنوان: (المذهب الشيعي بين الوهم والواقع). ولقد كان المقصود من البحث أن أتناول بالحديث كلاً من المذهب الشيعي والنظام الإسلامي ثم أقارن بينهما. بيد أن الوقت ضاق عن الاتساع لإيضاح ذلك كله كما ينبغي مفصلاً. فاقترعت على الشق الأول منه، على أن أمضي في تنمة الحديث في فرصة أخرى.

والذي أراه، هو أننا حينما نرفض نظاماً اجتماعياً أو سلوكاً خلقياً؛ أيّاً كان ذلك النظام أو السلوك، فليس ذلك لمجرد أننا نتعصب ضده، أو مراعاة لظروف سياسية معينة؛ بل لأننا نملك ما يغنيانا عنه وما هو أليق بواقعنا وأنسب لمجتمعنا. فإذا قلنا إننا نرفض الشيوعية، فلا بدّ إذن أن نعلن بعد ذلك عن البضاعة أو الثروة التي نملكها وتغنيينا عنها، كما أننا إذا رفضنا سلوكاً خلقياً أجنبياً عنا،

فينبغي أن نشير بعد ذلك إلى سلوكنا نحن الموروث من مبادئنا وتقاليدنا^[33]. ولذا فقد كان لا بد أن أتبع الشق الأول - وهو الحديث عن الشيوعية - بالشق الثاني وهو الحديث عن النظام الاقتصادي في الإسلام. ليأتي الموضوع متكاملًا في التعبير عن إباننا والكشف عن ثروتنا وتاريخنا.

وإنني لأرجو أن يتمثل في حديثي الاتجاه العلمي والفكري المجرد، لا يثنيني عنهما هوى أو عاطفة أو غرض.

ولن أجد أفضل من هذا العهد ثمناً أقدمه لكل من لم يمتلئ قلبه إيماناً بواقعية النظام الإسلامي وملاءمته لعصرنا هذا، كي ينصتوا إليّ بأفكار متحررة وآذان صاغية فإن وجدوا حقاً فليتبّعوه، وإن رأوا باطلاً فلا عليهم أن يحدوا عنه ويرفضوه. والحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أولى بها.

النظام الشيوعي

- 1- تمهيد
- 2- أساسه
- 3- فروع

1- تمهيد

هنالك سبيلان، يمكن اتخاذ كل منهما أساساً لمناقشة نظرية من النظريات أو أي نظام من الأنظمة. أحدهما سبيل التساؤل عما إذا كان من الممكن أن تكون تلك النظرية أو ذلك النظام أمراً واقعياً يستطيع تطبيقه، أم هي نظرية من نوع (المثاليات) التي تُتخيل مجسمة في الذهن ولكنها تتأبى على الواقع ويلفظها الصعيد التطبيقي.

ثانيهما البحث عما إذا كانت تلك النظرية أو ذلك النظام يستتبع ضرراً من الأضرار أو يوقع في خطيئة من الخطيئات، بقطع النظر عن واقعية ذلك النظام أو عدم واقعيته.

والذي أراه، أن السبيل الأول أقرب إلينا - في صدد مناقشة المذهب الشيوعي - من سلوك السبيل الثاني. إذ علينا حينما نغار على مجتمعنا ونخاف عليه من نظام من النظم المتطرفة، أن نبحث أولاً: هل هو نظام يمكن أن يمسك - فعلاً - بتلابيب مجتمعنا ويطبّق فيه، أم هو وهم خيالي إنما يثير الضوضاء والفوضى في الاتجاهات والأفكار؛ حتى إذا بُحِثت الوسائل لتطبيقه تقلّص كما يتقلّص الظلّ وطار من أكف دعائه كما يطير الهواء؟.

فإن رأينا بعد هذا البحث أنه شيء يمكن تطبيقه على صعيد المجتمع كما أمكن وصفه فوق الصفحات، حان الوقت إذ ذاك أن نكشف للناس عن أضراره ومستلزماته الشائنة إذا ما طبق وعمل به.

أما إذا تبين أنه نظام وهمي يصلح لأن يعيش في الخيال فقط، فحسبك أن ترشد الناس إلى ذلك، كي يكفوا نفوسهم مؤونة البحث في قانون لا يمكن له أن يلقي بخطوة من وراء سور الوهم والخيال. على أننا إذ نتحدث في مناقشة المذهب الشيوعي، فإنما نتجه في حديثنا أولاً نحو إخواننا الذين حادوا عن الطريق السوي أو كادوا، وتبنّوا الفكر الشيوعي مذهباً لهم. ومعلوم أن الشيوعيين - وعلى رأسهم ماركس - لا يكادون يقيمون للنقاش النظري المجرد وزناً. فهم لا يصيخون إلى أيّ تفكير يتحدث مثلاً عن الروح.. أو يحلل الأضرار النفسية التي تنبع من التطرف الشيوعي.. ولكن أقرب ما يمكن أن يسترعي أذهانهم هو أن نتساءل معهم عن مدى واقعية هذا النظام الذي يدافعون عنه.

وفي نظري أن أهم نوع من أنواع الإخفاق لمبدأ ما، هو أن يكون ذلك المبدأ مستعصياً على التطبيق، وأن يكون التاريخ قد أعلن عجزه عن تطويعه لحقبة ما من حقبة الزمنية. إنك والحالة هذه لا تجد ما يحوجك إلى الخوض في البحث عن عدم عدالته أو عن سوءه، إذ إن من إضاعة الوقت في غير فائدة أن تناقش في أمر محال من المحالات كما لو كان شيئاً محسوساً على وشك أن يظهر ويطبق.

من أجل هذا، قررت أن أسلك السبيل الأول في مناقشة النظام الشيوعي. سأتناول أسسه وفروعه تناول المقتنع بوجهتها وصوابها وسأتساءل فقط: هل أمكن لتلك الأسس والفروع أن تصبح حقيقة واقعة، وعما إذا أمكنها أن تروّض الفطرة البشرية طبق مقتضاها. وسيجدني القارئ غير متحيز لوجهة دون أخرى. وسيجدني لا أحترم إلا المنطق الصحيح والفكر الحر في أي جانب أو نظام.

والذي أرجوه، هو أن أجد منه أيضاً عدم التحيز لغير المنطق والفكر الحرّ.. الحر عن سائر أنواع الشهوات والغايات التي كثيراً ما تشوبه فتذهب بصفائه وتكدره شرّ تكدير.

2- أساس المذهب الشيوعي

المذهب الشيوعي في جملته، ينقسم إلى أساس وفروع. أما الأساس : فهو الفلسفة الماركسية التي تتلخص في زعم أن (الأحداث التاريخية كلها إنما تكونها المادّة فحسب أو تكوّنها المنافع المادية لدى الجماعات..) أي إنّ القصد إلى المنافع المادية المحسوسة هو الذي يقود الحركة الحضارية والاجتماعية والفكرية والوجدانية عبر التاريخ والدهور.

وهذا التلخيص لفلسفة ماركس، إنما أخذناه من شروح أصدقاء ماركس أنفسهم، كي لا ندع أي نقد يتجه إلينا حول تقريره.

وإلا فهناك شرح آخر لمادّية ماركس، تبنّاه في معظم الأحيان أعداؤه ونقاده. ويتلخص هذا الشرح في أن ماركس يرى أنّ (مظاهر الحياة كلها، عبر التاريخ كله، إن هي إلا مادّة بحثة في جوهرها وحقيقتها).

ولقد لاقى هذا الشرح لمادّية ماركس هجوماً عنيفاً من أنصاره الشيوعيين، واعتبروا ذلك مظهراً للضعف الذي يحول دون فهم معظم الناس لما يرمي إليه ماركس العظيم من أفكار دقيقة تحتاج إلى درس دقيق ممعن.

والفرق جليّ بين الشرحين؛ فأنصار ماركس يفسرون مذهب المادي بكون الأحداث التاريخية كلها من حضارة ومعايير خلقية وغيرها إنما هي وسيلة للفائدة المادية المحسوسة. بينما يعتقد أعداء ماركس بأن ماركس كان يرى أن الحياة كلها بأحداثها التاريخية إنما هي المادّة بعينها وحقيقتها. ولا مانع لديّ من أن أتبع مذهب أصدقاء ماركس في هذا، بل ولعله هو التفسير الصحيح لفلسفته المادية.

وأما فروع المذهب الشيوعي : فهي ما نتج عن هذه الفلسفة من نظريات اقتصادية واجتماعية مما سنتحدث عنه فيما بعد.

وبناءً على ما قلناه آنفاً، فإن علينا أن نبحث عن مدى انطباق فلسفة ماركس هذه على الواقع.. إننا لن نجد له في أمر الروح والدين والمجردات وحكاية بدء التاريخ. فتلك فلسفات لا يُصيح إليها ماركس وأصدقاؤه. ولكننا لا نجد مناصاً عن التساؤل عن مدى واقعية كلامه من الوجهة المادية نفسها.

ولنجعل مكان تساؤلنا هو ماركس نفسه. ولنبحث عن زمان ومكان ودافع هذه الفلسفة إلى فكره.. فإن رأينا أن الظروف والدوافع التي أوجدت لديه هذه النظرية هي منافع مادية كما يقول، سلمنا بما يقول وسلمنا بواقعية كلامه.

ومع أن الحقائق المادية إنما تدفع إليها في الغالب غايات مادية مثلها، فهي لا يمكن أن تُتخذ نموذجاً يقياس عليه غيره، مع ذلك فإننا نرضى بهذا المثال نفسه مقياساً لواقعية فلسفة ماركس، حتى إذا تبين فيه الخلف والتعارض، أمّا حينئذ بأن أمثلة الحياة الأخرى أولى أن يقع فيها الخلف لما يدّعيه. يستطيع القارئ أن يتأكد من أن النزعة المادية هذه في نفس ماركس إنما أوجدها تفاعل وجداني مجرد عن أي معيار من المعايير المادية، يستطيع أن يتأكد من هذا حينما يلاحظ ظروف ماركس النفسية التي جاءت بين يدي نظريته هذه.

هذه الظروف هي أنه توله بحب فتاة بارعة الجمال إبان دراسته للحقوق في جامعة بون. وكان شاباً إذ ذاك لا يتجاوز العشرين من العمر وكانت رائحة نزعته تلك لم تجد بعد أي سبيل إلى تفكيره.

وعبثاً حاول إقصاء طيف هذه الفتاة عن فكره.

وعبثاً حاول إقناع نفسه بأن الأنسة (جيني) إنما هي حفيذة مستشار الدوق (دي برونشويك)، وأنها تنحدر من طبقة غير التي ينحدر منها هو، فلا يمكن للتقاليد أن تتسامح في زواجه منها.

عبثاً حاول ذلك، إذ كانت الفتاة هي أيضاً قد أحبته، ونسيت في سبيله الفوارق الطبقيّة بينهما. ومع أنه تمكن بعد مغامرة شاقة من إقناع والدها بأن يبارك حبهما، فقد ضاعت كل أتعابه سدى حينما مات والدها قبل عقد القران.. إذ أعلنت الأسرة من جديد معارضتها لهذا الزواج، وتولى كِبَر هذه المعارضة أخ لـ (جيني) اسمه (فرديناند). وبدأت الأزمات الوجدانية تعتلج في صدر ماركس العاشق الملتاع.

وعلى أن (جيني) استطاعت أن تنجي نفسها وعشيقها من مؤامرة العذار من أفراد أسرتهما، إذ أعلنت في حزم وإصرار أنها راضية به على أيّ حال، وأنها لن تبغي عنه بديلاً، ومن ثم تم الزواج بينهما بعد ذلك؛ إلا أنها لم تستطع أن تنجي زوجها من ردود الفعل التي انقدحت نيرانها من أزمته الوجدانية تلك.

فقد أعلن أنه لا بدّ أن ينتقم.. وظلّ يعكف على تدبير خيوط انتقامه هذا إلى أن عثر على فلسفته المادية هذه، وراح يتخذها قاعدة للانتقام. ولقد عثر عليها عند (هيجل) الذي سبقه إلى وضع نظريات اشتراكية، فجعل منها نواة لفلسفته المادية التي قال عنها إنها تصحيح لأخطاء (هيجل). ولقد اعترفت زوجته بعد حين بأنها كانت العون الأول له في إخراج نظرية المادية إلى الوجود.. أعانته بإيجاد هذا الوازع في نفسه، ثم أعانته أخيراً في كتاباته وتسجيل أفكاره ونظرياته.

إذن، فكيف نصدق ما يدّعيه ماركس من أن المادة هي وحدها التي تقود زمام الحضارة والأفكار والوجدان؟ مع أن دعواه هذه نفسها على ضخامتها إنما انقدحت من حركة وجدانية لم يستطع لا هو ولا أكبر رأس من رؤوس الفكر المادي ضبطها في قالب من قوالب المادة.

هذه الحركة الوجدانية التي يؤكد قادة الشيوعيين اليوم خرافيتها وينصحون الشباب بصدد اختيارهم لفتيات أحلامهم أن يستهويهم منهن نشاطهن الصناعي، وقوتهن الحركية، وأن يجعلوا اعتبار النداء العاطفي والوجداني في آخر القائمة لأنها خرافة ضخّمتها نوازع الإقطاع؛ هذه الحركة الخرافية

هي التي ولّدت القصة المادية من أساسها في رأس كارل ماركس [34].

ولسنا نجد داعياً بعد هذا إلى أن نعرج على ما يجمع عليه علماء النفس من أن العقيدة أو الفكرة التي تتولّد بسبب ردود فعلية وأزمات عاطفية، لا تبصر الواقع والمجتمع إلا من ناحية واحدة، هي الناحية التي تسببت في إيجاد الرد الفعلي لدى صاحبها، أقول لا داعي إلى أن نعرج على هذا الحديث لأنه مناقشة للنظرية من أساسها، وقد كان ماركس يبيغضه كما قلنا المراء النظري، خصوصاً أكثر ما يتفلسف حوله علماء النفس.

3- فروع المذهب الشيوعي

ولنتنقل الآن من الحديث عن أساس المذهب الشيوعي إلى فروعه التي نتجت عنه، وأعلن بأنها أركان ومقومات للمجتمع الشيوعي المادي. ولنعدد هذه الأركان أولاً كي نتصور المذهب الشيوعي في مجموعه العضوي، ثم نتساءل عن مدى إمكانية التطبيق العملي لتلك الأركان في العالم الشيوعي.

هذه الأركان هي:

- أولاً - استيلاء البروليتاريا على الحكم.
- ثانياً - القضاء على رأس المال والربح الناتج منه.
- ثالثاً - تأمين وسائل الإنتاج ومصادر الثروة جميعها وجعلها ملكاً للمجموع.
- رابعاً - القضاء على الطبقات، وإيجاد جمهور ديمقراطي في مستوى واحد.
- خامساً - القضاء على الحكومة والدولة، لتتطلق الشيوعية والحريات في سبيلها العريض.

1 - استيلاء البروليتاريا على الحكم

إذن، فإن أول ضرورة من ضرورات قيام العهد الشيوعي هي استيلاء طبقة (البروليتاريا): الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين على الحكم، وانتهاء زمام قيادة الشعب إلى أيديهم ليتولوا هم إدارته وتنظيمه.

ونحن لا نناقش صحة هذه الضرورة أو عدمها، بل نأخذها بعين الاعتبار، ونفرض التسليم بها، ولكننا نتساءل: هل تمت هذه الضرورة في يوم من أيام العهد الشيوعي في روسيا؟ هل الطبقة الكادحة هي التي استولت على الحكم وأدارت نظامه؟

إن الدور الذي قامت به الطبقة الكادحة ينحصر في شيء واحد فقط، وهو أنها كانت الجندي الباسل الأمين للحزب الشيوعي في الانقضاض على الحكم القيصري وإشعال نار الثورة عليه. أي إن الحزب استعارهم من معاملهم وأراضيهم ليشغلوا عمالاً عنده. ولكن لا في الإنتاج الاقتصادي، بل في الإنتاج الثوري.. وكانت أجورهم من الحزب هي الوعود.. الوعود بأن يستلموا زمام الحكم، وأن يعطى الحق الديكتاتوري في قيادة الأمة إليهم.. فهل نفذ الحزب لهم هذه الوعود؟

إن العمال والفلاحين ما إن نجحوا في أعمالهم الثورية، حتى تقدم منهم الحزب فأزاحهم عن الطريق، أمراً إليهم أن ينصرفوا مشكورين. وقبض الحزب الشيوعي، والحزب الشيوعي وحده، على زمام الحكم، وأعطوا أنفسهم حق الديكتاتورية في الحكم، وكان أول رأس هُشِم تحتها هو رأس الطبقة الكادحة؛ إذ قام الحزب بتشكيل (الكولخوزات): المزارع التعاونية، وراح يجبر الفلاحين عن طريق تهديدهم بمصادرة ممتلكاتهم بالانضمام إليها، تحت لائحة من قوانين الجور والاستعباد والسوق بعصا الإكراه، العصا نفسها التي تساق بها الأبقار في الحقل.

وهناك قامت قيامة العمال والفلاحين.. وأحرق كثيرون منهم محاصيلهم وبددوا مواشيهم وأموالهم في سبيل ألا تقع فريسة في يد الحزب.. ونشأت عنها المجاعة الرهيبة التي سجلها عام 1929. ولقد حور الحزب دستوره ثلاث مرات بعدئذ في سبيل تهدئة ثورة الطبقة الكادحة، في عام 1934، 1936، 1944. ولكن ذلك كله لم ينج تلك الطبقة من قبضة الحزب وخطامه.

وراح ستالين يزأر إليهم بتهديده قائلاً:

(لكي يضمن الكولخوزيون لأنفسهم الحياة والعيش، يتطلب ذلك منهم أن يعملوا في الكولخوزات باستقامة، وأن يصنوا أملاك الكولخوزات ويحافظوا عليها، ولا ينسوا مسؤوليتهم تجاهها..). وهكذا مسخت وعود الحزب لهم بأن يتركوهم يستولون على الحكم، مسخت بأن يتركوهم أحياء يعيشون، ولكن حتى ذلك أيضاً ضمن شروط.

وحينما تجرأ من ذكر ستالين بضرورة توفير حكم حقيقي للعمال والفلاحين حسبما وعدهم الحزب سابقاً، قال لهم بالنص:

(لقد انتقلت السلطة وتركزت في حزب واحد هو حزبنا، ولن يشاركنا في توجيه الدولة أي فئة أخرى، وهذا ما نعنيه بالديكتاتورية العمالية).

كما قال مرة أخرى في التقرير السياسي للجنة المركزية في اجتماعها السادس عشر ما يؤكد أن الحزب هو الموجه لسياسة الدولة، وأن ليس من قرار تتخذه مؤسسة أو جماعة إلا كان بتوجيه مباشر من قبل الحزب الأوحد والقوة الموجهة.

وهكذا نجد أن الضرورة الأولى من ضرورات المذهب الشيوعي لم يتحقق منها شيء في يوم من الأيام.

2 - القضاء على رأس المال

أما الضرورة الثانية من ضروريات المذهب الشيوعي فهي ضرورة القضاء على رأس المال والربح الناتج منه.

ونحن حينما ننصت إلى فلسفة ماركس للتدليل على هذه الضرورة، نجد أنفسنا أمام نموذج من المثالية والخلق الرفيع، والحق يُقال.

إذ هو يتساءل: كيف يقدر رأس مالٍ ما أن يربح ويصبح أكثر من نفسه؟ إننا لا نجد في المنتج إلا ما يساوي المال المدفوع للعامل، وقيمة العمل (أي القيمة الذاتية للمنتج)، وتآكل الآلات.. فمن أين أتى الربح؟ ويتساءل عما إذا كانت هناك قوة سحرية تجعل رأس المال أكثر من هذه القيم؟

ثم يكتشف ماركس - بطريقته (الديالكتيكية) وهي الطريقة التي اقتبسها من (هيجل) ثم عدل فيها حسب فلسفته المادية التي جنح إليها طريقة: الكشف عن المتناقضات الخفية وسرّها في أمر يتراءى فيه لأول وهلة التناسق والتعادل التام - يكتشف ماركس بطريقته هذه أن الرأسمالي إنما يكسب الفرق بين الأجر الذي يعطيه للعامل والقيمة الحقيقية للمنتج، أي إن الربح يأتي على حساب نفع العامل ومن وراء الإضرار بحقه، وإذن فالربح لصوصية ظالمة ينبغي القضاء عليها.

من السهل علينا جميعاً أن نتصور المثالية الخلقية في هذا الكلام. فماركس في كلامه هذا لا يريد أن يتعرف حتى على المصطلحات والمنافع البشرية الدائرة بينها على أساس التعاون، رحمة بالطبقة التي قد تكون جسراً لمنافع الآخرين.

ولكن هل أمكن لهذا القانون الملائكي أن يطبق..؟

هل اختفى شيء اسمه رأس المال أو الربح من العالم الشيوعي؟..

إن الذي حصل في روسية هو أن وسائل الإنتاج ورؤوس الأموال قد اختفت فعلاً من أيدي الأفراد، ولكن لا لتتلاشى في أيدي المجموع بل لتتجمع تحت يد الدولة.. أي تحت يد الحزب الشيوعي.

ولقد انقلبت روسية إلى مصنع واحد هائل يحوي بين جدرانه جميع الدهماء من أفراد الشعب صناعات عاملين، ويملك ثرواته الواردة ومنتجاته الصادرة مجلسُ الاتحاد السوفييتي.

ثم حصل أن عمد ملاك هذا المصنع إلى الطريقة الرأسمالية نفسها التي أنحى عليها ماركس باللائمة الكبرى وكشف بطريقته الديالكتيكية أنها ستار من معادلات حسابية متساوية في الظاهر بينما تخفي وراءها تناقضات وانحرافات تجري على حساب العامل ومصالحته.

وما علينا إلا أن نتبع سبيل ماركس نفسه لكي نكشف عن أن ما يسمى بالنظام الشيوعي القائم الآن، فيه من اللصوصية ما يفوق بكثير لصوصية الربح الرأسمالي السابق الذي نفذ فيه حكم الإعدام.

إن القانون الذي يظلل العمال والفلاحين في صدد أجورهم وأعمالهم، هو ذلك القانون الذي يشكل ركناً ذا أهمية كبرى في تحقيق الحياة الشيوعية، ومن ثم فهو القانون الذي تبناه جميع زعماء الشيوعيين إلى اليوم؛ وهو قانون: (من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته).

وهذا القانون يوضح نوعاً من المساواة والتعادل بين ما يبذله الفرد من طاقة، وما يحصل عليه من حاجياته؛ أي إن تقديم الفرد لأقصى ما يستطيع تقديمه من طاقة في مدة معينة، يساوي أقصى ما يحتاج إليه من مال في تلك المدة المعينة نفسها. غير أن الدولة تباع مجهود هذا العامل بأكثر مما كلفته حاجته التي فُرضت أنها مساوية لمجهوده.

ومثال ذلك أن تقذف طاقة العامل في مدة معينة بمجهود يساوي /1000/ روبل، ولكن حاجته في تلك المدة تحدد حسب اعتبار الحكومة بـ /600/ روبل مثلاً (وهو الأجر الوسطي للعمال). وبدهي أن الـ (400) روبل الباقية تضاف إلى أرباح الحكومة على حساب العامل ومجهوده. أفليست هذه هي اللصوصية نفسها التي اتهمت بها الأرباح الفردية لأصحاب رؤوس الأموال وحكم عليها من أجل ذلك بالإعدام؟

وهناك ناحية أخرى، تتمثل فيها هذه اللصوصية بأجل من هذا الشكل؛ وهي نظام المزارع الجماعية. فمن المعروف أن الحكومة تأخذ من منتج المزرعة قرابة 35% بسعر تفرضه هي على الفلاحين. تأخذه من مجموع المنتج، أي قبل أن يفرز منه بذار العام المقبل ومصرف التراكتورات والإصلاحات، ومعنى ذلك أن الـ 35% يساوي بالنسبة إلى الصافي الذي يأخذه الفلاح 45% على أقل تقدير. ثم تعود الحكومة فتبيعه في الأسواق بأسعار باهظة ليس بينها وبين سعر الشراء أيما نسبة. أفليس من حقنا أن نحتمي بفلسفة ماركس ونسأل من أين جاء هذا الربح؟ وما هو مظهر التعادل.. (حتى التعادل الشكلي) بينه وبين أي قيمة أو عمل؟

3 - تأمين وسائل الإنتاج

ولنتقل الآن إلى الحديث عن الضرورة الثالثة من ضرورات المذهب الشيوعي، إنها تأمين وسائل الإنتاج ومصادر الثروة وجعلها ملكاً للمجموع.

والمجموع، حسبما يعرفه علماء الاقتصاد: شخص معنوي يتمثل في جميع أفراد الدولة. وعلى هذا فإن الإنصاف يقتضي أن نعترف بنبل هذا المبدأ الإنساني، إذ ليس أحسن من أن تعمم مصادر الثروة ووسائلها بين الجميع على التساوي.

ولكن هل طبق شيء من هذا أم هو لا يزال يتخذ مكانه بين المغيبات والمجردات؟

لقد أصبحت وسائل الإنتاج في الاتحاد السوفييتي فعلاً ملكاً للمجموع، ولكن المجموع في اصطلاح الاقتصاد الشيوعي هو الحزب الشيوعي فقط، بل هو القادة فقط من الحزب الشيوعي، أما ما وراء ذلك فلم يحصل فيه جديد.. الفلاحون لم يملكوا الكولخوزات ولكن قيل لهم: هذه أرض الدولة فارعوها، وهذه تركتورات الحكومة فحافظوا عليها ثم أنتم أمناء على ثروة الدولة فلا تضيّعوها. ولقد سبق أن سردنا آنفاً إنذار ستالين لهم في هذا الصدد.

على أننا لا ننكر أن الحكومة السوفييتية اضطرت أن تجري إلحاح الفلاحين، فضمنت المادة التاسعة والسابعة من دستورها إعطاء الحق لهم في تملك قطع صغيرة من الأراضي خاصة بهم، يستثمرونها لاستهلاكهم بشرط ألا يستثمروا فيها مجهود آخرين.

غير أنها اتخذت هذا القرار لمجرد تخدير مشاعرهم وتبريد ثورتهم؛ إذ هي في الوقت نفسه عمدت إلى السبيل الذي وصى به ماركس من فرض الضرائب الباهظة على الملكيات الفردية حتى تميت نفسها بنفسها، وهكذا أصبحت نسبة ما تأخذ الدولة من منتوج المشاريع الخاصة ضعف ما تأخذ من مزارعها الجماعية، أي هي تحصل ما يزيد على 60% من المنتوجات، كما وضعت ضريبة باهظة حتى على المواشي والبغال مما يمتلكه الفرد لحسابه.

ولا شك أنه لو أعطي العامل - حقاً - مقدار حاجته من المال إذن لأمكن أن يكون في ذلك بعض الغناء أو العزاء عن فوات تملكه لمصادر الثروة. ولكن هذه الحاجة - لسوء الحظ - إنما تقدّرها الدولة بنسبتها الوسطية العامة، دون النظر - طبعاً - إلى الحالات والطوارئ الخاصة التي تداهم الأفراد بالحاجة، وهي حالات لا يمكن وضع حد وسطي لها، لأنها تختلف اختلافاً جذرياً بين فرد وآخر. وحتى لو أرادت الحكومة أن تأخذ هذه الحالات بعين الاعتبار، لما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. وذلك لسببين:

أولاً: هذه الحالات إنما يقدرها حق قدرها صاحب الحاجة نفسه ومن المحال ألا تتهم الدولة الأفراد الذين يعرضون حاجاتهم هذه بالتحيّل والكذب ابتغاء الحصول على أرقام مالية أكثر، خصوصاً وهي تشعر بمكان عدم الرضا في نفوسهم عن هذا التقنين الدقيق لدخلهم القائم على أساس الأجرة لا أكثر.

ثانياً: تخشى الحكومة الشيوعية أن يزيد عن حاجة الفرد روبل واحد، فيوظفه في مشروع خاص، فيستغله استغلالاً فردياً، فتتسرب الحياة الرأسمالية ثانية.. وهذا هو الذي يجعلها تضع الخوف والحذر دائماً بين عينيها.. وهذا هو الذي يجعلها تبخل في عرض المزيد من سلع الاستهلاك في الأسواق، إذ هي تخشى أن يفيض منه لدى بعض الناس شيء فيتاجر به.

فكيف تستطيع الحكومة - وهذا شأنها - أن تأخذ بعين الاعتبار الحاجات الاحتياطية للناس، وأن تضع معدلاً وسطياً لها تقدّمه للأفراد؟

ومن هنا لا يكاد ينحسر ظل المزاومة على حاجة من الحاجات لدى محاولة الحصول عليها؛ إذ هي طبيعة المقارنة الحرفية في الكم، بين الحاجة على وجه التحديد ومقدار السلع على وجه التحديد أيضاً.

وهكذا نستطيع أن نحكم بالبداية أن الطبقة الكادحة بقيت ولا تزال في الاتحاد السوفييتي طبقة كادحة بل أكثر من كادحة. فلقد كانت تستطيع في الماضي - على أقل تقدير - أن تستعمل حريتها في التداول ببعض القروش أو الروبلات الفائضة عن مقدار حاجتها؛ أما اليوم فقد نالها من تقسيم مصادر الثروة ووسائل الإنتاج بين المجموع، نالها من ذلك أن أي فرد فيها لا يستطيع أن يضع قرشاً فوق قرش في جيبه. أما مصادر الثروة فقد بقيت كما كانت في أيدي أفراد، بل وأفراد أشد استبداداً من خلفائهم السابقين.

4 - القضاء على الطبقات

أما الضرورة الرابعة من ضرورات الحياة الشيوعية فهي انمحاء الفروق الطبقيّة عن آخرها، وإيجاد جمهور ديمقراطي في مستوى واحد. وهي ضرورة ذات أهمية قصوى في نظر الشيوعيين أخذت بعين الاعتبار منذ المؤسس الأول للشيوعية ماركس إلى خلفائه في هذا اليوم [35]. ولكن هل أمكن أن تتمحق الطبقات فعلاً من الاتحاد السوفييتي بعد جهاد شيوعي زاد على أربعين سنة؟

إن الفروق الطبقيّة الجاثمة ما بين الأفراد في الاتحاد السوفييتي فروق قلما نجد شبيهاً لها في أي مكان آخر.

لقد قلنا إن القانون الشيوعي وحّد دخل جميع الأفراد على أساس الحاجة التي تقابل تقديم الحد الأقصى من الجهد، وهو قانون يصور في خيال السامع غشاً من المساواة يمتدّ فوق شتى الطبقات في الاتحاد السوفييتي ويجعلها من تحت ذلك طبقة واحدة.

غير أن ميزان (الحاجة) هذه في ذلك القانون تختلف كفتاه اتساعاً وضيقاً حسب الجماعة التي سيوزن فيها دخلها.

فالتبقة الكادحة من العمال والأجراء إنما تتسع كفة ميزان حاجتها لتلك البطاقة التي تبلى بيد العامل قبل أن ينال بها خبزاً يُشبع به بطنه.

أما طبقة الوزراء والحكام والقادة فلها ميزان احتياجي آخر تتسع كفتاه للسيارات الخاصة التي توضع تحت تصرفهم، بل تملك لهم، كما سنجد الآن؛ كما تتسع أيضاً لزجاجات الفودكا التي تقابل قوت أسرة بأكملها من الأسر المستميتة تحت نير العمل!

وهناك طبقة الحزب الشيوعي التي تكوّن ميزانها الاحتياطي بنفسها: توسعه وتضيقه طبق ما تشاء.

إن دخل سواد الشعب من العمال لا يتجاوز معدله الوسطي المقرر ما بين 600 و 700 روبل، بينما تتناول الطبقة الخاصة كالقواد والعسكريين والعلماء والمهندسين ما يتراوح بين أربعة آلاف وسبعة آلاف روبل. أما الفنانون ومعلمو الرقص فيتناولون ما بين 1400 و 2000 روبل. كما أن الحكومة وضعت لطبقة العسكريين والمهندسين وأمثالهم نظاماً خاصاً بهم بصدد ضريبة الدخل تتفق مع هوى هذه الطبقة ورغبتها.

ولقد أعلن أحد علماء الأكاديمية السوفييتية لبعض العلماء الزائرين بأن الحكومة عمدت بعد الحرب العالمية الثانية إلى بناء منازل لأعضاء الأكاديمية، وإلى منح كل منهم سيارة وسائقاً خاصاً. أضف إلى هذا ما تمتاز به تلك الطبقة الأخرى؛ طبقة البوليس السري، من امتيازات لا يمكن أن يملك مثلها أي عامل أو فلاح أو موظف، مهما استمات في العمل، وضرب الأرقام القياسية في الإنتاج. ولسنا نعني بهذا أن الشيوعية كان بوسعها أن تقضي على الطبقات.. ولكننا نقصد أنها أضافت إلى الفروق الفطرية بين الناس مظالم وفوارق جائرة باعدت هوة الاختلاف فيما بينهم، مما جعل الروح الطبقيّة هناك أشدّ عتواً منها في كثير من الجهات والبلاد الأخرى.

وإلا فإننا نقرر بكل بداهة أن الطبقات ستبقى ما بقي بين الناس اختلاف وتنازع في القدرات والاتجاهات. ومن الخطأ أن يزعم زاعم أن الطبقة إنما تنشأ من الفروق المادية وحدها، ففي بلاد الهند - البلاد التي كانت في يوم ما مهد الطبقات - لم تكن السيادة الأولى لطبقة التجار والسراة من

ذوي الأموال، وإنما كان هؤلاء يتبوؤون الدرجة الثالثة أو الثانية على أكبر تقدير. أما أصحاب الدرجة الأولى فهم الفرسان وذوو الخبرة والمهارة الحربية. كما أن هذا الاعتبار نفسه كان سائداً لدى الرومان، إذ كان الإقطاعيون وملاكو المصانع أدنى بكثير من ذوي المهارة الحربية والخبرة بفنون القتال.

إننا لا نقول: إن في الإمكان محو الفوارق الطبقية من مجتمع من المجتمعات، ولكننا نقول: إن بالإمكان إشاعة العدل والانسجام بينها، والحيلولة دون تدخل الأعراض الخارجية لتضخم الفوارق ما بينها.

أما الشيوعية فإنها بالإضافة إلى الطبيعة البشرية المتفاوتة، زادت إليها عوامل التفرقة الهائلة بين الطبقات، ثم سترت هذه الفوارق بغلاف من المساواة في الفقر والحرمان والصراع حول لقمة الخبز بين الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين.

5 - القضاء على الدولة

أما الركن الخامس من أركان الحياة الشيوعية في أبسط معانيها، وأقل مقدار من ضرورياتها، فهو القضاء لا على مجرد الطبقات فحسب بل القضاء على الدولة أيضاً. لأن المعنى المشاعي الذي تتكفل به الشيوعية لا يتم إلا بعد القضاء على الدولة.

هكذا يعتقد ماركس، وهي نفسها أيضاً العقيدة الراسخة في صدر سائر خلفائه من الشيوعيين. وهذه الضرورة هي الفارق الوحيد بين الاشتراكية والشيوعية. فلكي تسود الشيوعية مع الاشتراكية التي تقضي باستيلاء طبقة (البروليتاريا) على الحكم وتعميم وسائل الإنتاج، ينبغي أن تزول الدولة. يقول ماركس في هذا الصدد: (الشيوعية.. هي عهد تسوده الحرية، وعصر يزدهر فيه الإنسان أكمل ازدهار، فهو يحتم مع زوال الطبقات زوال الدولة) ويقول أيضاً: (.. وبعد أن تزول المنازعات بين الطبقات زوالاً نهائياً خلال التطور، وبعد أن يتركز الإنتاج كله في أيدي الأفراد المتشاركين، عندئذ تفقد السلطة العامة طابعها السياسي، والدولة (وهي سلطة الطبقات المنظمة) تزول بزوال الطبقات، وعندئذ يكون عهد الشيوعية بكل ما تعني الكلمة).

ويذهب ماركس إلى أبعد من هذا أيضاً؛ إنه لا يجوز حتى مجرد الفصل بين مرحلتي الاشتراكية والشيوعية والتمسك بفكرة التدرج أو الاستغناء بأحدهما عن الآخر، بل هو يعتبر ذلك مفارقة غريبة مضحكة، ومغامرة إيديولوجية عجيبة مخففة. وإنه ليرى أن هنالك تلازماً زمنياً بين تقرير قاعدة: (من كلِّ حسب طاقته، ولكلِّ حسب حاجته) وبين زوال الدولة والطبقات.

فهل زالت الدولة الشيوعية حتى بعد مرور أربعين سنة من تغني الشيوعيين في روسية بشيوعيتهم والدعوة إليها خارج بلادهم؟

بل، أوليس سؤالنا هذا نفسه شيئاً مضحكاً يشبه سؤالنا عما إذا استطاعت هذه الخشبة أن تصبح قطعة ذهب أو حديد؟!

إن هنالك دولة وأي دولة.. دولة هرمية كبرى يحكمها آخر حجر في رأس الهرم.. دولة تفقد حياة الملايين بسوط القسر والإكراه.. دولة تنتزع الآهات من الصدور ثم تكتم أمامها الأفواه.

قد يقول أحدهم: إنها سائرة في طريق الزوال والانهاء. ولكن أي مجنون هذا الذي يصدق أن يسير الرجل متراجعاً إلى الخلف ثم يكون في الوقت نفسه سائراً في الطريق نحو هدفه الأمامي؟

نستطيع أن نصدق بأن الحكومة الشيوعية ماضية في طريق تصفية نفسها إذا رأيناها وهي تقطع المراحل إلى ذلك. وهذه المراحل تتمثل في نحو الأمور التالية:

تزايد الانسجام ما بين الحكومة والشعب، والتدرج نحو تبسيط جهاز البوليس والبوليس السري على الخصوص، إشاعة اللامركزية في أكثر المناطق والبلدان، التقارب ما بين الطبقة الحاكمة ودهماء الشعب.

ولكننا نبصر هذه المراحل كلها معكوسة؛ فليس ثمة أي أثر من آثار الانسجام بين الطبقة الحاكمة والمحكومين، وما ضرورة فرض الستار الحديدي إلا نتيجة لفقد هذا الانسجام. أما جهاز البوليس فروسية نفسها لا تنكر أن جهاز البوليس السري لديها هو أخطر جهاز بوليسي في العالم، ولا تزال النظريات للمزيد من تعقيده وإرهابه تتجدد. وأما إشاعة اللامركزية، فهذا ما استحالة تطبيقه حتى

في الجمهوريات الاتحادية، فضلاً عن أن يمكن تحقيق شيء منه في روسية نفسها. إننا جميعاً نعلم أن ليس هناك جمهورية واحدة ملكت حق التمثيل الدبلوماسي الصحيح المستقل مع أي دولة في العالم؛ وأن هذه الجمهوريات كلها إنما تُحكم من قبل فروع الحزب المحلية مرتبطة بتوجيهات الحزب المركزية.

صحيح أن المادة السابعة عشرة من دستور الاتحاد السوفييتي تقول: (لكل من الجمهوريات الاتحادية مطلق الحرية في أن تنفصل عن الاتحاد السوفييتي)، ولكن ما أسرع ما وضع ستالين في عقب هذه المادة مبدأ صريحاً قال فيه: (إن تقرير المصير لأي فرد أو أمة أو جماعة، يجب ألا يتضارب مع حق الحزب الذي يمثل الجماهير الكادحة في أن يحكم حكماً دكتاتورياً).
وها هي ذي لائحة الخيانة والإجرام تعلق اليوم على جدران كل دولة تحاول الانفصال والاستقلال كما هو الحال في يوغسلافية.

فإذا كانت الدكتاتورية الحاكمة تحول دون اللامركزية الصحيحة حتى لدى الجمهوريات الاتحادية فكيف تسمح بها ضمن عاصمة الشيوعيين ومحجتها؟

وقد يقول بعضهم - وهم كثيرون -: إن وجود حكومات معادية للشيوعية لا تزال قائمة، هو الذي يحول دون إمكان تحقيق هذا الركن فلا يمكن للدولة الشيوعية أن تنهي نفسها ما دام من حولها حكومات تتربص بها أو على الأقل تثير الدعايات ضدها.

وهذا كلام يشبه أن يكون معقولاً، غير أن كل واحد يسمع هذا الاعتذار يفهم بسهولة أن مهمة الحكومة الشيوعية إذن، مهمة خارجية وليست بدائية، أي هي مع شعبها وجماعتها في الداخل متفاهمة وليس بينهما ما يدعوها إلى القلق والتيقظ. ولكن الذين يضطرونها إلى التيقظ والوقوف موقف الحراسة والتشبث بهيبة الحكم، هم أولئك الذين يتربصون بها في الخارج.

ونحن يجب أن نحترم هذا الكلام لو كان صحيحاً في الواقع.. ولكن الأمر يكاد يكون بالعكس تماماً، فإن الحكومة الشيوعية تبدو دائماً أكثر ما تكون اهتماماً واستعداداً ضدّ رعاياها في الداخل. يدل على ذلك جهاز البوليس السري، ويدل على ذلك الستار الحديدي، ويدل على ذلك توالي تأمر القادة والحكام بعضهم على بعض، وتدل على ذلك الروح الدكتاتورية الواضحة التي ينبض بها قلب الحكم هناك.

لو كان اعتذارهم هذا يشبه أن يكون صحيحاً لاقتصرت الحكومة الشيوعية على أن تجعل من نفسها جيشاً فقط يحرس أمن البلاد من الخارج وجهازاً يقوم بمهام الوزارة الخارجية للتفاهم والاتصال بالآخرين.

أف هكذا شكل الحكومة السوفييتية اليوم..؟!!

إذن، أف ليست حكاية زوال الدولة مع سيادة الحكم الشيوعي أسطورة من أغرب الأساطير حتى بالنسبة إلى الوهم نفسه؟

لقد كان ماركس عدواً للأفكار الميتافيزيقية المجردة، ولكن ها أنتم أولاء ترون كيف تبنى طائفة من الأفكار زعم أنها مادية ستحكم نفسها على العالم بكل تأكيد، وهي في الوقت نفسه أكثر تجرداً من المجردات نفسها.

ونحن لا نريد أن نغالي ونلجأ إلى الكلام الخطابي، ولكن ها نحن أولاء نرى أن الحقيقة نفسها هي التي تغالي في توهيمهم ودحض أساطيرهم..

أسس الشيوعية ونظمها، كلها لم تتحقق على رغم جهاد طويل دام أربعين عاماً.. إذن فما هي الشيوعية؟ وأين نجد حقيقة قلبها المادي المائل أمامنا؟ أليس هذا التساؤل مع البحث الذي استعرضناه يلجئنا إلى أن نحكم بأن الوهم وحده هو الذي نسج تمثال الشيوعية ولبوسها؟

خاتمة البحث

وعلى أعقاب حديثنا الذي فرغنا منه ترد على خاطر ثلاثة أسئلة:

أولها هو: ولكن هل يعتبر عدم تطبيق النظام الشيوعي عيباً في النظام نفسه، أم يعتبر عيباً في أولئك الذين لم يطبقوه؟

والجواب: أن عدم تطبيق نظام من الأنظمة حينما يكون بسبب إهمال وكسل أصحابه، أو حينما يكون بسبب عدم إخلاصهم له، فلا شك أن ذلك يعتبر عيباً فيهم لا في النظام، بل من الظلم أن يحْمَل النظام جريرةً اقترفها أصحابه المسؤولون. أما حينما يكون عدم التطبيق ناشئاً عن استعصاء النظام نفسه على الواقع ومناقضته للفطرة والطبيعة، فلا شك أن ذلك يكون عيباً في النظام نفسه، أو عيباً في الذين سموه نظاماً ثم راحوا يفرضون عليه فرضاً أن يثبت وجوده في المجتمع. والواقع أن قادة الحركة الشيوعية من لدن ماركس إلى خروشوف أناس مخلصون كل الإخلاص لمذهبهم، ولا نستطيع أن نتهم أحداً منهم بالعمل على عرقلة النظام الشيوعي والحيلولة دون تطبيقه. ولكن الشيوعية مع هذا بقيت في معزل عن الواقع.. وهذا يعني - قولاً واحداً بالبداهة - أن سبب استعصائه على التطبيق إنما هو عدم أهلية النظام نفسه لأن يكون منسجماً مع الواقع الفطري الذي يعتبر - حقاً - السبب والشرط الأول لنجاح نظام ما.

فنحن حينما استعرضنا قبل صفحات قليلة جهاد الشيوعيين في القضاء على رأس المال وربحه، لم نشعر بما يدعو إلى الارتياح في إخلاص المجاهدين الشيوعيين لهذا المبدأ من حيث ذاته. ولكن الذي لاحظناه جيداً هو أن البواعث الضرورية والفطرية هي التي أورثت جهادهم الإخفاق الذريع. إذ إنهم كانوا يناوئون بذلك فطرة ضرورية مستلزمة لطبيعة المجتمع البشري القائم على التعاون في «الجهد والمنفعة»، ولذلك لاحظنا أن رأس المال حينما اختفى من أيدي الأفراد؛ سرعان ما تجمع وبدأ يظهر هو ذاته في أيدي القادة والحكام؛ أي رأس المال لم يقبض عليه، ولكنه انملص من هنا ليتجمع ويظهر هناك.. ولو لم يكن كذلك، ولو تفتت رأس المال وانمحي كما كان هو المراد، إذن لتجمدت الحياة وساد الفقر والجوع الذي لا يطاق. وحينما تراءى أنهم استطاعوا خنق الربح الرأسمالي، لم يكن ذلك في الحقيقة خنقاً على الإطلاق، وإنما الواقع أنه تملص تحت أيديهم الضاغطة حيث راح يعلن عن نفسه في مكان آخر. فقد رأينا كيف أن قادة الشيوعيين بدؤوا ينوبون عن الأفراد في القيام بنفس معاملاتهم الرأسمالية الرابحة سابقاً، ولا شك أن الفطرة هي التي قسرتهم قسراً على ذلك.

إذ كان على القادة بعد أن ملكوا هم مصادر الثروة ووضعوا أيديهم على معظم منتوجاتها، كان عليهم أن يقوموا بتوزيع هذه المنتوجات على الأسواق الداخلية والخارجية.. وفتحوا أعينهم على الواقع الطبيعي فوجدوا أن لا مناص من فرض ربح على هذه المنتوجات، وكانت الضرورة التي ألجأتهم إلى ذلك هي الضرورة نفسها التي كانت تلجئ التاجر وصاحب الأرض.

بل لقد كانت ضرورة القادة تدفعهم إلى ألا يقعوا من الربح بالقدر الذي كان يناله التجار سابقاً؛ وذلك بسبب تدني نسبة المنتوجات من جهة، والبحث عن أكبر كمية من العملة لصرفها على جيوش العمال والأجراء من جهة أخرى. وهذا ما جعلنا نجد قادة الشيوعيين يأخذون المنتوجات الزراعية من (الكولخوزات) بسعر رخيص يفرضونه فرضاً، ثم يعودون بها إلى السوق بسعر يربو على ضعف سعر الشراء في معظم الأحيان.

كذلك رأينا أن كارل ماركس استبدل بقانون (العرض والطلب) في تحديد الأسعار قانوناً اخترعه هو، وهو: (عدد الساعات التي يستلزمها الإنتاج). ولكن ما إن حاول خلفاء ماركس تطبيق قانونه هذا حتى اصطدم أفضع اصطدام مع القانون الطبيعي: (العرض والطلب) فقد رأوا أن لا فائدة من ربط سعر السلعة بالساعات التي استهلكها إنتاجها، إذ قد تكون غير مطلوبة من الناس فيزهدون فيها مهما كان زمن إنتاجها طويلاً وسعرها من ثم غالياً، وهكذا يفرض الواقع على تلك السلعة أن تصبح رخيصة بالضرورة.. كما أنه قد تكون تلك السلعة مطلوبة ومرغوباً فيها، تتسابق إليها الأيدي، حتى إذا تدانت نسبة عرضها في السوق بسبب الإقبال عليها كان ذلك سبباً ضرورياً للصعود بثمنها مهما كان زمان إنتاجها قصيراً، وكان سعرها المفروض بسبب ذلك زهيداً.

هذا ما جعل الحكومة الشيوعية تعود إلى نظام الأسعار الطبيعي، ولكن بعد أن خلطته خلطاً غريباً بنظرية ماركس حفظاً لهيبة النظام الشيوعي، إذ أدخلت في اعتبارها عند تحديد الأسعار قيمة تكاليف الإنتاج من ناحية، ودرجة الإقبال عليها من ناحية أخرى.

ورأينا كذلك قانون الشيوعيين الحاسم في القضاء على الطبقات، وربطهم جميعاً بمستوى معيشي واحد. ولكنهم اصطدموا - عندما حاولوا التطبيق - بقانون فطري أشد قوة وحزماً، لقد رأوا أن الناس كلهم لا يمكن أن يكونوا عمالاً في المصانع أو فلاحين في المزارع، وذلك بسبب اختلاف رغباتهم وقابلياتهم، بل بسبب أن البلاد نفسها تحتاج إلى آخرين يتفرغون لغير الفلاحة والعمل في المصانع، إنهم بحاجة إلى علماء يفكرون وإلى مهندسين يخططون وإلى ضباط وعسكريين يحمون الثغور، ولا ريب أن العالم أو الضابط أو الوزير لا يعقل أن يأخذ ما يأخذه العامل في المصنع ما دام دخل هذا الأخير لا يزيد على (500) روبل بعد خصم ضرائب الدولة والنقابات. وهكذا اضطرت الحكومة الشيوعية أن تعترف بالطبقات، بل أن تغذي الفروق الطبقيّة أكثر من معظم الدول الأخرى، وإن كانت لا تزال في كتبها وتعليماتها تأبى إلا أن تتجاهل ما اعترفت به. إذن فإن سبب عدم تطبيق المذهب الشيوعي ليس هو تساهل أصحابه أو عدم إخلاصهم له، ولكن السبب هو أنه مذهب يناقض الطبيعة البشرية التي تجري النظم الواقعية كلها في تياره وتسير على هديه.

ومعنى هذا أن عدم إمكانية تطبيق هذا المذهب عيب فيه هو وليس عيباً في الذين لم يتمكنوا من تطبيقه.

والسؤال الثاني الذي يرد على خاطر هو: ولكن كيف إذن يستطيع الاتحاد السوفييتي أن يرسخ قدمه في حقل الثروة المادية، وأن يفوق الدول الأخرى في الحقل العلمي والاستعدادات الحربية؟ أوليس ذلك كله نتاجاً للحركة الشيوعية ودليلاً على مدى نجاح وإصابة الاتحاد السوفييتي فيما سلكه إلى ذلك من سبيل؟

والجواب: إن ميزان النجاح والإخفاق في سعي دولة ما، ليس مجرد الأرقام التي تبرزها الحكومة في داخل صندوقها، أو الجهود الحربية التي تعبئها داخل معسكراتها؛ ولكن الميزان هو سعادة أبنائها في ذلك السعي أو عدم سعادتهم، إذ إن الدولة شعبٌ وأفراد قبل أن تكون حكومة وصندوقاً لها.

إن من السهولة بمكان أن تعتمد أي دولة ذات قوة وسلطان إلى شعبها، فتسخر أفرادها تحت عصا القسر والإكراه في شتى حقول الإنتاج لحسابها الخاص، وإذا بصندوقها يفيض بين عشية وضحاها

بالمال الوفير لا يكلفها ذلك إلا قدرة على البطش وقوة على الظلم. ولكن من الصعوبة بمكان أن تجمع الدولة بين توفير السلعة لشعبها وتوفير الغنى المادي لنفسها. إن ذلك يكلفها على أقل تقدير نظاماً يخدم بإخلاص كلاً من طرفي الشعب والدولة، وتفاهماً تاماً يشيع بين طبقتي القادة والرعايا من الشعب. وحينما تتغلب دولة ما على هذه الصعوبة وتحمل فوق كاهلها هذه التكاليف، فتلك هي الدولة التي تستطيع أن تقول عنها - في غير تحفظ - بأنها دولة ناجحة في سياستها الاقتصادية.

وهنا يجب أن نسأل عن الوسيلة التي بررها الاتحاد السوفييتي لغايته التي قد يكون وصل إلى بعضها. إن هذه الوسيلة إنما هي سحق أعصاب الأفراد وإحالتها إلى «تفل». أرادت الحكومة هناك أن تجد نفسها متباهية على العالم في عتاد الحرب، فحولت ثلاثة أرباع العمال إلى المصانع الحربية، ولم تبال في ذلك فقدان المنتجات الاستهلاكية للأفراد وشدة احتياجهم إليها.

وأرادت أن تملأ صندوقها بالثروة الطائلة، فلم تبال في ذلك أن تسخر كل الدماء من الشعب أجراً عندها ينالون أقل من خمس ما يقدمون وينتجون من ثروات وأتعاب، ثم تأخذ هي أربعة الأخماس فتطلق بعضه في الأسواق المحلية بأسعار باهظة جداً تضمن لها الربح الجسيم، وتحتكر الباقي لحسابها الخاص وثروتها الاستغلالية، وحسابها الخاص هذا إنما يصرف أخيراً على الترفن في اختراع أحدث ما يمكن اختراعه من وسائل الإبادة العالمية، كي ترفعه بعد ذلك عالياً يبرق للدول الأخرى بالتهديد والوعيد. وبعبارة أخرى: إنما تصرف كل تلك الثروة الطائلة في تكتيك (الحرب الباردة). وربح رعايا الدولة من وراء ذلك كله هو أن تشمر عن ساعدها من جديد لتتابع تقديم المنتجات الهائلة والثروات الطائلة، وحسبها سعادة من وراء ذلك أنها تتشرف بأن تكون رعايا لدولة كبرى تنتج القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة!!

فهل يسمى هذا: نجاح شعب، أم هو امتصاص أفراد من الحكام لثروة ذلك الشعب؟ وما قصرت أسباب السعي بدول أخرى عن اللحاق بالاتحاد السوفييتي لأنها عجزت عن سلوك مثل ذلك السبيل، ولكن لأنها لم تجد المبرر إلى إماتة الأفراد وسوقهم إلى ذلك الموت بالعصي. أفلم تكن حكومتنا نحن، وهي دولة صغيرة، تستطيع أن تضرب رقماً قياسيًّا في ثروتها الاستغلالية وصنع وسائل الموت لو أرادت أن تسلك السبيل نفسه! ولكننا نعلم أن الشعوب كريمة على نفسها، وإنما وجدت حكوماتها لتحمي لها تلك الكرامة لا لتلوّكها بين ماضغيها كي تزداد بها ترهلاً وسمناً.

والسؤال الثالث هو: فلماذا إذن يمعن الاتحاد السوفييتي في الدعوة إلى الشيوعية ونعيمها، ويظل متحمساً للدفاع عنها، ما دام أنه لم يستطع تطبيق أي أساس من أسسه؟ وهلا أعلنت إخفاق هذا المبدأ بوصفها أول دولة قامت بتجربته ومحاولة تطبيقه؟

والجواب أن المبدأ الشيوعي ربما كان يهدف في أول عهده إلى غاية اقتصادية واجتماعية فحسب، إذ لم يكن يخطر ببال أوائل مفكريه إلا أن يسود النظام الشيوعي في معظم أقطار العالم ملجأً يأوي إليه المستضعفون تحت وطأة الإقطاع دون أن يكون لذلك أي علاقة بأي نوع من الفتح والاستيلاء السياسي في أذهانهم.

ولكنه اليوم لا يهدف إلى ذلك بمقدار ما يهدف به أصحابه إلى الاستيلاء العسكري والسياسي على أكبر رقعة من منطقة هذا العالم، أو ربطها بزمام التبعية لها على أقل تقدير.

ولئن كان النظام الشيوعي قد أخفق في تحقيق حلم الأوائل من مفكريه، فإنه لم يخفق في تحقيق حلم خلفائهم اليوم. أي إنه أخفق في تحقيق غاية السعادة المادية التي خلق من أجلها، ولكن ذلك الإخفاق لم يمنع أربابه من أن يستخدموه لغاية أخرى، كي يجبر لهم الخسارة على أقل تقدير.

ولقد نجحوا - إلى حد كبير - في السعي نحو هذه الغاية الثانية، بأن سترُوا إخفاقه - على أنه نظام مادي مسعد - عندهم بسور حديدي محكم في براعة، ثم انطلقوا ذات اليمين وذات الشمال يدعون أن: هلموا إلى الفردوس، هلموا إلى السعادة المنشودة، سعادة الفرد والأسرة والمجتمع، مستغلين في ذلك حقد الطبقة الفقيرة الكادحة على المنتفعين بشقائهم من أولئك الإقطاعيين والرأسماليين الذين لا همَّ لهم سوى التربع على عرش من جهودهم وعرق جباههم؟ وسرعان ما تفعل هذه الدعاية مفعولها السحري العظيم في أفئدة المساكين فينقادون إلى توجيهاتها متجمهرين بدافع التجربة أو رغبة التلوين من طعم المحنة على أقل تقدير، وذلك حينما يقبل إليهم من ينصحبهم ويحذرهم، حتى إذا نجحت الثورة وساد الحكم الشيوعي فيما بينهم بادر الستار الحديدي فانفلق ليتسع وينغلق عليهم. ومع انغلاق الستار يفتحون أعينهم لينتبهوا إلى أن حقيقة الفردوس ليست إلا أن تتسع الجمهوريات الاتحادية، وتمتد أيدي قادة الشيوعيين بالسيطرة إلى معظم خارطة هذا العالم [36]. وسواء نجح القادة بعد ذلك في تحقيق السعادة الشيوعية أم لم ينجحوا، فحسبهم على كلِّ أنهم قد وسعوا من رقعة معسكرهم وزادوا من خارطة فتوحاتهم، ومن ثم ضاعفوا من قوة تهديداتهم لأولئك الآخرين.

وإذن فلماذا يكشفون عن أوراقهم ويحطمون دعايتهم، وقد أمكن للمبدأ الماركسي أن ينقلب في أيديهم إلى سلاح للاستيلاء والفتح، بعد أن عَجَزَ عن أن يكون محرثاً لفلح الأرض وإنتاجها؟ يدلُّ جميع ما قلناه إلى الآن على أن المذهب الشيوعي لم يصلح للتطبيق في بلاد الشيوعيين أنفسهم، ومن باب أولى ألا يصلح هذا المذهب للتطبيق إذن في بلادنا نحن، لا لأننا لا نرتضي التطور والاستفادة من خبرات الآخرين؛ بل لأن بلادنا هذه مرت بنظم اقتصادية كانت طوال قرون عديدة نموذجاً رائعاً للنظام الواقعي المتجاوب مع الفطرة البشرية والعدالة الاجتماعية في آن واحد. فلماذا لا نعود إلى النظام المجرب الذي سعدت به أجيال عدّة عبر تاريخنا العربي بدلاً من أن نعد فنحرب النظام الذي سجّل إخفاقه وشقاء مجربيه بسببه؟

النظام الإسلامي

- 1- تمهيد
- 2- أساسه
- 3- فروع

1- تمهيد

والسؤال الذي يرد الآن هو: ولكن أي نظام اقتصادي نتبع إذن، وما البناء الذي ينبغي أن نشيده على أنقاض هذا التهديم الذي فرغنا منه؟ إن النظم الاقتصادية السائدة في العالم اليوم هي نظامان فقط، أحدهما هذا الذي فرغنا الآن من تهديمه، والثاني هو النظام الرأسمالي، أو نظام التجارة الحرة. فهل يعني الكلام الذي قلناه أن نستغني بالنظام الثاني عن الأول؟

والجواب: أن الحديث الذي حدثناه لا يعني بحال من الأحوال أن النظام الرأسمالي خير من الشيوعية. فالنظام الرأسمالي لا شك في أنه داء.. داء أليم خبيث، ولكن هل يمكن أن تكون الشيوعية دواءه الناجع؟ هذا ما دار حديثنا حوله؛ وقد تبين لنا أخيراً أنه ليس دواء، وإنما هو السم الذي يقضي على الداء وصاحبه.

علينا إذن أن نتجاوز الشيوعية، ونسرع في البحث عن دواء آخر ينقذنا من مصيبة الرأسمالية ويورثنا الحياة الكريمة الهنيئة.

ولا داعي أبداً إلى أن نحس نظراً على المذهبين: الشيوعي والرأسمالي، لنقول إنه لا مندوحة لنا عن اختيار أحدهما، فإما هذا وإما ذاك. فقد جاء فيما مضى حين لم يكن سائداً فيه سوى النظام الرأسمالي الذي كان مترعباً فوق صعيد هذا العالم بأسره، ومع ذلك قام من تجاهل وحدانية هذا النظام، وراح يبحث عن نظام آخر يمكن أن يسود عليه، حتى استخرج مبادئ الشيوعية ثم ألف بينها وتركها تزاحم منكب النظام القديم وتضايقه في كثير من الأقطار والبلدان. واليوم - وقد تجلّى للعيان خطر كل من الداء ودوائه المزعوم - ما الذي يمنعنا من التفكير في مخلص يحميننا من شرّ كلّ منهما؟

ولا حاجة إلى أن يطول بنا التفكير.. ولا حاجة إلى أن نرهق عقولنا في محاولة اختراع جديد، كما فعل الآخرون.

ففي تراثنا الخالد ما يوفر لنا قسطاً كبيراً من الراحة في هذا الصدد فهو لا يحوجنا إلى غير البحث والدرس ثم التجربة.

ثم نحن شعب مسلم، ومعنى ذلك هو أننا اخترنا الإسلام ديناً لنا بمحض إرادتنا واختيارنا. وفي الإسلام نظام اقتصادي لم يضعه بشر من الناس، ولا جماعة من حزب، ولا مغرض متحيز ينشد لنفسه المصلحة. وإنما شرعه فاطر هذا الكون، ووضعته ذاك الذي خلق عقول المفكرين. وهو لم يشرع لنا نظاماً دنيوياً فحسب، وإنما تعبدنا به لوناً من ألوان العبادة التي فرضها علينا أيضاً.

إذن فثم أكثر من دافع يحملنا على أن نقبل على هذا النظام الذي ليس هو بشرقي ولا غربي، فندرسه أحسن ما تكون الدراسة، ونتفهمه بعقل متحرر عن هوى التبعية والتشهي؛ حتى إذا رأينا فيه الخلاص من وباء الرأسمالية وسموم الشيوعية لم نتردد في الالتجاء إليه والتمسك به، والدعوة إلى تطبيقه في مجتمعنا تطبيقاً تاماً.

وأحب أن أزيد كلامي هذا وضوحاً فأقول:

ليس معنى ذلك أنني أهيب بجمهرة هؤلاء الشبان الذين ندّوا عن الإسلام ورغبوا في الابتعاد عنه، أن يحملوا أنفسهم على قبول حكم الإسلام في باب الاقتصاد، وأن يجبروا أفكارهم على التسليم بما فيه. إنما أرجو منهم - فقط - أن يستعملوا عقولهم في تقليب النظام الإسلامي على وجوهه، وفي التدقيق بموادّه وجزئياته، كما يدقّقون ويبحثون - على أقل تقدير - في أي نظام اقتصادي آخر

يخرج به علينا حزب من الأحزاب، أو ينادي به مفكر (لامع) من المفكرين، ثم نطلب منهم إذا ظهر لهم في جوانبه الحق، نطلب منهم شيئاً واحداً فقط، وهو أن يسعهم الاعتراف بذلك الحق كما يسعهم الاعتراف - بله الإشادة - بما ظهر لهم من صورة الحق في النظم الأخرى.

نطلب منهم إذا قيل لهم: هذا كتاب يتحدث عن الفكر الإسلامي حيال المال، أو هو يوضح حكم الإسلام في كيفية بناء المجتمع السعيد، نطلب منهم إذا قيل لهم ذلك ألا يشيحوا بوجوههم عن الكتاب قبل أن يقرؤوا عنوانه، ونطلب منهم - وهم المسلمون - ألا يضربوا بأيديهم على أعينهم كي يكرهوها على الغمض حتى لا ترى من ذلك الكتاب الإسلامي ما قد يفسد عليهم أسبقياتهم.. فَعَلَّ من جعلوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكباراً على سماع الحق، ما دام أن الذي ينطق به قد اتخذوه عدواً لهم.

وإن تعجب، فواعجباً لمسلم اتخذ من الإسلام عدواً له، يهرب من الحق إذا جاء من عنده، ويرفض النظام إذا كان من تشريعه.

والآن، وأنا بصدد البحث عن النظام الاقتصادي في حكم الإسلام بعد أن فرغت من الحديث عنه في حكم الشيوعية ونظرها، أطلب إلى هؤلاء أن ينصتوا إلي بفكر حرّ، وعقل مطلق؛ وأن ينسوا ولو إلى حين من الوقت دوافع الأهواء والشهوات في نفوسهم. وأنا أطالب نفسي في مقابل ذلك بأن أجعل رائدي في البحث، المنطق السليم المتحرر عن أي عاطفة أو تحيز أو مغالطة.

وسنجد أن في الإسلام نفسه أرحب صدر لهذا المسلك في الدراسة والبحث، عندما نتذكر في هذا الصدد قول رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام: «الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أولى بها».

2- أساس النظام الإسلامي

تنبثق أنظمة الشريعة الإسلامية على اختلاف فروعها من وحي الفطرة الأصيلة في الإنسان، بمعنى أن دوافع الفطرة ومقتضياتها هي التي تضع الخطوط العريضة لها.

وهذا أخص ما يميز الشريعة الإسلامية من غيرها من الشرائع، ومصادر التشريع الإسلامي نفسها حينما نتحدث عن خصائصه، تعتبر أهم خصوصية له من بينها، كونه منطبعاً بطابع الفطرة الإنسانية ومتناسقاً معها التناسق التام. يقول الله تعالى في سورة الروم: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *} [الروم: 30/30]. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه..» ويؤكد هذا المعنى في حديث آخر له فيقول في حديث قدسي:

«.. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم [37] عن دينهم».

ولعل سائلاً يقول: فما الحاجة إلى تشريع من السماء منزل، ما دام أنه يترسوم وحي الطبيعة. والفطرة الإنسانية؟ ولماذا لم يكتف الإسلام من كل تشريعه هذا بكلمتين، هما: حَكِّمُوا الفطرة في كل أمر؟

والجواب أن نوازع الفطرة - ككل ناشئ من الأناسي والحيوان والنبات - تحتاج إلى مربٍّ وموجه يجعل هذه النوازع تنشأ نشأة سوية غير ملتوية على نفسها وغيرها. وهذا ما يقوم به الإسلام حيال دوافع الفطرة.

فالشريعة الإسلامية - في أي حكم من أحكامها - لا تكبت فطرة أو تخنق طبيعة، وإنما تضع لها القوالب التي تضمن لها النمو المستقيم، في الوقت الذي تضرب حولها سياجاً من الحفاظ لها أيضاً، يقيها من كل شرعة أو قانون أو حتى دين يحاول خنقها أو النيل منها.

فمثلاً: جاء الإسلام حرباً على أولئك الذين كانوا يقصدون شرعة الرهبانية والتبتل، وأعلن

مشرّع [38] الإسلام قائلاً: «.. أما أنا فأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» ولكنه في الوقت نفسه صبَّ شؤون الجنس وعلاقة ما بين الرجل والمرأة في قالب منظم يتناسق مع المجتمع المثالي المتمدين الذي هو في سبيل إنشائه.

ونظام الإسلام أعلن أيضاً إنكاره للمتزهدين الذين أغلقوا باب السعي والعمل دون نفوسهم، مفضلين أن يروضوها على سحق فطرة المشي في مناكب الأرض ابتغاء الرزق، وجعل هذا السعي الذي كان يعتبره أناس سيئة يحول دون فضيلة التزهد وسحق الفطرة الإنسانية، جعله من أسمى ألوان العبادة، ودفع الناس إليه دفعاً. فلقد مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه على رجل يضرب بفأس له وقد ناله التعب، فقال له أحد أصحابه: أما كان أفضل لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إن كان يسعى لأبوين شيخين فهو في سبيل الله، أو كان يسعى لزوجته وأولاده الصغار فهو في سبيل الله، أو كان يسعى ليكاثر به الناس فهو في سبيل الشيطان». ولكن نظام الإسلام في الوقت ذاته أيضاً يصب شؤون العمل الدنيوي والعلاقة المالية ما بين الناس في قالب ينظم ويقوم غريزة الارتزاق بحيث يتلاءم هو أيضاً مع المجتمع الإسلامي الذي هو بصدد إنشائه.

إن الإسلام ينظر إلى الفطرة الكامنة في نفس الإنسان كما لو كانت مصباحاً يضيء في غرفة بليل، فإن أطفأه انقلب المكان كله إلى ظلمة موحشة، وإن ذهبت تَمَدُّ له من الفتيل والزيت احترق السراج وأحرق كل ما حوله. ولكن الملائم هو أن تعتدل في الأمر، ثم أن تلبس لسان المصباح المشتعل قالباً زجاجياً يصفي نوره ويقيه من العواصف المطفئة والمحركة [39].

والأساس الأول للفرع الاقتصادي من نظام الشريعة الإسلامية يضعنا أمام نموذج آخر يوضح لنا مدى تقديس الإسلام للفطرة البشرية والعمل على تحقيق رغائبها مع العمل في الوقت نفسه على ترقية هذه الرغائب وتنشئتها نشأة سوية متلائمة مع المجتمع المثالي.

فأساس النظام الاقتصادي هو: (تقديس حق الملكية الفردية، مع ضمان العدالة الاجتماعية). إنه أساس يتكون من فقرتين؛ أما أولاهما فتتمثل تلبيبة نوازع الفطرة الطبيعية البشرية العامة، وأما أخراهما فتتمثل جانب العمل التربوي لهذه الفطرة.

أولاهما تحقيق للدوافع الفطرية في الإنسان، وذلك لأن دافع التملك في النفس يعتبر من أهم الدوافع النفسية الأصلية فيها. ولا يكاد يوجد بين علماء النفس في هذا أي خلاف. وأكبر دليل لذلك هو أن المولود الصغير لا يكاد يستدبر عن أشهر من عمره حتى تتفتح لديه طبيعة حب تحيز الأشياء والاستيلاء عليها، فإذا أصبح طفلاً يمشي وجدته يملأ جيوبه بهنات وتوافه مختلفة، يفاخر بها أقرانه، حتى إذا شبَّ عن الطوق وبدأ عقله بالنضج تحولت رغبته عن تلك الهنات والثرهات إلى الدراهم والتمتولات المفيدة. وهي في كل أطوارها تلك ليست وسيلة إلى غاية سواها كالطعام والشراب مثلاً؛ وإنما هي - أي الرغبة في التملك - طبيعة مستقلة بنفسها عن أي غاية من ورائها. فلو أن إنساناً توافر لديه المطعم والمشرب والملبس والمأوى، ثم لم تشعر نفسه أنها تملك شيئاً تسيطر عليه وتستطيع التصرف به، فإنه يظل متعطشاً غاية التعطش إلى هذا الذي لم تشعر نفسه بامتلاكه، وإن من الطبيعي أن يشقى هذا المسكين بتعطشه هذا أيما شقاء.

والمدهش أن الإسلام أيضاً راعى هذه الطبيعة على هذا النحو. فهو حينما قدس حق الملكية الفردية لم يقدها ويدافع عنها كي توصل صاحبها إلى غذائه وكسائه ومأواه، وإنما جعل هذه الملكية من حقه لمجرد إشباع غريزته وفطرته بقطع النظر عن كل شيء.

ويتجلى هذا القصد من النظام الإسلامي بوضوح تام في النموذج الصغير للمجتمع وهو الأسرة. فمن المعروف أن الرجل حينما يتزوج يتعلق بذمته كل أنواع الإنفاق لزوجته، من طعام وشراب وكساء ومأوى مناسب، بل وخادم إذا كان وضعها يدعو إلى ذلك. ومعنى ذلك أن الزوجة يجب أن تكون مكفية المؤونة والنفقات بأسرها. ولكن الإسلام - مع ذلك - أوجب مهراً يدفعه الزوج لها، هذا المهر إنما تملكه هي وحدها ويستقر تحت كامل تصرفها وتملك كامل الحرية في اختيار أوجه الاستفادة منه.

فما الحكمة في ذلك؟! ما الحكمة في أن يفرض على الزوج لزوجته مالاً يضعه في جيبها، ثم نطالبه باسم الإسلام من جديد بكل ما تحتاج إليه من مال؟

الحكمة هي أن الإنفاق قد يسدّ العوز والحاجة أمام الزوجة، ولكنه لا يشبع الغريزة الإنسانية المعترزة، المستقرة في أعماق نفسها. هذه الغريزة إنما يشبعها المهر، المهر الذي يشعرها بأنها تملك مالاً، وأن لديها وحدها حرية التصرف فيه: تتاجر به أو تحتفظ به أو تبتاع به حلياً أو أرضاً أو إلخ..

ولقد شدد الإسلام لهذا السبب في شأن المهر، حتى إن عقد النكاح لا يتم إلا بمهر، وإذا لم يعين المهر في العقد ولم يتحدث عنه أحد الطرفين فإن الشريعة الإسلامية تفرض على الزوج عند دخوله بالزوجة أن يعطيها (مهر مثل) أي حسب عادة البلدة مع ملاحظة مثل زوجته في مميزاتها، ويتولى تقدير ذلك القاضي.

وهكذا يتبين لنا بجلاء أن الشريعة الإسلامية تحمي ملكية الفرد وترعاها بسبب أنها نزعة فطرية، والإسلام جاء يشدّ من أزر الفطرة ويحترم رغائبها. والشريعة الإسلامية تعمل أيضاً على التوفيق بين ملكية الفرد للمال وسير العدالة الاجتماعية بين المجموع، بسبب أنها جاءت لتعبد الطريق وتنظمه أمام دواعي الفطرة كي لا تنبث متفرقة في متاهات صحرائية لا تجني منها إلا الاضطراب والشقاء.

وسنستعرض فيما يلي هذا الطريق الذي عبده الإسلام أمام حاجات الفرد، وسنحاول أن نتبصر بدقة مميزات هذا الطريق ومدى اتساعه أو ضيقه أمام الحاجات الاقتصادية للفرد والمجموع في هذه الحياة، وسنعمل أفكارنا - متحررة - في فهم مدى أحقية هذا الطريق وفي اكتشاف ما قد يكون من نقص أو إهمال في بعض جوانبه إن كان ثمة شيء من ذلك.

وما دمنا أطلقنا على بحثنا هذا الذي فرغنا منه اسم: (أساس النظام الاقتصادي في الإسلام) فلنطلق على الطريقة التي جرى بها تطبيق هذا الأساس اسم: (فروع النظام الاقتصادي في الإسلام).

وبوسعنا أن نجمل الحديث عن هذه الفروع فيما يلي:

1- الملكية الخاصة والملكية العامة.

2- وسائل الملكية الخاصة.

3- الحدّ الزمني للملكية الخاصة.

4- نظام التصرف بالأموال.

5- مدى سلطة الدولة على الأملاك الخاصة.

1 - الملكية الخاصة والعامة

قلنا إن الإسلام يقرر حق الملكية الخاصة بل يحميها ويقدها. ولكننا قلنا أيضاً إن الإسلام ينظم السبل المتكفلة بتحقيق العدالة الاجتماعية. وهذا يعني أن للإسلام يداً منظّمة تمتد إلى (الملكية الخاصة) بالتقويم والتنظيم، إلى جانب يده الأخرى التي تمتد إليها بالحماية والتفديس. ووجهة الإسلام في تنظيم الملكية بكلا قسميها تتلخص في أن الأموال تنقسم من حيث الأساس إلى مرافق عامة ومرافق خاصة. ويُعنى بالمرافق العامة كل ما لم تدخله يد الصنعة البشرية في إيجاده الأساسي كالماء والكأ والأحراش والبتروال. ويعنى بالمرافق الخاصة تلك القيم المالية التي تدخلت الأيدي الصانعة في إيجادها وجعلها مالا، مثل المزروعات والمنسوجات وما شاكلها.

فأما المرافق العامة، فليس للأيدي الخاصة أن تمتد بالملكية والسلطان الفردي عليها، والتعليل الطبيعي لهذا واضح، فاستيلاء يد خاصة على ثروة مالية أنعمت بها الطبيعة ولم يكن لأي يد بشرية فضل إيجادها؛ هذا الاستيلاء إنما يعني أفضلية المستولي على غيره بسبب من الأسباب المرجحة، مع أنه لا يوجد ثم أي سبب يجعل فرداً من الناس أولى من الآخر بتملك ثروة مالية لم يكن لأحد منهم فضل إيجادها وخلقها.

ومستند هذا الحكم أحاديث كثيرة صحت عن الرسول صلى الله عليه وسلم. منها قوله: «الناس شركاء في ثلاثة: الماء والكأ والنار» ومنها ما رواه أبو داود أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله ما الشيء الذي لا يجوز منعه؟» **قال:** الماء. **قال:** وماذا أيضاً؟ **قال:** الكأ، **قال:** وماذا أيضاً؟ **قال:** الملح». ومنها ما رواه جابر رضي الله عنه **قال:** نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع فضل الماء.

فجملة هذه الأحاديث تمنع الملكية الخاصة عن أربعة أشياء: الماء والكأ والنار والملح. والمراد بالنار في الحديث كل ما أوقد النار، وليس النار بخصوصه، فيدخل فيه الحطب والبتروال وما شاكلهما [40]، والحديث على هذا يعتبر من جوامع الكلم التي اختص بها الرسول عليه الصلاة والسلام.

غير أن أحاديث هذا الباب على اختلافها تدلّ كما نص الشراح على أن المقصود بالحكم ليس هذه الأربعة فحسب؛ وإنما هي نماذج تمثيلية لجميع الثروات الكامنة في باطن الأرض أو الموجودة على ظاهرها. وحكمها جميعاً واحد وهو أنها مشاع للجميع لا يجوز لأحد أن يحتازها شيئاً منها للتجارة أو الاستثمار بل لا يجوز بيع ما فضل عن حاجة المحتاج إلى شيء منها. ويتحدث الفقهاء عما لو وجد ماء عام في بستان رجل، فأقبل الناس يريدون الاستفادة من ذلك الماء، واقتضى ذلك أن يجتازوا أرض الرجل ويمروا عليها، هل يجوز لهم ذلك؟ وهل عليهم أن يستأذنوا صاحب البستان في العبور؟ ويجمع معظمهم على أنه يجوز عبور الأرض ولا حاجة إلى الاستئذان إذ لا فائدة منه لأنه ليس لصاحب الأرض منعهم من الدخول، بل يجب عليه تمكينهم ويحرم المنع، لأن في أرضه مالا هو ملك مشاعي للناس، والطريق إلى هذا المال ليس بيتاً مسكوناً حتى تقوم الموانع في سبيل الوصول إليه. وهذا ما يدل عليه بصراحة قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ} [النور: 24/29].

وما دامت هذه الأنواع المالية الأربعة محكوم بمشاعيتها بموجب نص الحديث، والأنواع الأخرى التي تشابهها كذلك بموجب القياس الجلي، فإن للدولة أن تتخذ الإجراءات المنظمة لمشاعية

واشترابية مثل هذه الثروات. بل يجب عليها أن تقوم بذلك حينما تتسابق الأيدي لفرض سيطرتها على أكبر مقدار ممكن من تلك الثروات.

بل إن الحاكم ليعتبر عاصياً وظالماً إذا احتجر معدناً أو نفطاً أو أحرشاً أو ما شاكل ذلك لمصلحة نفسه أو مصلحة فرد من الناس. وينص الإمام الشافعي على هذا في كتابه الأم قائلاً: (.. ومثل هذا كل عين ظاهرة كنفت وقارٍ (زفت) أو كبريت أو مومياء أو حجارة ظاهرة في غير ملك لأحد؛ فليس لأحد أن يتحجرها دون غيره، ولا لسلطان أن يمنعها لنفسه ولا لخاص من الناس، لأن هذا كله ظاهر كالماء والكأ.. ولو تحجر رجل لنفسه من هذا شيئاً أو منعه له سلطان (أي احتجره له سلطان) كان ظالماً[41].

وهذا يعني أن خير طريقة لتطبيق مشاعية واشترابية مثل هذه الثروات هي أن تصرفها الدولة في مصالح الأمة بأسرها، على ألا تتفاوت حظوظ الناس في ذلك تبعاً لهوى الدولة أو لقرب بعض الأفراد منها، وعلى ألا تقوم الدولة هي نفسها بدور المحتكر المحتجر لها، كما نص الشافعي على ذلك.

أما المرافق الخاصة ، وهي تلك الأموال التي أوجدتها - أو أوجدت القيمة المالية لها - الأيدي الصانعة، كالمزروعات والمنسوجات والمصنوعات، وكالألبان ومشتقاتها[42]، وما شاكل ذلك؛ فيجوز للملكيات الخاصة أن تتداولها؛ وليس ذلك فحسب، بل الإسلام يحمي تلك الملكيات ويرعاها. وحكمة ذلك واضحة، وهي أن مثل هذه الثروات إنما أصبحت شيئاً ذا قيمة يقال له ثروة بسبب جهود الأيدي التي قامت بزرعها، أو نسجها، أو صنعها.. ومن الظلم البين أن نسائي بين هذه الأيدي التي تعبت وكُلت وبين أيد أخرى لم تتعب بها ولم تكلّ، في حق امتلاك تلك الثروات والسيطرة عليها. بل إن من الظلم أن يتساوى سلطان الجميع عليها بينما تتفاوت أتعابهم في سبيل إنشائها وصنعها.

فالوضع الفطري، يقتضي أن تناط ملكية هذه الأموال بمدى التعب والجهد المبذول في تحضيرها. فمن نشط في السعي ولم ييخل في بذل الجهد فله أن يحوز كل ما قدمته له أتعابه، بالغاً من الكثرة ما بلغ، ومن قعد به الكسل واثقل به الخمول، فلا عليه أن يقنع بالكسر والبقايا متقياً بها الهلاك[43].

والنتيجة الفطرية لهذا الوضع الفطري هي أن ينشط في النفوس دافع التسابق، وتنقدح فيها عوامل الجد والسعي، وأن تدافع الحركات الاقتصادية بعضها بعضاً إلى التقدم والرقى. غير أن الناس لا يتنزهون - وهم في غمرة هذا التسابق والتدافع - عن أن يلجؤوا إلى سبل الغش والمكر والخداع بعضهم لبعض، بغية إيجاد فرص أكثر، تضمن لهم قصب السبق والنجاح المتفوق. ومعنى هذا أن العواصف النفسية تبدأ عملها حينئذ في إفساد الفطرة البشرية وفي محاولة تحويلها عن خطها المستقيم. ونعني بالفطرة البشرية نزعة التملك والسيطرة كما ذكرنا. ولكن الشريعة الإسلامية أيضاً تبدأ حينئذ عملها، فتحمي الفطرة البشرية من عواصف الطمع والجشع والمكر. وتنشأ أمامها سببلاً من القوانين والمبادئ الحاسمة، يضمن لها الاستقامة وعدم الالتواء؛ كما يضمن وجود الانسجام التام بينها وبين العدالة الاجتماعية العامة.

وهذه القوانين هي ما سنبدأ بدراسته في الفصول التالية.

2 - وسائل الملكية الخاصة

أهم وسائل الامتلاك الفردي في المجتمعات الرأسمالية، محصورة في سبيلين اثنين: التجارة بأنواعها، والأعمال اليدوية بفروعها من صناعة وفلاحة.

ولأصحاب السبيل الأول هناك، حرية في السعي التجاري، وإنما تناط شرعيتها بمدى اتساع رأس مالهم أو ضيقه. فكلما علت نسبة أرباح أحدهم وازداد غناه، وجد السبيل القانوني إلى امتلاك حريته أكثر، وكلما تدانى به الربح وقلّ غناه كان أبعد عن القانون الذي يحمي له حريته المطلقة. وبسبب هذا، فإن تيار الحرية التجارية هناك، يطغى في معظم الأحيان على الوسائل الاكتسابية الأخرى، ويشل حركة اليد العاملة، ثم يسيرها أمامه كما لو كانت ورقة يتقاذفها العباب.

وفي النظام الإسلامي، توجد خمس وسائل شرعية للامتلاك الفردي إحداها التجارة التي تعتمد على رأس المال، ويقابلها أربع وسائل أخرى، كلها شرعت للوقوف في وجه طغيان رأس المال التجاري. وهي: العمل اليدوي من صناعة وفلاحة، والميراث، وإحياء الموات، والزكاة. ولم يكتف بهذا السدّ أمام طغيان رأس المال، بل احتاط في الأمر فحدّ من حرية التجارة ووضع لها القيود الكثيرة التي سنتحدث عنها في بحث: (نظام التصرف بالأموال).

ولو أن الإسلام لم يقابل التجارة إلا بوسيلة العمل اليدوي للاقى النظام الإسلامي ما لاقاه النظام الرأسمالي من طغيان التجارة على ما عداها، ولكن كلاً من نظام الميراث ونظام إحياء الموات وضريبة الزكاة يشدّ من أزر الوسيلة الأخرى في وجه التجارة، ويأوي بها إلى ركن قويّ متين. ولا يتوهم قارئ أنّ نظام الميراث من خصوصيات الشريعة الإسلامية، وأنه إن كان وسيلة من وسائل الامتلاك الفردي في النظام الإسلامي فهو كذلك في المجتمع الرأسمالي؛ لا يتوهم القارئ ذلك، لأن ما يسمى بالميراث في أمم الغرب إنما هو مظهر لامتداد ملكية الميت للمال الذي خلفه من ورائه. فمن المعلوم أن الميراث يظلّ متعلقاً من ناحية الملكية بالميت حتى بعد وفاته في نظرهم وقوانينهم، ولئن كان من غير الممكن أن يظل المال في جيبه بعد موته أيضاً، فإنهم يستعوضون عن ذلك بوضعه في جيب أي شخص يوصي له الميت بماله. فإن فات الميت أن يوصي، كان المال من حق أقرب الناس صلة به؛ وأوثق الناس صلة بالميت هو بكره، فالمال الموروث هو إذن من حق بكر الميت أو من حق أي شخص من الناس أوصي له به. ولا شك أن نظاماً كهذا لا يعتبر سبيلاً للاكتساب والامتلاك الفردي، وإنما هو كما قلنا مظهر لامتداد ملكية الميت حتى بعد وفاته.

وسنحاول الآن أن نتعرف على كلّ من نظام الميراث وإحياء الموات وضريبة الزكاة، لنكون أقرب إلى لمس ما قلناه عن حكمة تنوع وسائل الامتلاك الفردي إلى خمسة أنواع.

نظام الميراث:

يهدف الإسلام من وراء هذا النظام إلى توزيع الثروة التي تركها الميت مكنوزة أو متراكمة في صندوقه، بين أكثر مقدار ممكن من الأيدي المتداولة، لكي لا يتمكن التفاقم الطبقي والرأسمالي من السير في خط محفوظ دائم عبر الأجيال.

وتتفاوت الأنصباء التي ينقسم إليها الميراث طبق نظام رائع الدقة، حسب اختلاف قرب الوارثين من الميت. وتتسع دائرة هذا التوزيع ما اتسعت حلقة هذه القرابة. فهذا النظام الجائئ من وراء سعي التاجر الطامع والرأسمالي المكتنز، لا يدع أية فرصة طويلة لأي تراكم مالي في يد واحدة. ولئن خطا ذلك بعض خطوات، فسرعان ما يتلقاه هذا القانون في طريقه فيبعثر المال المتراكم، بين الأيدي المختلفة الكثيرة.

ولضمان أن يطبق هذا النظام على أتم وجه، يمنع الإسلام أن يوصي الرجل بمال لأحد ورثته، لأن ذلك قد يتخذ ذريعة لحماية الثروة عن التفتيت والتقسيم، ولأن ما يوصي به من مال لأحد ورثته إنما هو معدود من حق كل فرد من أفراد الورثة، وليس له بحال من الأحوال أن يتصرف بحقهم إلا إذا حصل على رضاهم جميعاً. كما أن المريض الذي ضعف الأمل في شفائه لا يجوز له أن يتصرف بأكثر من الثلث من ماله؛ وذلك لكي لا يبعثر المريض مال الورثة في وقت يغلب أن يكون الإنسان فيه زاهداً في المال، بل حريصاً على تفريقه على الصدقات والمبرات والوصايا.

وبصدد هذين الحكمين يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا وصية لوارث». ويقول لأحد الصحابة في أثناء مرضه - وهو سعد رضي الله عنه - بعد أن سأله بكم يوصي من ماله للفقراء، قال له: «الثلث، والثلث كثير، إنك لأن تدع أولادك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكفون وجوه الناس».

إحياء الموات:

ويقصد بالموات الأراضي غير المزروعة أو غير المستصلحة، والتي لم تتعلق بها ملكية خاصة. ونظام إحياء الموات إنما أعد لتنظيم ملكية الأراضي بالخصوص. وسبب ذلك كما قلنا في فصل سابق أن الأرض تختلف عن المرافق الخاصة التي دخلتها يد الصنعة ببعض الوجوه، فكان ذلك مقتضياً أن يكون لامتلاكها نظم تشبه سبل امتلاك المرافق العامة من بعض النواحي.

ولقد قلنا في تعليق مضى إن الأرض لا تعتبر بحد ذاتها ثروة في حقيقة الأمر، وإنما هي واسطة إلى الثروة التي هي الزروع والحبوب.. ولكنها لا تعد أيضاً في الأموال التي دخلتها يد الصنعة؛ لأنها شيء طبيعي موجود قبل أن يوجد فوقها الأشخاص وأعمالهم. فكان لا بد أن يكون لملكيتها نظام خاص يلائم وضعها الذي هي عليه.

وخلاصة هذا النظام الخاص أن الأراضي تنقسم إلى عامرة وموات، فالعامرة هي تلك الأراضي التي استصلحت بواسطة زراعة أو غرس أو بناء، عن طريق تملك صحيح مشروع. أما الموات، فكل ما بقي على حاله دون استصلاح بأحد الأوجه الثلاثة، سواء كانت طليقة عن أي يد مسيطرة أو مالكة، أم كانت تنسب لملكيتها إلى حي أو قبيلة أو فرد.

فهذا النوع الثاني من الأراضي يشبه في حكمه تلك الأموال التي أطلقنا عليها اسم: المرافق الطبيعية العامة، بمعنى أن تلك الأراضي لها ملكية مشاعية للمجموع، وعلى الدولة أن توزعها بين القادرين على استصلاحها وتشغيلها. وفي حالة امتناع الدولة عن التوزيع، فإن للأفراد أن يفتتقوا لأنفسهم ما يقدرّون على استصلاحه بوجه ما، كل حسب طاقته، ولا حاجة لإذن الدولة في ذلك ما دام أنها تصرّ على منع توزيعه للرعايا المستحقين^[44].

ودليل هذا من السنة قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه سعيد بن زيد: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له»^[45]، وحديث عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم **قال:**

«من عمّر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها»^[46].

أما الدليل على أنه لا فرق بين أن تكون تلك الأرض الموات خالية عن نسبة ملكية أو منسوبة إلى أي قبيلة أو أي فئة أو حي؛ أما الدليل على ذلك فهو كما ذكر الشافعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة أقطع الناس أراضي لجعلها دوراً، فقال حي من بني زهرة - وكانت بعض تلك الأراضي تنسب إليهم - يقال لهم بنو عبد بن زهرة:

«نكب عنا ابن أم عبد»، أي بَعْدَ عنا.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«فَلِمَ ابْتَعَثَنِي اللهُ إِنْ؟ إِنْ اللهُ لَا يَقْدَسُ أَمَةٌ لَا يُوْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهِمْ حَقٌّ».

قال الشافعي: فاستدللنا بذلك على أن الأرض وإن كانت منسوبة إلى حي بأعيانهم فهي ليست ملكاً لهم كملك ما أحيوه. إذ إن أراضي المدينة كلها بعامرها ومواتها منسوبة إلى الأوس والخزرج ومن معهم.

ثم إن الأرض التي أعطتها الدولة لمنافع أو وضع المنتفع بنفسه يده عليها، تعتبر ملكيته لها في حكم الإسلام ملكية مؤقتة إلى مدة يعينها معظم الفقهاء بثلاث سنوات. فإن تمكن في خلال هذه الفترة من إحيائها بواسطة زراعة أو غراس أو بناء، تحولت الملكية المؤقتة إلى ملكية دائمة

شرعية لا ينتزعها منه منتزع. أما إن عجز عن ذلك أو احتجرها لبيع أو تجارة أو ما شاكل ذلك، فإن ملكيته لها تفسخ في نهاية الفترة المعينة وعلى الدولة أن تنتزعها منه أو تنتزع بعضها إذا كان عجزه لسبب اتساع الأرض وزيادتها عن جهده. وغني عن البيان أن أي محاولة أو تجارة بهذه الأرض لا تعتبر نافذة شرعاً في خلال فترة الملكية المؤقتة.

ومسند هذا من السنة حديث: «عاديّ الأرض لله ورسوله ثم لكم من بعده، فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين»^[47]. ومثله ما روي من أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطع العقيق بلالاً بن الحارث المزني، فلما كان زمن عمر قال لبلال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطعك لتحتجره عن الناس، إنما أقطعك لتعمل. فخذ منها ما قدرت على عمارته

وردّ الباقي. ولقد أمضى عمر ما استقطعه تميم الداري للإحياء وقال له: ليس لك أن تبيع^[48]. على أن من آداب الإسلام أن تُعين الدولة أولئك الذين أعجزتهم قلة ذات اليد عن عمارة أراضيهم التي انبروا لإحيائها، وإن السيرة لتحدثنا كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدفع أصحابه إلى معونة إخوانهم المنهمكين في فلاحه أرضهم أو زرعها أو بنائها.. وسنجد في الفصول القادمة أن ثمة سبلاً منظمة لتقديم المعونة إلى أمثال هؤلاء.

والذين ينطبق عليهم حكم استرجاع الأرض منهم وانفساخ ملكيتهم المؤقتة لها، هم في أغلب الأحيان أولئك الذين يطمعون في مسافات شاسعة من الأرض لا تتناسب وجهدهم، فضلاً عن العدالة الاجتماعية التي تنكر عليهم هذا الجشع، أو هم أناس رغبوا في الأرض لمجرد احتجارها أو بيعها بغية نيل كسب سهل بارد من غير تعب.

بقي أن تعلم أن الأراضي العامرة تعود في الأصل: إما إلى موات ملكتها الدولة للأفراد بعد تعميرها، وإما إلى الأراضي الخراجية التي تملكها الدولة بعد فتح ومصالحه مع المستسلمين عليها. فهي بيد الأفراد الذين كانوا يملكونها غير أن ملكيتها الحقيقية بعد الفتح تكون للدولة، وتأخذ من المنتفعين بها على ذلك ضريبة تسمى الخراج. والدولة بناء على ذلك تستطيع أن تتصرف بأراضيها هذه متى شاءت طبق ما تقتضيه مصلحة العدالة الاجتماعية ضمن حدود الإسلام.

الزكاة:

وهي ثالث موارد الملكية الخاصة، تلك الموارد التي قلنا إنها شرعت للوقوف في وجه طغيان التجارة الحرة. فنظام الميراث وإحياء الموات وضريبة الزكاة، كلها إنما شرع لدعم العدالة الاقتصادية والحدّ من طغيان التجارة التي تعتمد على رأس المال.

غير أن الصورة المطبوعة في أذهان الناس اليوم عن الزكاة، لا تعينهم على فهم أن الزكاة مورد ذو أهمية من موارد الملكية الخاصة، وأنها تدعم حقيقة العدالة الاقتصادية؛ وذلك لأن اسم الزكاة مقرون في أذهانهم بصورة مسكين يمدّ يده في ذلّة وانكسار إلى الغنيّ الممتلئ رفاهية وشبعاً، حيث ينفقه هذا بضعة قروش أو ليرات، كأنما هي ثمن الذلّة والمسكنة التي جاء يطرق بهما بابها. ثم لا يكاد الفقير يمضي بقروشه التي أخذها غير بعيد، إلا وقد نصبت من يده وعادته الحاجة من جديد. ويعود مرة أخرى لتلقي الصدقات التافهة التي تعودها على المسألة ولا تكسبه العفة والغنى. هذه هي صورة الزكاة في خيال كثير من الناس اليوم، وهي لو كانت صورة صادقة لها لما كانت الزكاة - والحق يقال - إلا سبيلاً من سبل التمرين على قبول الذلّ والمسألة، وما أصدق ما يقوله حينئذ المستشرقون والنقاد عن رأيهم في الزكاة.

ولكن حقيقة الزكاة ليست كذلك...

وكيف يتأتى أن تكون هذه هي الصورة الحقيقية للزكاة، وهي حلقة في سلسلة التشريع الإلهي الذي وُضع استجابة للفطرة البشرية وحفظاً لكرامة الإنسان؟!

وكيف يتأتى أن تكون تلك الصورة المخجلة المشوّهة استجابة لأمر الله في فرض ضريبة الزكاة وهو القائل في محكم تبيانهِ: {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى} وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * [البقرة: 2/263] والقائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} [البقرة: 2/264] والقائل: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء: 17/70].

سبيل إخراج ضريبة الزكاة أبعد ما يكون عن هذا الشكل المسجّل له زيفاً في أذهان هؤلاء الناس. ولكن الذي هو أغرب من هذا البعد، كون الناس بعيدين عن فهم الصورة الحقيقية لذلك، مع أن فصل الزكاة في كتب السنة والفقه يعدّ من أوضح الفصول الفقهية تبياناً، ولا يحتاج أيّ امرئ مسلم - لكي يعلم الطريقة التي شرعت عليها الزكاة - إلا إلى أن يعود إلى أخصر كتاب في الفقه الإسلامي فيتدبّره.

ولكنك ستري بعد عرضنا الموجز لهذا البحث، أن الحكومات الإسلامية هي أول مسؤول عن تشويه هذه الحقيقة في الأذهان، فتهاونها في تنظيم هذه الضريبة وتحصيلها على الوجه الشرعي، يلجئ الأفراد إلى سلوك الحالة الراهنة اليوم، ويتعارف الناس بسبب ذلك بعدئذ أن هذه هي الحالة المشروعة لأداء الزكاة[49].

أما الزكاة كما هي في تنزيل الشارع، فضرريبة مالية تتراوح بين 2.5% و 10% حسب نوع المال، تتعلق بالأنواع النامية من الثروات، والغاية فيها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم أن تؤخذ من أموال الأغنياء وتردّ إلى أموال الفقراء.

بيد أن السبيل المشروع إلى تحقيق هذه الغاية، ليس هو أن يعطي الغني زكاته للفقير مباشرة ويداً بيد، ففي ذلك جرح لكرامة الفقير، وفي ذلك أيضاً فتح لمجال الفوضى بين المعطين والآخذين،

وهذا ما لا يرضاه الإسلام أبداً، بل يكرر النهي عنه أكثر من مرة. وإنما السبيل المشروع السليم إلى تلك الغاية أن تكون الدولة هي الواسطة بين اليد المعطية واليد الآخذة، ففي ذلك توفير للنظام الذي لا يدع محتاجاً تندّب به الفوضى عن الوصول إلى حقه، وفي ذلك أيضاً حفظ لكرامة المستحقين واحترام لمشاعرهم، إذ إن شأن الدولة مع رعاياها كشأن الوالد مع أولاده ومن يلوذ به من أفراد أسرته، وعطية الوالد لأسرته ليست كعطية أخ غير مسؤول إلى أخيه، في المرة الأولى لا توجد ثمة أكثر من علاقة المسؤولية والواجب، بينما لا ينتبه الأخ في المرة الثانية إلى أكثر من علاقة المنة والخجل.

من أجل هذا تجعل الشريعة الإسلامية الدولة هي المسؤولة عن جمع ضريبة الزكاة ممن تجب عليهم، وتفرض على الأغنياء أن يسلموا زكاة أموالهم إليها، وتنبيههم إلى أنه لا علاقة لهم بعد ذلك بالمحتاجين والمستحقين الذين سينالونها. وحتى في الحالة التي لا يطمئن فيها قلب الغني على وصول زكاته إلى مستحقيها عن طريق الدولة، فإن الإسلام يكفيه تبعة هذا القلق ويؤكد له أن جريرة ذلك - إذا حصل فرضاً - على الدولة وليست عليه.

يقول أبو عبيد في كتابه الأموال، راوياً عن إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن سيرين **قال:** «كانت الصدقة ترفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمر به، وإلى أبي بكر أو من أمر به، وإلى عمر أو من أمر به، وإلى عثمان أو من أمر به» وعن عبد الله بن عمير أنه **قال:** إن رجلاً أتى ابن عمر بصدقة ماله، ف**قال:** يا أبا عبد الرحمن إن هذه صدقة مالي، فأين تأمرني أن أضعها؟ ف**قال:** ادفعها إلى من بايعت. وروى الحجاج عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عمر **قال:** ادفعوا الزكاة إلى الأمراء. فقال له رجل: قد لا يضعونها مواضعها، ف**قال:** وإن. وعن ابن عمر أيضاً أن رجلاً قال له: إن لي مالا فألى من أدفع زكاته؟ ف**قال:** ادفعها إلى هؤلاء القوم، يعني الأمراء. **قلت:** إذن يتخذون بها ثياباً وطيباً، ف**قال:** وإن اتخذوا بها ثياباً وطيباً، ولكن في مالك حق سوى الزكاة^[50].

وحسبك أن تعلم أن القرآن نفسه أكد هذا بوضوح حين عدّ من بين الأصناف الثمانية المستحقين لأخذها صنف: العاملين على جمعها. ولولا أن الحكومة هي المكلفة بأخذها أولاً لما كان ثمة وجود لهذا الصنف أصلاً.

فإذا جمعت الدولة من رعاياها جميع زكوات أموالهم، وتراكم ذلك لديها بكل أنواعه من حبوب ومزروعات وعروض تجارة ومواشٍ وذهب وفضة. كان عليها بعد ذلك أن تبحث عن الأصناف الثمانية الذين عيّنها كتاب الله تعالى بوصفهم مستحقين لأخذ الزكاة في قوله:

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: 9/60].

وحيثما تتوافر هذه الأصناف كلها في البلدة، فإن على الحاكم أن يجمع سائرهما ويقسم أموال الزكاة عليهم. أما إن لم يتوافر الكل فعليه أن يجمع ما يمكن جمعه من مجموع الأصناف.

أما المبلغ الذي يوزع على المستحقين فليس هو كما يظن ويفعل بعض بل معظم الناس حينما يواجهون في طريقهم أو عند الخروج من المسجد بعض الفقراء فيحسنون إليهم ببعض ما يجدونه في جيوبهم من قروش، ثم يمضي أحدهم يحسب ذلك من زكاته التي تجب عليه.

إن المبلغ الذي يجب أن يعطى للمستحقين يتفاوت حسب اختلاف الصنف الذي هو منه. وأياً كان صنفه فإن الغاية المقصودة من إعطائه هو اقتلاع أسباب حاجته من جذورها، وتوفير فرصة أمامه تيسر له الارتفاع عن مستوى الحاجة، والسير الموفق في طريق الكسب والارتزاق. ولذا فإن أولئك الذين يستمرئون أخذ الزكاة دائماً على أنها سبيل من سبل التعيش والكسب لا يجوز أن ينالوا منها قليلاً أو كثيراً، وبتعبير حاسم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك: «إنها لا تحل لغني، ولا لقوي مكتسب، ولا لذي مِرَّةٍ سوي».

وعلى هذا فإن صنف (الفقير) مثلاً - وهو من لا يستطيع أن يكتسب مالاً - يقع أي موقع من كفايته، كذلك الذي يحتاج في اليوم إلى عشرة بينما لا يجني كسبه إلا ثلاثة، هذا الصنف يجب أن يُعطى من مال الزكاة ما يجعله يكتسب دائماً مقدار حاجته على أقل تقدير، ويراعى من أجل هذا - كما يقول الفقهاء - أن يعطى ما يشتري به آلة يكتسب بها إذا كان محترفاً، أو مالاً يتجر به إن كان فيما مضى تاجراً، أو قيمة تفي باستئجار دكان له وتوفير الضروري من الخضر والفواكه فيه إن كان في الأصل بقالاً. ويراعى في كل ذلك مقدار الضرورة الذي يوقفه على قدميه ويدفعه إلى

السير في توفيق، إذا اجتهد واكتسب^[51]، أما إذا علم أنه لن يكتسب بما يعطى من مال - والحالة هذه - مع طاقته البدنية على ذلك، فليس معدوداً في أحد من الأصناف الثمانية المستحقة للزكاة. أما صنف (الغارمين) - وهم أولئك الذين ارتبطت بذمتهم ديون للآخرين بأسباب غير محرمة شرعاً، ثم عجزوا عن وفائها - فيجب أن يعطى أحدهم من المال ما يكفي لفك ذمته عن ديون الناس، بالغاً ذلك ما بلغ. ذلك أنه ما دام مديناً للآخرين ولو بمال زهيد فهو من مستحقي الزكاة، وما دام أنه كذلك فيجب أن يعطى من مالها إلى أن تزول عنه صفة الاستحقاق، وإنما تزول عنه هذه الصفة ببراءة ذمته من أموال الناس براءة كاملة.

أما (ابن السبيل) - وهو من حبسه الفقر عن الوصول إلى بلده - فيجب كذلك أن يعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده على حالة تناسب وضعه. ومثل هذه الأصناف الثلاثة بقية الأصناف من مستحقي الزكاة في هذا الذي قلناه. أي يعطى كل منهم من المال ما ينشله من درك الحاجة ويجعله في مصاف المستغنين، لا ما يخدره يومين أو ثلاثة أيام ثم لا يلبث الفقر أن يعاوده، وسرعان ما يعود إلى المسألة.. وإن الإسلام ليلاحظ حينما يأمر بإعطائهم هذا العطاء أن يكونوا بسببه في العام القادم في مصاف الباذلين للزكاة لا الآخذين منها، إذ هو يأمر بإعطائهم إلى حد ألا يكونوا - مع ما أخذوه - من مستحقي الزكاة، ولا يكاد الرجل يتجاوز حد الاستحقاق لها حتى يدخل في عداد المكلفين بدفعها.

ولكي لا يعود بأحدهم الخمول والكسل إلى ما كان عليه من الحاجة فإن الإسلام يجعل الحاكم بعد ذلك مكلفاً بدفعهم إلى الكدح الذي فتح أمامهم سبيله، وبتكريههم بالمسألة وتبغيضها إليهم، كي لا يفهموا أن الزكاة إنما هي إغراء بالكسل ومد يد الحاجة.

وهذا بعينه هو ما أفهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقبیصة بن المخارق إذ يقول: (أتيت رسول

الله صلى الله عليه وسلم في حمالة^[52] **فقال:** أقم حتى تأتينا الصدقة (الزكاة) فإما نعينك عليها وإما أن نحملها عنك، فإن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: رجل تحمّل بحمالة بين قوم فيسأل حتى يؤديها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة فاجتاحت ماله، فيسأل حتى يصيب قواماً من عيش ثم يمسك،

ورجل أصابته فاقة حتى يشهد له ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أن قد أصابته فاقة وأن قد حلت له المسألة، فيسأل حتى يصيب قواماً من عيش ثم يمسك. وما سوى ذلك من المسائل سحت). فتأمل في الغاية التي كرر الرسول صلى الله عليه وسلم ذكرها بعد كل سبب من الأسباب الثلاثة للعتاء وهي: حتى يؤديها، حتى يصيب قواماً من عيش، حتى يصيب قواماً من عيش. ثم تأمل في الباب الذي أوصده وراء هذه الغاية وكرره ثلاث مرات أيضاً، وهو: ثم يمسك، ثم يمسك، ثم يمسك؛ تجد كيف يصور لك في المرة الأولى كرم الإسلام للمستحقين، فهم لا يأخذون في حكمه من العطاء شيئاً يسندهم فقط وإنما ينبغي أن يأخذ صاحب الدين والغرامة إلى أن يؤدي عن نفسه.. وينبغي أن يأخذ من أصابت ماله جائحة أودت به إلى أن يستقر له القوام من العيش، أي السبب الذي يقوم له عيشه.. وينبغي أن يأخذ من ادعى أنه أفلس وافترق بعد غنى - بشرط وجود شهود يؤكدون صحة دعواه - إلى أن يستقر له هو أيضاً القوام من العيش.. ثم تجد كيف يصور لك في المرة الأخرى في حزم كراهية الإسلام الشديدة لامتداد المسألة بعد ذلك، فالإسلام لم يعطه هذا العطاء ليتنعم به ويمضغه وهو جالس، وإنما ليتخذ ظهراً يمتطيه في سبيل الكسب والارتزاق.

ثم انظر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف يدقق في تطبيق هاتين الصورتين على خير وجه في عهده هو أيضاً، حيث يوصي عماله على الزكاة فيقول: إذا أعطيتهم فأغنوا، ويعود فيؤكد وصيته مرة أخرى قائلاً: كرروا عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مئة من الإبل. ثم هو يلتفت مع ذلك إلى رعيته فيبحث بينهم عن القاعدين خمولاً عن السعي والكدح، حتى إذا عثر على أحدهم في ركن من سوق أو وراء سارية في مسجد، أهوى عليه بالدرة وساقه إلى العمل سوقاً وهو يقول: ماذا تنتظر؟ قد علمت أن السماء لا تمطر ذهباً.

بقي أن تعلم أن تعريف كل من الفقير والغارم وغيرهما من المستحقين، يأتي من وراء توفر الحوائج الضرورية له؛ أي ليس لتوفر هذه الحوائج أي تأثير في جعل الفرد غير مستحق لأخذ الزكاة. والحوائج الضرورية لكل إنسان في حكم الشريعة الإسلامية كل من الأشياء التالية: مسكن لائق بحال الشخص وعدد أفراد أسرته.

ألبسة له ولهم حسب ما يقتضيه العرف العام بالنظر لوضعه. خادم له أو لزوجته إذا كان محتاجاً أو كانت محتاجة إلى ذلك.

فهذه الحوائج ضرورية التوفر في نظر الإسلام لكل فرد من أفراد الأمة قبل الدخول في بحث كونه فقيراً أم غنياً. ويجمع عامة الفقهاء من مختلف المذاهب على أنه لا يجوز إلقاء الفقير أو الغارم إلى بيع شيء من حوائجه هذه ليصلح بثمن ذلك سبيل عيشه أو ليوفي به شيئاً من الدين الذي عليه، إذ إن فقدان شيء من هذه الحوائج أشد ضرراً عليه من الفقر أو الغرامة التي ينشد الخلاص منها. ولقد سأل رجل الحسن رضي الله عنه عن الرجل تكون له الدار والخادم أفيأخذ الصدقة؟ **قال:**

يأخذ الصدقة إن احتاج، ولا حرج [53].

وروى الليث بن سعد **قال:** كتب عمر بن عبد العزيز «أن اقضوا عن الغارمين، فكتب إليه: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث، فكتب عمر: إنه لا بد للمرء المسلم من مسكن يسكنه وخادم يكفيه مهنته وفرس يجاهد عليه عدوه ومن أن يكون له الأثاث في بيته. نعم، فاقضوا

عنه فإنه غارم» [54].

هذه هي الطريقة الشرعية لتأدية ضريبة الزكاة، ليس فيها خدش لكرامة، ولا تعويد على كسل أو بطالة، ولا إهدار لحق.. بل لعله قد بدا لك جلياً - قبل أن أوضح لك أنا - أن أداء الزكاة على هذا الوجه يسير بدفة المجتمع كله نحو الغنى والازدهار، ويتخلص بسببه المجتمع كله من الفقر والفاقة والبطالة. وطبيعي جداً أن تكون النتيجة الحتمية بعد سنين من تحصيل الزكاة على هذا الوجه أن يصبح عامة الناس مسؤولين عن دفع الزكاة وليسوا مستحقين لأخذها.

أما الطريقة الفوضوية التي يسلكها (بعض) الأفراد - وهم أولئك القلة الذين لا يزال دينهم يدفعهم إلى أداء فريضة الزكاة ؛ من وضع زكاة أموالهم في الجهة التي تخطر على بال كل منهم: فهذا يقسمها على أيام السنة كلها يدفع كل يوم أو يومين شيئاً منها إلى فقير يصادفه أو أرباب معروف داهموه بمشروع خيري، وذلك يفضل أن يساهم بها في عمارة مسجد أو مشفى أو ما شابه

ذلك [55]، وآخر ينتظر بها حولان الحول، ثم يفتت القيمة التي وجبت عليه بين من يعطف عليهم من معارفه وجيرانه أو بين من يفتتج بحاجتهم من الناس، فلا ينال الواحد منهم إلا النزر التافه الذي يعودده على السؤال ولا ينجيه من الفاقة، عدا الأكثرية الأخرى من الناس، التي لا تتعرف على هذا الركن الإسلامي من أساسه، نقول: إن هذه الطريقة الفوضوية المؤسفة بعيدة كل البعد عن النظام الشرعي لأداء هذه الضريبة، وهي جديرة كل الجدارة بنقد الناقدين سواء كانوا من الأصحاب أم الأعداء.. غير أنه مهما عظم نقدهم أو اشتد تهجمهم على هذه الصورة المشوهة الزائفة، فإن شيئاً من ذلك لا يمكن أن ينال الصورة الحقيقية التي فرغنا الآن من عرض موجز لها. وعلى النقاد أن يقارنوا بين ما عليه عامة الناس اليوم وبين ما كان عليه المسلمون جميعهم في عصر الرسول ثم في عصور الخلفاء الراشدين، ثم في عصور متقطعة طويلة أخرى أبرزها عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز.. فإنهم سيكتشفون حينئذ أن جميع ضرباتهم تنحط على هباء، وأن هدفهم المقصود بعيد كل البعد عن مطارح هجومهم وضربهم.

ولا ننسى في نهاية هذا الحديث أن نعود مرة أخرى فنقول إن أكبر قسط من المسؤولية تجاه هذه الصورة المشوهة لضريبة الزكاة في الأذهان يرتبط بالحكومات الإسلامية.

إن تنظيم ضريبة الزكاة على الوجه الشرعي الذي ذكرناه لا يتم إلا بعمل الحكام؛ إذ إن ذلك من شأنهم، وما داموا هم متجاهلين أو متساهلين في هذا الركن الاجتماعي الخطير للإسلام فإن عرق الاضطراب والفوضى لن ينسحب من طريقة أداء هذا الواجب إذا كان هناك من يؤديه ويعترف به.

وهنا ننتهي من عرض أهم [56] موارد الملكية الخاصة التي شرعها الإسلام لدعم العدالة الاقتصادية في المجتمع، ضد ما قد ينالها من جماح التجارة الحرة ورؤوس الأموال. على أن للتجارة نفسها قيوداً ونظماً إسلامية شرعت للحد من سبيلها والتقييد من حريتها سنتحدث عنها في فصلها المخصص، فيما بعد إن شاء الله.

3 - الحد الزمني للملكية الخاصة

ينقسم الحد الزمني لدوام الملكية الفردية إلى حد اختياري وحد إجباري. فأما الحد الاختياري له فهو كل أنواع المبادلات والمبيعات والهبات وغير ذلك من المعاملات. ولا يكاد يوجد بين الإسلام والشرائع الأخرى في هذا - من ناحية المبدأ - كبير خلاف^[57]، اللهم إلا القيود والنظم التي يربط بها الإسلام شكل هذه المعاملات.

وأما الحد الإجباري لدوامها، فهذا ما يختلف فيه الإسلام عن كثير من النظم الأخرى. والأمور الجبرية التي تنهي دوام الملكية الفردية للفرد، في حكم الإسلام، أحد شيئين: الموت أو وجود سبب من الأسباب المقتضية لمصادرة المال.

أما الموت، فمن المعلوم أن اعتباره قاطعاً لامتداد الملكية، أمر غير معترف به في غير نظر الإسلام. ومن المعلوم أن جميع الشعوب البدائية من أمثال سكان أستراليا وأمريكا الأصليين، كانوا يحكمون بامتداد ملكية الشخص لأمواله حتى بعد وفاته، ويرون في مختلف ممتلكاته وأمواله مظهراً لاستمرار شخصيته، ولذلك فقد كانوا يحكمون بوجود دفنها معه أو حرقها وإتلافها..!

ولقد ورثت النظم الجديدة في أمريكا وجهات كثيرة من أوربة نفس هذه العقيدة والنظام، غير أن الذي جد فيه هو أنهم يستعوضون اليوم عن دفن الأموال مع صاحبها الميت إعطاءها لخليفته الذي أوصى له بها، سواء أكان من أقربائه أم لا؛ فإن فاته أن يعين خليفة له، كان عليهم أن يعينوا هم خليفة له، ويلاحظ أن يكون أقرب الناس إلى الميت، وهم لا يجدون بعد البحث أقرب إليه من ابنه البكر^[58].

وواضح أن هذا النظام يجعل عرق الثراء والتمولات الكبيرة سارياً في مجرى ضيق من المجتمع عبر قرون وأجيال، لا يغذي شيئاً من الأغصان التي تكتنفه لا عن يمين ولا شمال. أما شريعة الإسلام فتقرر بطلان ملكية المالك بمجرد وفاته. بل إنها لتشرع في سحب امتياز التصرف منه منذ أن ينحط عليه ثقل المرض، فهي لا تجيز له التصرف إلا بمقدار معين من أمواله لا يزيد على الثلث، ولا تجيز له أيضاً أن يوصي لأحد من أقاربه أو أصحابه أو أحد من الفقراء إلا من أصل هذا الثلث أيضاً. وذلك خوفاً من أن يفرط ويبذر بماله الذي يرى أنه تاركه بعد قليل وراءه، انتهازاً للفرصة القصيرة التي توشك أن تزول؛ مع أن المال في هذه الحال يجب أن يحفظ لأوليائه وملاكه الجدد الذين بدأ إشرافهم عليه من الآن.

فإذا مات المالك انقطعت نسبة الملكية إلى ممتلكاته وأمواله انقطاعاً تاماً، وأصبح ماله ملكاً لمجموعة كبرى من أقاربه إذا كان جميعهم موجودين، ويسمون في اصطلاح الإسلام ورثة لهذا المال، ولا يمكن أن تؤثر في قسمة هذا الميراث أي وصية أو تدخل من جانب المالك الأصلي قبل وفاته.

نعم، إذا مات الرجل وفي ذمته دين لأحد من الناس، فإن قدر ذلك الدين من ماله يظل حتى بعد موته مرتبطة ملكيته به؛ إذ إن الشارع يعتبر المالك في حكم المتصرف به قبل موته، وذلك بسبب انشغال ذمته إذ ذاك بقدر ذلك المال لمصلحة شخص أو أشخاص بأعيانهم. ومن ثم فإن جميع ما على الميت من ديون وذمم يجب أن يؤدي من ماله قبل أن تمتد يد أي فرد من الورثة إليه.

وواضح أن هذا النظام يفرع جذع الثراء والتمولات الكبيرة إلى عروق كثيرة وأغصان غزيرة سرعان ما تعم رحاب المجتمع بمستوى اقتصادي متقارب، أو هو يساهم - على أقل تقدير - في تحقيق هذا المستوى المتقارب إلى جانب العوامل الأخرى التي تحدثنا عنها والتي نحن بصدد الحديث عنها فيما بعد.

والحالة الثانية التي تحول دون دوام الملكية، هي وجود سبب من الأسباب التي تقضي بمصادرة المال، أو بيعه والتصرف به جبراً. ومثل هذه الأسباب كثيرة.

1- فمنها أن يكون الرجل متولياً منصباً أو وظيفة من الوظائف الحكومية، ويكون لذلك المنصب أو تلك الوظيفة دخل في تيسير بعض مكاسبه المالية، سواء أكانت تلك المكاسب مشروعة بحد ذاتها أم لا. فللحاكم في هذه الحالة - بل يجب عليه في اجتهاد بعض السادة الفقهاء - أن يصادر جميع مكاسبه التي يسرتها إليه وجاهته الحكومية أو نوع وظيفته التي هو يشغلها. وكالمكاسب في هذا الحكم جميع أنواع الهدايا، فليس للقاضي أن يقبل هدية ما من أي شخص ما دام يشغل مثل هذه الوظيفة؛ وسواء في ذلك أن يكون الشخص المهدي، له قضية عنده أم لا.

ولقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم في عبارات حاسمة عندما قدم عليه ابن اللثبية - وكان قد استعمله على رعاية أموال الزكاة - وقال له: هذا لكم، وهذا أهدي إلي. فظهر الغضب في وجه النبي صلى الله عليه وسلم، وقام وخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم **قال:** «أما بعد؛ فإني أستعمل رجالاً منكم على أمور مما ولاني الله، فيأتي أحدكم فيقول: هذا لكم وهذه هدية أهديت إلي، فهلاً جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة، إن كان بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر».

ولقد كان عمر رضي الله عنه يصادر من أموال عماله وموظفيه ما يظن أنه جاءهم نتيجة لاستغلال نفوذهم وجاههم؛ فعل هذا مع بعض ولاته على البصرة، وفعله أيضاً مع عمرو بن العاص حينما كان والياً على مصر، بعث إليه يقول: «إنه فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية

وحوان، لم تكن حين ولّيت مصر»، ثم بعث إليه محمد بن مسلمة فصادر منه بعض أمواله [59].

2- ومنها أن يحتكر الرجل شيئاً من أقوات الناس أو غير ذلك من ضرورياتهم بغية التحكم بأسعارها، فعلى الإمام أن يكفّ يده عن كل ما يحتكره من أموال، وأن يعرضها على السوق ويبيعها عنه، رضي أم كره، بسعر ذلك اليوم في السوق.

ويشدد الرسول صلى الله عليه وسلم في النهي عن الاحتكار وبيان عظم جريرته وإثمه فيقول مرة: «من احتكر طعاماً أربعين يوماً فقد برئ من الله وبرئ الله منه»، ويقول أخرى: «لا يحتكر إلا خاطئ». ويوصي الإمام علي رضي الله عنه الأشتر النخعي فيقول: (واعلم مع ذلك أن في كثير من التجار وذوي الصناعات ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه في غير إسراف).

3- ومنها أن تتراكم على الرجل ديون للناس كالغرامات العادية، أو لله تعالى ككفارات وجبت عليه، أو نذور التزمها، أو زكاة تعلقت بأمواله؛ ثم أفلس ولم تعد تفي أمواله بما عليه من

ديون^[60]، فإنه يحجر على أمواله الباقية لمصلحة الغرماء، ويستبقى له منها ما يحتاج إليه لضرورياته حسب ما يليق به، ويبيع الزائد عليه ويصرف للمستحقين.

وفي هذا يروي مالك عن عمر رضي الله عنه أنه قال على ملأ من الناس: ألا إن الأسيفع أسيفع جهينة رضي من دينه وأمانته أن يقال سبق الحاج، فأدان معرضاً عن الوفاء، فأصبح وقد رين به - أي وقع فيما لا يقدر على الخروج منه - فمن كان له عنده شيء فليحضر غداً فإننا بائعو ماله وقاسموه بين غرمائه.

ويلاحظ أن هذه الحدود لدوام الملكية، إنما شرعت حفظاً للعدالة الاجتماعية ودرءاً للتفاقم المالي أن يتكاثر في جهة خاصة من المجتمع دون غيرها. وهي في بعضها تتخذ شكل عقوبات.. وفي بعضها الآخر تتخذ شكل نظام شرعي لا أكثر.

ومن ثم فإن لذلك أهمية كبرى في المساهمة مع العوامل الأخرى في إرساء العدالة الاقتصادية بين الناس كمجموع.

4 - نظام التصرف بالأموال

وقد حان لنا الآن أن نتحدث عن القيود التي ينظم بها الإسلام مختلف أنواع الكسب والمعاملات التي تتم بين اثنين من الناس.

ولهذه القيود أنواع وفروع كثيرة تفيض بها مجلدات كتب الفقه الإسلامي، وجميع هذه القيود يرجع سبب تقريرها إلى: جلب المصالح للمجتمع، ودرء المفساد منه. وهذا هو المحور الوحيد الذي تتكاثر وتتفرع من حوله جميع الأحكام الفقهية المتعلقة بالمعاملات.

ولن نستطيع - ونحن نتخطى صفحات هذه العجالة - أن نتحدث عن جميع هذه القيود والنظم، فإن ذلك يقتضي أن نخصص لذلك وحده مجلداً ضخماً. ولكننا سنتحدث عن أهم أنواع هذه القيود مع بيان مدى ارتباطها بالعمل على إيجاد مجتمع رخيّ تعمه العدالة الشاملة.

1- من هذه القيود تحريم جميع المعاملات الربوية. وللمعاملات الربوية أنواع كثيرة، غير أن أشدها تحريماً ذلك النوع الذي يعرف بربا النسيئة، وهو أن ينال الدائن من مدينه زيادة معينة من المال في مقابل التأجيل.

وهذا النوع هو الذي أكد القرآن عظم تحريمه، وتوعد الذين لا ينتهون منه بحرب من الله ورسوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (*) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} [البقرة: 2/278-279].

وهذا النوع أيضاً هو الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في حجة الوداع: «.. ألا وإن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب..».

ومهما زاد تمسك الاقتصاديين في عصرنا هذا بالربا، ومهما اشتدوا في دفاعهم عنه وحاولوا ربطه بمقومات المدنية اللائقة، فإن سبب تحريمه يظل جلياً واضحاً، وإن المضرة الاجتماعية الكبرى التي تنشأ من التعامل به، تظل أقوى وأوضح وأخطر من المجملات والمحذات التي يسوغون بها ارتكاب هذه الجريمة الكبرى.

هم يبررون عملية الربا بأنها الوسيلة الوحيدة إلى الجمع بين مصلحتي المدين والمستدين، الأول من حقه أن ينال أجراً على المعونة التي قدمها، والثاني من حقه أن يلجأ إلى هذه الوسيلة لإنجاح تجارته وأعماله.

والإسلام يقول: إنه ليس من أي نوع من أنواع المعونة لأخيك أن تنتهز حاجته إلى أي شيء من مالك، فتزيد على قيمته الطبيعية قيمة تفرضها أنت عليه وتلزمه بها زاعماً أنك بهذا سددت خلته وقطعت حاجته، مع أنك تفرض عليه إعطاءك هذه الزيادة، سواء سددت خلته بها أم زادت اتساعاً، وسواء تسببت بشيء من ربحه أم زادت خسارة وفقره.

ويقول الإسلام: إذا أردت حقاً أن تقدم المعونة لأخيك، وتجمع بين نفعه ونفعك في غير ما ضرر تلحقه به، فأعطه المال الذي تريد أن تعطيه، ثم افرض عليه أن يشركك بشيء من ربحه إذا ربحت تجارته به، فهذا ما لا يمنعك الإسلام منه بل يثيبك عليه، لأنه لا ضرر في هذا ولا ضرار،

ولأنه حقاً جمع بين منفعتين ومصلحتين^[61]. هذا هو التعاون المبرر الذي تقره الأخلاق وتدعو إليه الأخوة، لا أن تعطيه المال، ثم تقول له: أريد عليه (كذا) زيادة، ولا شأن لي بك خسرت أم ربحت.

(أريد عليه (كذا) زيادة، ولا شأن لي بك خسرت أم ربحت!) أين تجد - بحقك - في هذا الكلام شيئاً من معنى التعاون المزعوم؟

هل تبصر فيه شيئاً غير روح أنانية متعجرفة تنتهز وتتربص؟ وهل تتصور هذا المال الذي يزعم صاحبه أنه إنما يقدمه معونة للمستدين إلا شباكاً يخوض به جيوب الفقراء والمعوزين، ليرتد إلى صاحبه وقد امتلأ بالبقية الباقية من قروشهم وضروريات أموالهم؟

لقد قسم الإسلام حاجات الرجل من الناس إلى قسمين: حاجات ضرورية، فهذه يجب أن ينالها سواء وجد من يقرضه أم لا، وجميع من حوله مسؤولون عنه شرعاً؛ بحيث لو مات جوعاً أو عرياً أو لفقده المسكن الذي يؤويه فإن جميعهم يعتبرون في حكم القتاتلين له، حتى إن جمهرة من الفقهاء تجعلهم مسؤولين عن ديته ومكلفين بدفعها إلى أوليائه وورثته متضامنين كما لو كانوا شركاء في موته [62]، وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من بات شبعان وجاره جائع» وهكذا، فإن الشريعة الإسلامية تأمر بسد حاجته قبل أن يلجئه الأمر إلى الاستدانة فضلاً عن إعطاء الربا للذي يستدين منه.

وهناك حاجات أخرى غير ضرورية؛ كمختلف أنواع المكاسب والتجارات الزائدة على قدر الضرورة، فالإسلام يجيز هنا التعاون المتبادل على أساس ألا يضارَ بأحد منهما أو يستغل أحدهما الآخر، وطريقة ذلك هي ما شرعه الإسلام نفسه، وهو أن يقرض الرجل أخاه لمثل هذه الحاجة، ثم يشترط عليه أن يقاسمه الربح الذي قد يأتيه عن طريقه - إذا ربح - ويتفقان معاً على شكل المقاسمة ونصيب كل منهما. أما إذا خسر المستقرض فليس من التعاون أو العدل في شيء أن يلزمه المقرض في تلك الحالة أيضاً بإعطائه أي زيادة على المال الذي أقرضه إياه. ولعمري مهما تطورت المدنية وتشكلت فإنها لن تحتاج إلى أكثر من هذا النظام حرية في الكسب والتجارة، ولن تجد شريعة أليق من هذه الشريعة بالتقدم المدني والعدالة الاجتماعية.

2- ومن هذه القيود أيضاً تحريم كل ما من شأنه أن يتحكم بالأسعار، كالاحتكار، وككنز الأموال وحجزها عن أسواق الصناعة والتعامل.

ولقد سبق أن ذكرنا بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي ينهى فيها نهياً شديداً عن الاحتكار، وقلنا إن على الدولة أن تصدر كل ما يحتكره التاجر من أقوات الناس وتبيعه جبراً بسعر السوق الحاضرة.

ومثل احتكار الأقوات والمصنوعات أن يكتنز الرجل قيمتها من ذهب أو فضة ويحجزها عن الدخول في أسواق التعامل والصناعة، إذ في ذلك إضرار للناس وتحكم بقانون العرض الذي ترتبط به قيمة السلعة صعوداً ونزولاً، وتجميد للأموال والمنافع، التي جعلها الله قياماً للناس، إلى ذهب وفضة لا تفيد شيئاً ومع ذلك تكتنز لتعبد. وفي ذلك يقول الله تعالى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} {يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ *} [التوبة: 34-35]. ولا داعي أبداً إلى حصر معنى الكنز في عدم إخراج الزكاة، وإنما هو معنى عام يقصد به أن يحبس المالك الذهب والفضة اللذين هما قيم الأشياء، سواء عن الزكاة أم عن إنفاقهما وتشغيلهما في أسواق الصناعة وكل ما يعود على الناس بالرخاء. ولو كان المقصود بالكنز عدم إخراج زكاة

المال فقط، فلماذا سمى القرآن إذن من بين أنواع الأموال والثروات كلها الذهب والفضة فقط؛ مع أن الزكاة كما تتعلق بالذهب والفضة تتعلق أيضاً بالزررع وكثير من الفواكه وعروض التجارة وغيرها؟

ويزيد هذا المعنى وضوحاً الأحاديث الكثيرة التي يذم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الذهب والفضة وينهى عن ادخارهما. فمنها ما روي عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حينما نزلت هذه الآية: «تَبَّ لِلذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ»، وفي الصحيح أنه قال لأبي ذر: «ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهباً يمرّ علي ثلاثة أيام وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين»، وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم **قال:** «ما من رجل يموت وقد اكتنز أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدميه إلى ذقنه».

فالذم في هذا كله إنما ينصب على النقيدين بعينيهما، وعلى المكتنز لهما بخصوصهما، وما وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم ذم مرة بالمقابل تجارة تُدار أو صناعة تصنع مهما بلغت قيمتها من

الذهب والفضة، ومهما بلغ صاحبهما من الغنى، ما دام متبعاً في ذلك نظام الإسلام [63]. وإنما هي الكراهية والتوعد لذلك الذي يعتصر منافع الناس ثم يجمدها عنده في صندوق. فهو أولاً يتعشق ما لا يضر - بحد ذاته - ولا ينفع؛ وهو ثانياً، في سبيل تعشقه وحبه الغريب ذاك يمنع نفسه ويمنع الناس رخي الرزق وسبيل نعيمهم الدنيوي.

ولا شك أن للدولة أن تحول دون هذا الاكتناز، وأن تحمل الموسرين على أن يطلقوا أموالهم في ميادين الصناعة والتجارة، بالطرق الحكيمة التي تراها.

ويلاحظ أن الشريعة الإسلامية لم تسلك سبيل تسعير السلع والحاجيات بشكل حرفي، ولكنها تمنع وتحرم القيام بأي عمل من شأنه أن يتحكم بالأسعار في سبيل الأغراض الخاصة. على أن الإمام مالكا رضي الله عنه وطائفة من الفقهاء المتأخرين يفضلون أن تقوم الدولة بتسعير الحاجيات عند خشية التلاعب بها، رعاية لمصلحة الناس ودفعاً للضرر عنهم.

3- ومن هذه القيود أيضاً منع (الغش) وكل نوع من أنواع (الغرر) في مختلف أنواع البيوع والمعاملات.

والغش هو الخداع بشكل من الأشكال، ومثله (الغبين الفاحش) وهو الخداع في السعر، بأن يخدعه عن حقيقة السعر المعروف ويبيعه السلعة بثمن فاحش عن الثمن العادي. أما (الغرر) فهو وجود أي نوع من الجهالة فيما يتضمنه العقد من بيع أو رهينة أو إيجار أو غير ذلك.

ويتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الغش قائلاً: «من غشّ فليس مني». ويذهب عمر بن الخطاب يفتش في أسواق التجارة والصناعة عن كل من يغش في بضاعة أو يغبن في ثمن، حتى إذا عثر على أحدهم، لم يتردد في إنزال عقاب أليم به، وقد يقفل له متجره إذا اقتضى الأمر.

أما الغرر؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ينص له على أمثلة كثيرة مختلفة، وينهى عن جميع هذه الصور نهياً قاطعاً، ثم ينهى - في عبارة عامة شاملة - عن كل بيع غرر.

من أمثلة بيوع الغرر المنصوص عليها، بيع الثمار وهي على أشجارها قبل بدو صلاح، وبيع الألبان في الضروع؛ يقول ابن عباس رضي الله عنه: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تباع ثمرة حتى تُطعم، ولا يباع صوف على ظهر، ولا لبن في ضرع».

ومنها ما أطلق عليه الرسول صلى الله عليه وسلم اسم «تلقى الركبان». وهو أن يتلقى تجار البلد الركبان القادمين من القرى والبادية ببضائع وأقوات للبيع، قبل أن يصلوا إلى السوق ويبحثوا بأنفسهم عن الأسعار، كي يخدعهم ويأخذوا منهم البضاعة بأرخص ما يمكن من قيمة؛ فهو أيضاً من البيوع المنصوص على النهي عنها، ومنها (النجش) وهو أن يزيد الرجل في البضاعة لا لشرائها ولكن لمجرد أن يرفع من قيمتها.

ومنها أن يدخل البائع أو المشتري في عقد البيع شرطاً يضرّ بأحدهما، كأن ينتهز المشتري فرصة اضطرار البائع لبيع داره فيقول له: اشتريت منك هذه الدار على أن تبيعني أيضاً بساطك هذا، أو على أن تشتري مني هذا الثوب. فهي صورة تشبه في إضرارها واستغلالها للحاجة عملية الربا، يروي أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين في بيعة، ويروي أبو داود من حديث أبي هريرة أيضاً **قال:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما أو الربا». والبيعان في بيعة هي - كما ذكرنا - أن يربط أحد المتعاقدين، بعقد البيع،

بيعة أخرى يشرطها على الطرف الثاني [64].

وتجنبياً لكل من المتعاقدين عن هذه الصور من مظاهر الخديعة والغرر، تقرر الشريعة الإسلامية أنواعاً من الخيار تكون من حق كل من الشاري والبائع، وتترتب هذه الأنواع على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: الخيار في أثناء مجلس التعاقد، فكل من الطرفين أن يعود عن العقد ما دام في مجلس البيع. عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم **قال:** «إذا تباع الرجلان بالخيار فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا...».

المرحلة الثانية: وتسمى بخيار الشرط، وهو أن يشرط كل منهما لنفسه حرية الرجوع، في مدة معينة لا تزيد على ثلاثة أيام. بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم هذا لرجل قال إنه يخدع في البيوع، وقال له: «إذا بايعت فقل: لا خلاية، ثم أنت بالخيار في كل سلعة ابتعتها ثلاث ليال».

المرحلة الثالثة: (وهي من حق المشتري فقط) أن يجد الرجل فيما اشتراه عيباً ينقص من ثمنه أو يفوت مصلحة له فيه، فإن له الخيار في أن يعود بما اشتراه على البائع، واسم هذا النوع: خيار العيب.

وثمة نوع رابع من الخيار يسمى (خيار الغبن) يعتبره فقهاء المالكية وطائفة من فقهاء الحنابلة. وهو خيار سببه الغبن بالسعر فقط فالمشتري إذا اكتشف أن البائع قد زاد عليه في السعر عن القيمة المعروفة في السوق، أن يعود بسلعته على البائع، ويجبر البائع على إرجاعها أو خفض سعرها إلى القيمة المعروفة، والدليل على ثبوت هذا النوع من الخيار للمشتري حديث الرسول لذلك الذي قال له: إنه يخدع في البيوع: «إذا بايعت، فقل: لا خلاية» والخلاية كل نوع من أنواع الخداع والغش، سواء كان في السلعة نفسها أم في ثمنها.

4- ومنها تحريم الرشوة، وهي كل مال يتوصل به إلى إبطال حق أو إحفاق باطل، وهو أيضاً المال الذي يشرطه الموظف على صاحب الحاجة لقضاء حاجته. ويشتد غضب الرسول صلى الله عليه وسلم على من يتعاطى الرشوة، حتى إنه ليدعو عليه باللعنة فيقول: «لعنة الله على الراشي والمرتشى» [65]، ويقول أيضاً: «لعن الله الراشي والمرتشى والرائش الذي يمشي بينهما» [66].

5- ومنها تنظيم علاقة العامل والأجير بصاحب العمل، وتحريم الإضرار به والهضم من حقوقه. وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»، ويقول أيضاً في حديث قدسي: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة؛ رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره».

وفي ضوء هذه الأحاديث ومثلها مما يرفع فيه الرسول من شأن اليد العاملة ويحث على إكرام صاحبها، يتحدث الفقهاء في تفصيل عن حقوق العمال والأجراء وواجب حصولهم عليها. وإن على أرباب العمل أن يعتبروا (أجرة المثل) بصدد تشغيلهم للأيدي المستأجرة. ويجب على الدولة أن تكون هي الواضعة لمقاييس (أجرة المثل) هذه، إذ كل من أرباب العمل والعمال متهمون.. وتكون المقاييس المرعية في ذلك باعتبار ما يحتاج إليه العامل لكسبه ولوفره للضروري من قوته، وهذا ما صنعه عمر حينما جمع أناساً من مختلف القبائل ووكّل إليهم بيان ما يحتاجه الأجير أو العامل للكسب اللائق.

ويذهب بعض الفقهاء إلى أبعد من هذا في التفصيل، فيتحدث العز بن عبد السلام في كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) عن معنى (اليوم) في عرف أرباب الصناعة والعمل حينما تربط أجرتهم باليوم. ويوضح أن انصراف العامل إلى صلاته في أوقات الصلاة وطعامه وشرابه في وقت ذلك، وركونه إلى الراحة قبل آخر النهار؛ لا ينقص كل ذلك شيئاً من أجرته المقررة على عمل اليوم.

وكل ما يحفظ للعامل كيانه، ويحميه من استغلال صاحب العمل أو المستأجر، فإن الشريعة الإسلامية هي أول شريعة تتبناه، بحكم مبدأ (جلب المصالح).

وكل وسيلة يسلكها التجار وأرباب المصانع لغلّ يد العامل أو استغلاله وظلمه فإن الشريعة الإسلامية أول شريعة تسد تلك الوسيلة في وجه السالكين فيها، وذلك بحكم مبدأ: (درء المفسد العامة).

5 - مدى سلطة الدولة على الأموال الخاصة

وبعد أن يهيئ الإسلام من وسائل التملك الفردي ما يعين على تحقيق العدالة الاقتصادية كإحياء الموات والزكاة والميراث.. وبعد أن ينظم الحد الزمني لدوام الملكية الفردية في سبيل أن يعين ذلك أيضاً على تحقيق العدالة الاقتصادية.. وبعد أن ينظم قيود التملك والاكتساب الفردي كي يساهم ذلك أيضاً في تقرير العدالة الاقتصادية.

بعد ذلك كله، أفلا يمكن أن تكون ثمة ظروف تحول دون التحقق الكامل للعدالة الاقتصادية في المجتمع على الرغم من هذه الأحكام والمبادئ؟ وإذا وجد مثل هذه الظروف الحائلة دون هذا الهدف فما الذي تقررره الشريعة الإسلامية لمواجهة ذلك؟

لقد أعطى الشارع في مثل هذه الحالة سلطات استثنائية لاستعمالها في سبيل التغلب على العقبات الطارئة.

فأولاً يعطي الشارع للحاكم الحق في أن يعيد النظر في تقسيم الأموال بين الأفراد، وفي أن يأخذ من نصيب البعض للبعض الآخر، طبق ما يقتضيه السير نحو تثبيت العدالة للمجموع.

ولقد عمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذا حينما قدم إلى المدينة ورأى أن المسلمين قسمتهم ظروف الهجرة إلى قسمين: أنصار يتميزون بالغنَى والثروة في بلادهم وبين إخوانهم، ومهاجرين يتميزون بالفقر بسبب تركهم لبلادهم وأموالهم.. وحينئذٍ عمد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نصيب المسلمين من فيء بني النضير فاخص به المهاجرين وحدهم - واثنتين من الأنصار كانوا فقيرين - مع أن الأنصار كانوا يتوقعون أن يكونوا شركاء المهاجرين في هذه القسمة. وحينما تساءل بعض الأنصار عن سبب صرف أنصبتهم إلى الآخرين، نزل القرآن يجيب عن الرسول صلى الله عليه وسلم عن السبب: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [الحشر: 59/7].

ويرى الباحثون أن عمر بن الخطاب جرى على تطبيق هذا النهج في السياسة المالية، وينقلون عنه الكلمة المشهورة: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتها على فقرائهم). ولقد أوصى الخليفة من بعده بهذه الكلمات نفسها ونصحه باتباعها، وقال له: (.. وأوصيك بالأنصار خيراً، فأقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأوصيك بأهل البادية خيراً، فإنها أصل العرب، ومادة الإسلام، أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فتردّها على فقرائهم..).

ثانياً : يعتبر أهم موارد الدولة من الأموال، الغنائم والفيء في أوقات الحروب؛ وضريبة الزكاة ومختلف أموال المرافق العامة أو المؤممة. غير أن هذا كله إذا لم يعد يكفي لحاجات الدولة ومصالحها، فإن لها أن تفرض ضرائب أخرى على الأفراد حسب مواردهم إلى أن يسد ذلك مسداً من حاجات الدولة ومصالحها.

غير أنه يشترط لجواز فرض هذه الضرائب أن تأخذ الضريبة طريقها إلى الكماليات أولاً، سواء كانت هذه الكماليات تابعة للدولة أم للشعب، ومثل الكماليات - بل وأولى منها في ذلك - جميع مصارف اللهو والترف.. فإذا استوعبت حاجات الدولة ذلك كله، وهي في حاجة بعد، جاز إذ ذاك فرض الضرائب والأتاوات على أفراد الشعب.

وهذا ما أجاب به الشيخ عز الدين بن عبد السلام، حينما استفتاه الظاهر بيبرس في الحكم مبيناً حاجة الحكومة إلى المال.

ومرجع الدليل العام في هذا مبدأ «جلب المصالح ودرء المفسدات». فالاستزادة من الضرائب عند حاجة الدولة لا شك أنها جلب للمصالح، غير أن الاستزادة من مظاهر الترف والكماليات أو الإبقاء عليها - على أقل تقدير - في مثل تلك الحالة يعتبر جلباً للمفسدات أيضاً. ولا معنى لفرض الأتاوات على رجل ذي دخل محدود لا يشم بيته رائحة للترف أو التبذير، بينما تراق الأموال في أماكن أخرى جزافاً في سبيل الاستغراق بمظاهر الترف واللهو.. ولا معنى أيضاً لفرض مزيد من الضرائب على عامة الشعب إذا كانت الدولة تتحمل عبئاً كبيراً في سبيل جلب ما قد يُستغنى عنه، من الدول الأجنبية، ولا ريب أن شريعة الإسلام تحكم بحرمة جلب كماليات من الخارج يمكن أن يستغنى عنها، قبل أن تحكم بجواز فرض مزيد من الضرائب على عامة أفراد الشعب لتسديد قيمتها.

وبعد، فلا يتوهم قارئ أن الشريعة الإسلامية إنما تقرر كل هذه النظم والأحكام التي ذكرناها، لتجعل الناس سواسية في المال والرزق غير مختلفين ولا متفاوتين في ذلك. فلو أنها قصدت إلى ذلك، إذن لما كانت سائرة على نهج الفطرة التي تحدثنا عنها، وإذن لذهب كل سعيها فيما لا يفيد شيئاً، ولقد رأينا الدولة التي وضعت كل همها في تحقيق هذه المساواة الشكلية، كيف باءت بالإخفاق الذريع، وكيف أن جهودها لم تنتج إلا عكس ما كان هو المقصود.

المساواة التامة بين الناس جميعهم في الرزق، من أوضح صور المحالات في هذا العالم المتمدين القائم على أساس الترابط والتعاون والتكافل. ولن يستطيع أي مفكر أو مشرع أن يحقق هذا المحال إلا عندما يفك من بين هذا العالم حبل ترابطه وتعاونه، ويصيره أنكاثاً، لا يتعارف فرد فيه على فرد، ولا يشعر إنسان فيه بحاجته إلى إنسان.

ولكن ما قصدت إليه الشريعة الإسلامية ووضعت كل عنايتها فيه، هو: تحقيق عدالة اقتصادية شاملة، وذلك يعني أن يكون المجتمع رخيماً؛ كل أفرادهم مكتفون في الرزق، ليس فيهم كلٌّ على آخر يريق له ماء وجهه وإن كانوا متفاوتين في الرزق، لا يستغل غني فضله على من دونه في المال، ولا يحسد الأدنى من كان فوقه في الرزق، وإن كانوا جميعاً متساندين متكافلين.

ولا ينافي هذا أن يكون الناس - بعد ذلك - متفاضلين في الرزق، فتلك ضرورة فطرية فطر الله مجتمع الناس عليها حينما فاوت بين عقولهم وأهوائهم وآرائهم، ليربط بعضهم بالآخر بوشائج التكافل والتعاون. ولذلك قال سبحانه وتعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} [الزخرف: 43/32] أي ليسخر بعضهم بعضاً فيما يحتاجون.

إنها سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً مهما تقدم الزمن وتطورت الحضارات وتشكلت النظم. ولا يزال الناس متفاضلين.. ولا يزالون مختلفين.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وبعد: هل هو نظام اشتراكي

وبعد، فهل من الجدير أن نطلق اسم الاشتراكية على نظام الإسلام هذا؟ من المعلوم أن كلمة الاشتراكية تطلق في اصطلاح المذاهب الاقتصادية المعاصرة على كلّ من نظامين اثنين: أحدهما النظام الشيوعي الذي سبق أن تحدثنا عنه، والثاني النظام الذي نادى به

هيجل [67] وأمثاله من بعده يدعونها بالاشتراكية المعتدلة، ويتبناها اليوم كثير من مفكري أوربة. ولا شك أن نظام الإسلام يخالف كلاً من النظامين الآخرين، فلا يمكن أن نطلق عليه اسم الاشتراكية الشيوعية، كما لا يصدق أن نطلق عليه اسم الاشتراكية الأخرى التي تدعى بالمعتدلة. فقد رأينا للإسلام طابعاً مستقلاً آخر لا يمكن أن يشبّه بأي من النظم المعاصرة أو غير المعاصرة. غير أن لك أن تعلم أن الإسلام يؤسس في المجتمع الذي هو فيه تضامناً وتكافلاً اجتماعيين، يقيمهما على ركن من العقيدة التي تصرّ على أن جميع المسلمين كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر، وأن الناس جميعهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. ولكنك ترى أن الإسلام - وهو يتبنى هذه الروح - لا يلبس أي شبه يقربه إلى النظم الأخرى. فالأساس المذهبي في كلّ، مناقض للآخر، والسبيل مختلف ومتباعد.

وعلى هذا، فالذي أراه هو أنه لا يليق بنا أن نبادر فنلصق بالإسلام ألقاب النظم الأخرى، لمجرد أن فيها ما يستهوي أفكار بعض الناس ويجد دعاية بينهم، أو لمجرد أن في الإسلام ما يغني عن محسنات تلك المذاهب، فللإسلام محور خاص يظل ملتفاً ودائراً من حوله، وهو: العدالة الاجتماعية، لا يبالي في سبيل ذلك أن يبتعد عن الأفكار الأخرى أو يصادف أن يقترب منها. فقد يستدعي هذا المحور في بعض الأحيان والنواحي التمسك بروح اشتراكية في معنى من معانيها العامة، وقد يستدعي في مجالات أخرى نقيض ذلك؛ من دعم الملكية الفردية وتوابعها، وقد يقتضي في حالات ثالثة لوناً من الشيوعية التامة. فلا الاشتراكية دائماً عنوان للعدالة الاجتماعية، ولا النظام الرأسمالي دائماً مظهر للظلم الاجتماعي، ولا الحياة الشيوعية بحدّ ذاتها مفتاح دائم للسعادة أو سبب كلي للشقاء، وإنما العدالة الاجتماعية تقوم على أسس مزيجية من هذه المظاهر كلها. ومن ثم فهي ليست منتسبة إلى أيّ منها، ولا يصدق أن نطلق اسم أحد منها عليها.

من أجل هذا، يخيل إليّ أن السبب الذي يدعو بعض المفكرين إلى لصق شعارات وعناوين النظم الوضعية المعاصرة بالإسلام، إنما هو سرعة افتتانهم بتلك النظم قبل أن يتمكنوا من المقارنة بينها وبين حقيقة الإسلام. إذ لا داعي - مثلاً - إلى أن أبادر فأرفع صوتي بين النقاد والمفكرين لأقول: لا يا سادة، إن الإسلام يحتوي على هذا النظام الاشتراكي نفسه، إلا إذا كنت مقتنعاً على أقل تقدير بمثالية النظام الاشتراكي وجدارة تطبيقه. ومن ثم فإن العمل الوحيد الذي أعمد إليه عادة بعد هذا الادعاء والإعلان هو أن ألقت فأبحث بسرعة عن أدلة الأحكام والنظم الإسلامية فأسوقها إلى حيث تجثم قوانين النظام الاشتراكي، فأغلف هذه بتلك، ثم أتركها وقد لبست لبوساً إسلامياً بيناً، لتؤكد للناس كيف أن الاشتراكية لا تخالف الإسلام في شيء.

ويخيل إليّ أنني لو كنت واحداً من الذين يفهمون الإسلام عن طريق الإصغاء إلى هؤلاء الذين يترقبون أن يلمع لقب مذهب ما في آفاق المجتمع، كي يسرعوا فيلصقوه بالإسلام؛ إذن لما أثبتوا في نفسي إلا حقيقة الكراهية له، ولما صوروه في ذهني إلا في صورة المتطفل على أنظمة الناس وآرائهم ونتاج اضطراباتهم الفكرية.

إذا هتف الناس باسم الديمقراطية ودعوا إليها، بادر هؤلاء فقالوا: وهل الإسلام يا قوم إلا نظام ديمقراطي [68]؟ وإذا جاء موسم فتن الناس فيه باسم السلام وشعاراته، أسرع هؤلاء فقالوا: وهل يدعو الإسلام إلى شيء غير السلام؟! يقولون هذا ويخفون في الوقت نفسه عن الأنظار كل ما يتعارض مع ذلك من أحكام الإسلام، وإذا قام من المفكرين من ينادي بالاشتراكية في الاقتصاد، التفت إليهم هؤلاء وقالوا: ألم يأتكم نبأ أن الإسلام هو أول شريعة طبقت النظام الاشتراكي؟ يقولون ذلك ويتجاهلون في الوقت نفسه كل ما ياباه الإسلام من نواحي الاشتراكية ويخالف فيه. وإذا ظهر غداً من يدعو بيننا إلى لقب مذهبي جديد مثل (المشاعية) مثلاً ويهيب في ادعاء مثاليته، فلن يتوانى هؤلاء أن يهّبوا فيقولوا: وهل أخذتم هذه (المشاعية) إلا من الإسلام؟ وهل هو إلا أول مناد بالمشاعية؟

فانظر أنت، وقل لي ما الذي يدل عليه هذا الصنيع؟ أما أنا فالذي أراه أنه يدل على عدم تبصّر هؤلاء الناس بشخصية الإسلام أو اعتدادهم بها.

وشخصية الإسلام هي أنه يأوي إلى ركن متين من الانسجام مع الفطرة البشرية العامة، ثم يسعى بها في سبيل الرقي والسعادة من كل جانب. وهي شخصية قديمة قدم الإسلام نفسه؛ لم يكتسبها من مذهب ولم يقتبسها من أمة أو دولة، ولم يتحَبَّب بها إلى أي طائفة أو جماعة.

لم يقل للرومان - وقد كانوا حديثي عهد بتقرير حقوق الملكية الفردية ومفتخرين بنظامهم ذاك - : هلمّوا إليّ فأنا الذي أقرر حق الملكية الفردية وأنادي بها. ولم يقل لخلفاء ليكورغوس والمفتونين بأحلامه الاشتراكية: تعالوا إليّ فأنا الذي أحق لكم حلم ليكورغوس وطبق مبادئ الاشتراكية أو الشيوعية. ولم يقل لأنصار أفلاطون والمعجبين بجمهوريته وديمقراطيته: أقبلوا - ويحكم - إليّ فأنا الذي أهى لكم الجمهورية الديمقراطية الحقة. لم يتحَبَّب الإسلام إليهم بشيء من هذا الكلام، ولم يقل لهم كلمة من ذلك؛ لأن حاجة البشرية ليست الحاجة إلى نظام رأسمالي مستقر أو مذهب اشتراكي كلي، أو اتجاه شيوعي مطلق؛ ولكنها الحاجة إلى نظام إلهي يسير بالعباد في صراط عادل مستقيم، تشيع فيه السعادة وتتحقق به حكمة إيجاد هذا الخلق، ألا وهو ابتلاؤهم بزينة الحياة الدنيا، وتفضيل بعضهم على بعض في الرزق، ليمتحنهم في مجال التكافل والتعاون؛ وهو نظام ذو شخصية خطيرة مستقلة لا معنى لمحاولة إيجاد التجانس بينها وبين الجوانب الجزئية التي تعلقت بها وحدها عقول بشرية ضعيفة.

ولا ريب أن النزول بالنظام الإسلامي - بعد هذا - إلى درك نتاج هذه العقول البشرية الصغيرة، جهل أو تجاهل لحكم النظام نفسه، وغفلة عن شخصيته التي صاغها خالق الكون ومدير شؤون العباد، وهي غفلة قد لا تغتفر.

خاتمة القول

ثم إن كل ما تحدثنا عنه إلى الآن من النظم الاقتصادية في الإسلام إنما هو شكل. وكل شكل يحتاج إلى أرضية ثلاثية، كي يتقوم بها ويظهر عليها، ومن دون الأرضية المناسبة لا يظهر للشكل أي تجسم أو حقيقة.

اقتطع من مجموع شريعة الإسلام نظامه الاقتصادي هذا، ثم اذهب به إلى أمريكا فاعرضه على المسؤولين والمفكرين، فإنهم قد يقتنعون به نظاماً، ولكنهم لن ينجحوا بحال من الأحوال في تطبيقه.

والسبب أن الشكل لا يستقيم من دون أرضية، والنبت لا يتزعرع من غير تربة مناسبة، والصرح لا يرتفع على غير أساس.

وأرضية النظام الإسلامي، وتربيته، وأساسه، هي العقيدة والإيمان، فإذا اعتقد الفرد بأن هذه الشريعة شريعة لم يؤلفها إنسان ولم يخترعها مخترع، وإنما هي تنزيل من لدن فاطر الكون كله.. وإذا علم قصة هذا الكون، والسر في بدايته، والمآل بعد نهايته، وآمن بنفسه ووظيفتها في الوجود، وعلم أنه ليس ريشة تعتصفها رياح الكون حيناً من الوقت، وإنما هو عبد خلقه الله ليؤدي عملاً ويقوم بأعباء رسالة، وأنه باعته بعد الموت فمحاسبه، فمثيبيه أو معاقبه، إذا آمن الفرد بهذا واستيقنته نفسه، كان من اليسير عليه أن ينسجم مع نظام الإسلام في كل فروعه وأحكامه، إذا قيل له: هذا هو حكم الله في الربا، بادر إلى تعرف ذلك الحكم ثم إلى الوقوف عند حده، سواء ظهرت له حكمة التحريم وسببه أم لم يظهر له شيء يوجب ذلك، لأنه في الحالة الأولى يعلم أنه يدين لنظام صحيح، وفي الحالة الثانية يعلم أنه يسعى إلى مرضاة مولاه وخالقه. وإذا قيل له هذا هو حكم الله في (الرشوة) أنه حرام. أصبح اسم الرشوة في سمعه مثل اسم السبع الضاري، وغدا يقدم - وهو على كرسي وظيفته - إلى قاصديه، ضميره المؤمن الحي بدلاً من أن يقدم إليهم يد المسألة والطلب.. وإذا قيل له: إن الله تعالى يقول: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: 5/2]. بادر فربط وشائج الألفة والتعاون الأخوي بينه وبين من يحدث القرآن أنهم إخوته لأب واحد، وجانس جهد طاقته بين مصلحته ومصلحتهم على السواء.

أما إذا كان ذلك الفرد خالي القلب من تلك العقيدة، فهو قد يقتنع بنبل النظام الإسلامي من الوجهة الفكرية المجردة، غير أنه لن يجد لنفسه سبيلاً إلى العمل بذلك النظام، إذ إن معظم مبادئه وأحكامه مبني على أساس من حياة الضمير ويقظة الإيمان في القلب. فهو قد يوافقك على أن القمار شيء منكر، وعلى أن فريضة الزكاة شيء نبيل، غير أنه بحكم عدم ارتباطه بعقيدة جازمة عن الله وبقية أركان الإيمان لا يجد السبيل ميسراً أمامه إلى أن يحسب وارادات أمواله وتاريخها الزمني، حتى إذا حال الحول على نصابٍ عنده هرع فأخرج منه زكاته وسلمها إلى المستحقين، كما أنه لا يحس بروادع كافية لإقلاعه عن الاشتغال بالقمار. أما الفروع التي لا يهتدي إلى تحليل حكماتها وأسبابها، فهو لا يكاد يصبر على أن يناقش فيها فضلاً عن الإقرار بها، ذلك لأنه يفكر فيها على أنها من وضع بشر مثله لا ينتزه عن النقص والسهو والإغراض..

من أجل هذا كانت عناصر الإسلام متشابكة مترابطة، لا يغني بعضها عن الآخر أي غناء. والعناصر الرئيسية هي: العقيدة، والعبادة، والتشريع. فالعقيدة ضمان لتطبيق التشريع وتكامل القناعة به، والعبادة ضمان لبقاء العقيدة مستيقظة حية في الضمير.

ومن خلال الكلام الذي قلناه يتضح سبب تقصير معظم الدول الإسلامية في تطبيق شريعة الإسلام. ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول: إن مجرد رضا الفرد أن يلقب بالمسلم لا يهيئ له أن يرتبط بنظام الإسلام، لا سيما في مجتمع تعصف فيه تيارات الأهواء والمدنيات الغربية المتنوعة. إن مثل هؤلاء الأفراد لا يجوز بحال ما أن تحاول الربط بين سلوكهم الشخصي وشريعة الإسلام، كما لا يجوز أن تؤخذ شريعة الإسلام بعمل من أعمالهم أو هفوة من هفواتهم.

إننا نطلق على هذه الدول اسم: الدول الإسلامية، ونعني بالعامية تلك التي تتولاها الدولة في المدرسة والمكتبة والشارع، لا التي يتولاها الآباء في البيوت، فليس لذلك كبير شأن تجاه التربية العامة. وليس هو النقص فقط.. ولكن هناك تربية عكسية يعنى بها على الغالب، وقد تكون الجهات الشعبية كالصحافة والأدب والفن، هي المسؤول المباشر عن هذه (التربية العكسية) غير أن القسط الكبير من التبعية عائد على الحكومات التي لا شك أنها هي المسيطرة على تلك الجهات.

وإذا كان معظم الأفراد ينشؤون نشأة غريبة عن مقومات الإسلام أو يتساهل معهم - على أقل تقدير - في شأن التربية الإسلامية الصحيحة في هذا الجو المحموم بسموم الرذيلة البراقة، فمن البدهي ألا تنتظر منهم عناية بالشريعة الإسلامية أو حماساً نحو تطبيقها أو تطبيق شيء منها، ومن المتوقع - غير الغريب - أن يجيبك أحدهم عندما تشرح له حكم الإسلام في الربا أو الزكاة، جواب الأوربي الذي لم يسمع باسم الإسلام، فيقول: لقد ذهبت العصور الوسطى بظلماتها، ولن ينقلب النور ثانية إلى ظلام!

وفي هذه الحال لن تستطيع أن تعتبر الإخفاق الخلقي بين هؤلاء الناس إخفاقاً في نظرية الإسلام نحو الخلق. ولن تستطيع أن تسمي سوء الوضع الاجتماعي بينهم إخفاقاً لمعالجة الإسلام شؤون المجتمع، لأن علاقتهم بالإسلام لا تزيد في الجملة عن نسبة عائلية تسندهم إليه. ومن ثم فإن عدم تطبيق النظام الإسلامي بيننا ليس حجة على أنه نظام غير واقعي.

ولقد قلنا في معرض الحديث عن المذهب الشيوعي إنه مذهب غير قابل للتطبيق، وإن أعظم شاهد على ذلك مرور أربعين سنة على جهاد دعاته في سبيل تحقيق ذلك المذهب دون أن يستطيعوا تطبيق ركن كامل من أركانه. ولقد حانت المناسبة الآن لأن نتساءل: أفلا يمكن أن يكون الإسلام أيضاً نظاماً نظرياً غير قابل للتطبيق؟

وفي كلامنا الذي مضى الآن شيء من الجواب عن هذا السؤال، وهو: أما عصرنا هذا، وحال معظم المسلمين الذين فيه، فلا يعتبر قياساً بحال من الأحوال، لأننا قلنا إن علاقتهم بالإسلام لا ترتفع عن نسبة تراثية تسندهم إليه، ولم يتوافر لهم من التربية الإسلامية العامة ما يدخل إلى أفئدتهم الإيمان الصحيح به فضلاً عن الحماسة والاندفاع في سبيل تحقيق شيء من شرائعه. بينما الشيوعيون في روسية استماتوا - كما قلنا - أربعين سنة في سبيل تطبيق الشيوعية عندهم، وأزهقوا ملايين الأنفس في سبيلها، واقتلعوا بلداناً من الأساس تضحية لها، ومع ذلك لم يستطيعوا تحقيق ركن واحد من أركان الشيوعية الهامة التي ذكرناها.

لقد قلنا عن الشيوعيين ونقول الآن أيضاً: (إن جميع قادة الحركة الشيوعية من لدن ماركس إلى خروشوف، أناس مخلصون كل الإخلاص لمذهبهم ولا نستطيع أن نتهم أحداً منهم بأنه عمل على

عرقلة النظام الشيوعي والحيلولة دون تطبيقه، ولكن الشيوعية مع هذا بقيت في معزل عن الواقع).

ونقول الآن عن المسلمين في عصرنا: إن معظم المفكرين والكتاب في كثير من البلاد الإسلامية أناس غير مخلصين لمذهبهم - أي لدينهم - ولا نستطيع أن نتأكد أن حتى البعض منهم يود قيام نظام إسلامي صحيح، بل إن بينهم من يبرأ عملياً من الإسلام، في الوقت الذي يصر أن يكتب على بطاقته الشخصية: مسلم.

فكيف تمكن المقابلة والاستنتاج على هذا الأساس غير المتكافئ؟

ولكن إذا أردنا أن نقف على جواب هذا التساؤل بحق، فإن علينا أن نرجع إلى التاريخ. أليس الجميع يعلم أن النظام الإسلامي استقر تطبيقه كاملاً وبدأ يغزو العالم بعد ثلاثة عشر عاماً فقط من دعوة رسوله إليه؟ والمسلمون قلة وهم وبلادهم غير ذي أهمية في أعين قادة العالم إذ ذاك.

أليس الجميع يعلم أن الدنيا كلها وجدت في نظامه الجديد، الحضارة المثلى، والسعادة الكاملة، والمجتمع الرخي الأمن، فراحت الدول والبلاد من روم وفارس تدخل في ذلك الدين أفواجا، ثم سرعان ما انسجم الكل مع دستوره ونظامه.

أوليس الجميع يعلم أن العهد الذي يضرب به المثل في شيوع العدل والقوة والسعادة الاجتماعية إلى اليوم هو عهد أبي بكر وابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز.. وأن الزكاة كانت يطاف بها إذ ذاك على الناس بحثاً عن مستحقيها فلا يجدون لها فقيراً مستحقاً فيعودون بها إلى مال الدولة؟ أوليس الجميع يعلم أن (أم القرى) التي انطلقت دعوة الإسلام منها، أصبحت أمّاً لدنيا شاسعة تمتد من بلاد الصين شرقاً إلى أواسط بلاد أوربة غرباً، كلها تتمسك بهدي الإسلام وتطبق تعاليمه، قبل أن يمر قرن واحد من ظهور دعوة الإسلام؟

هذا هو واقع النظام الإسلامي حينما كان أهله مخلصين له ومؤمنين به. فهل تجد بينه وبين واقع المغامرة الفاشلة التي دخل غمارها قادة الشيوعيين أربعين عاماً ثم لم يخرجوا بشيء، لم يخرجوا بأي نسبة تدعو إلى التفكير والمفاضلة؟

ولكي تزداد إيماناً بأن شريعة الإسلام إنما هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قارن بين السرعة العجيبة في انتشارها في معظم أصقاع الدنيا وبين سرعة انتشار أي نظام آخر لا في أصقاع الدنيا كلها بل في الجهة التي ظهر فيها فقط.

غير أن للمسلمين الذين يكرهون الإسلام حجةً طريفة جداً يسوقونها للاستدلال على عدم صلاحية الإسلام للتطبيق في زعمهم.

والحجة، هي أن الإسلام المصفى عن الشوائب لم يطبق كاملاً أكثر من قرن واحد، ثم تتالت سيئات الخلفاء وانحرافاتهم فلم يطبق الإسلام كاملاً، وأصبحت له فترات مثالية متقطعة.

والطريف المضحك في هذه الحجة أن الذين يسوقونها هم المسلمون الذين يبغضون الإسلام، بحيث لو قيل لهم إن نظام الإسلام سيعمل به عما قريب هنا، لنادوا بالويل والثبور، لأن نظامه سيصبح إذن ممكن التطبيق وغير نظري مجرد كما يؤكدون!!

لقد قلنا عند حديثنا عن الشيوعية: (إن عدم تطبيق نظام من الأنظمة، حينما يكون بسبب إهمال وكسل أصحابه، أو حينما يكون بسبب عدم إخلاصهم له فلا شك أن ذلك يعتبر عيباً فيهم لا في

النظام، بل من الظلم أن يحمل النظام جريرة اقترافها أصحابه المسؤولون). وما دمننا جميعاً نعلم أن الإسلام سرعان ما انسجم نظامه مع النفوس قبل أن تمضي على الدعوة إليه زمن طويل، ثم عاش قرناً من الزمن وهو يسود معظم رقعة الدنيا، ويطبق كاملاً أدق ما يكون التطبيق؛ فهو إذن نظام واقعي أقل ما يقال فيه أنه لا عيب يوجد من جانبه يستعصي بسببه على التطبيق. وفعلاً لقد ساء وضع كثير من الخلفاء بعد ذلك، وركنوا إلى ظلم لم يأت به الإسلام، أو ترف لم يقرّه يوماً ما تشريعه. غير أن ذلك - أولاً - لا ينافي أن شريعة الإسلام في مجموعها ظلت سارية المفعول في المجتمع وظل نظامه يسود ويسمو على كل أنظمة الدنيا المعروفة إذ ذاك. والناس بعد ذلك، ملوكاً كانوا أم رعايا، غير معصومين ومنزهين، حتى نتوقع أن تكون حياتهم نموذجاً لحياة الرسل والأنبياء.

ثانياً: ولنفرض أنه جاء من بعد الصدر الأول من أساء إلى الإسلام فأهمل شيئاً من تعاليمه، فذلك لا يعتبر كما قلنا عيباً في الإسلام نفسه، وإنما هو عيب فيمن أهمل وأساء. وأنت أمام إساءتهم وإهمالهم إما أن تكره تلك الإساءة وتنتقدها - كما ينتقد المؤرخون الآن سلوك بعض الخلفاء في حياتهم - فعليك إذن أن تعتبر، وأن تدعو إلى البعد عن مثل تلك الإساءة أو ذلك الإهمال، وإما أنك تنظر - كصاحب العين الحولاء - إلى الظالم، ثم تسب وتتهجم على المظلوم، وإلى المسيء، ثم تنحي باللوم على المساء إليه، فذلك أحد شيئين: إما هو حَوْل في العين أو حَوْل في العقل. أو هو (تحاول) مصطنع لكي تنتشف من الملموم والمساء إليه، بسبب بغض أو حقد في نفسك عليه.

وبعد، فقد كنت أخذت على نفسي أمام القارئ أن أستعرض كلاً من المذهبيين؛ الشيوعي و الإسلامي، على أساس علمي غير متحيز، في مقابل أن يتلقى هو أيضاً ذلك بفكر متحرر غير متأثر بهوى أو عاطفة أو تقليد.

وأرجو أن أكون وفقت للوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسي. وأرجو أن يكون القارئ أيضاً استطاع أن يستمع إلى حديثي معه دون أيّ هوى أو ميول من وراء الفكر الذي في رأسه.

وإذا كان كل منا قد وفى بعهده فإن النتيجة تصبح واضحة، ليس عليها غبار، وما أحسبنا نختلف حولها، وهي:

لا غنى للمسلم عن اتباع شريعة الإسلام، وليس غير الخالق أعلم بما يصلح لعباده الذين خلقهم.

والحمد لله رب العالمين

19 محرم سنة 1379هـ

26 تموز سنة 1959م

مراجع الكتاب

القسم الأول

- رأس المال: كارل ماركس.
- تاريخ الحزب الشيوعي: (من المؤلفات الشيوعية المترجمة).
- الاقتصاد السياسي: الدكتور علي عبد الواحد وافي.
- كارل ماركس: ترجمة العيتاني.
- قصة الملكية في العالم: دكتور علي عبد الواحد وافي، والدكتور حسن شحاتة سعفان.
- القسم الثاني
- الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري.
- الأم: الإمام الشافعي.
- سبل السلام: الصنعاني.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام: عز الدين بن عبد السلام.
- النهاية: ولي الدين البصير.
- تفسير ابن كثير: ابن كثير.
- رد المحتار على الدر المختار: ابن عابدين.
- بداية المجتهد: أبو الوليد ابن رشد القرطبي.
- الأموال: أبو عبيد بن سلام.
- قصة الملكية في العالم: الدكتور (وافي) والدكتور (سعفان).
- عمر بن الخطاب: علي الطنطاوي.

دفاع عن الإسلام والتاريخ
وهو ردٌّ على بعض ما جاء في كتاب (التاريخ العباسي)
للأستاذ شاكِر مصطفى

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد، فقد أطلعني أحد الإخوان على كتاب (التاريخ العباسي) للأستاذ شاکر مصطفى - وهو كتاب لم أسمع عنه إلا منذ حين - وأظهر رغبة في بعض بحوثه، وطلب إلي أن أتصفحه وأبدي رأيي فيه.

وقرأت الكتاب، فإذا به يحمل بين غلافه مغالطات بيّنة في كثير من حقائق تاريخنا العربي الإسلامي، وتهجماً جريئاً بأسلوب لبق على صفوة من القادة المسلمين الذين لم أجد إلى الآن مسلماً يجرو أن يחדش شيئاً من جانبهم، أو يتلمس مطعناً في حياتهم، لا خوفاً من السنة النقد، ولكن يقيناً بأن تاريخهم الناصع الطهور أسمى من أن يعلق عليه ريب أو يتماسك فوقه نقد. عدا أن المؤلف يخلط في كثير من حقائق الإسلام، ويجانب الصواب فيما حمل نفسه عليه من تحليل وشرح للمذاهب المتفرعة فيما يتعلق بشؤون العقيدة الإسلامية.

ونظرت، فإذا بالكتاب قد تسلل إلى الأيدي منذ ما يقارب سنتين، وأمعت، فإذا ببحوته تلقى على طلابنا العرب المسلمين من قبل ذلك! ولم أسف لمغالطات هذا الكتاب وما فيه من دس، أسفي مرور كل هذه الحقبة الطويلة عليه دون أن ينتبه أحد من المسلمين في هذا البلد إلى تلك المغالطات فضلاً عن أن يكشف عنها ويفضح ما تنطوي عليه من تمويه لكثير من الحقائق ومواربة صريحة فيها.

والكتاب - بعد الإعراض عما فيه من لحن وأخطاء لغوية - قاموس استشراقي كل عمله هو تخليد آراء المستشرقين في تاريخنا وقادتنا وديننا في غاية من التقديس والاحترام والقبول، ولقد كنت أقرأ بحوث هذا الأستاذ البارحة في هداة الليل، فلا والله لم أكن أستطيع أن أتخيله - وهو يضع الخطوة من بحثه إثر ما يقرره المستشرقون تماماً، لا ينحاز بها ذات اليمين ولا ذات الشمال - إلا كرجل عدا عليه لص فداهم بيته فتمكن فيه؛ فجاء هذا وقد عصّب عينيه وما هو بأعمى، وأصمّ أذنيه وما به من صمم، فألقى إليه يمينه يتزلف إليه أن يرشده إلى مرافق داره وزواياها وأمكنة الثروة فيها!! وحسبك من كاتب عربي مسلم أن يرجع إلى (كريم) ليقف من هناك على نص لابن حزم أو الطبري أو الشهرستاني، ولا يشعره ضميره بوجوب العود إلى المكتبة العربية نفسها التي هي ملك يده وإرثه من أجداده، ليقف هناك على ما يريده منتبهاً من صحته، آمناً من تحريف النقل والترجمة!! وليت شعري هل ينتزل أصغر طالب أوربي أن يتبنى نقلاً عن (كريم) مثلاً عن طريق الرجوع إلى كتاب شاکر مصطفى أو أي شخص أجنبي آخر، وتطمئن بذلك نفسه، فلا يشعر بما يدعوه لمراجعة كتاب كريم نفسه تثبتاً واعتزازاً؟!!

وبعد، فمعظم فصول هذا الكتاب إن لم تجد فيه خدشاً لقدسية الدين، فلا بد أن تبصر فيه تمويهاً لبعض حقائق التاريخ، والفصل الذي لا تقف فيه على شيء منهما، لا بد أن يقف بك على حظ من كرامة العرب أو طعن في سيرة بعض القادة المسلمين... وحسبنا أن نكتفي (الآن) بسررد جملة من هذه المغالطات والكشف عن غطائها وفضح أساليب الدس والافتراء فيها، كي يحمل ذلك كل مسلم صادق في إسلامه أو عربي معتز بعروبته على الاستنكار، ولكي ينتبه إخواننا طلاب الجامعة إلى أن مغالطات خطيرة تلقى على مسامعهم باسم الحقيقة والتاريخ.. فعسى أن يقيموا من وعيهم

المتثبت الدقيق حاجزاً حصيناً يبعد من حولهم كل تلاعب بتراث تاريخنا الذي لا نملك أن نمن منه اليوم ^[69].

العرب و الموالى

يتكلم المؤلف في صدر الكتاب عن حالة العالم الإسلامي في نهاية العهد الأموي ويتطرق بذلك إلى البحث في الحالة الاجتماعية إذ ذاك والحديث عما أسماه: (العرب والموالى) وهو يفهم من كلمة (الموالى) أنها تعني سائر الأمم والفئات الأعجمية التي تغلب عليها العرب في أثناء فتوحاتهم الإسلامية سواء كانوا أحراراً أم عتقاء أم عبيداً. وهو يقرر أن الفتح الإسلامي سرعان ما تبدى واستحال إلى فتح سياسي انشق بسببه المجتمع الإسلامي إلى طبقتين: «السادة العرب ومنهم صاحب الرسالة، وأصحابه والعائلة المالكة والقواد والولاة، وبعض كبار المالكين وشخصيات الدولة وجانب من الرعية؛ ثم طبقة الموالى وهم ذلك الخليط من الشعوب المغلوبة من روم وفرنس و.. إلخ. ومن كلمة الموالى، وهي أوسع التسميات انتشاراً، معنى العبيد أيضاً، ولعل لهذه الملاحظة دلالتها.. (كذا!)» ص8. كما يقرر أن هؤلاء الموالى - على حدّ ما يعنيه - كانوا على جانب كبير من الحقارة والامتهان في نظر السادة العرب: «.. إن العربي خلق ليسود، وخلق غيره لكسح الطرق وخرز الخفاف وحوك الثياب» ص7، وإن الموالى «إذا استخدموا في الأعمال الكتابية والجباية فإنهم أبعدوا عن الوظائف النبيلة» ص8، «هذا إلى أن المولى محتقر في المجتمع فلا يخاطبه العربي بالكنية. وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاث: حمار أو كلب أو مولى... كما بحث الناس موضوعاً غريباً هو: هل يستطيع الصالحون من غير العرب الزواج من العربيات في الجنة!» ص9. وهي اتجاهات نقل المؤلف معظمها من أمثال غولد زيهر اليهودي الأصل... وكريم المعروف بعدائه السافر للمسلمين ودينهم، وهم يحاولون بذلك أن يثبتوا في الأذهان أن الفتح الإسلامي لم يكن من العدالة إلى الدرجة التي أشاع عنها المسلمون، وأن العرب سرعان ما أسكرتهم نشوة الظفر بعد كل ما اعتادوه من شتات وذل؛ فعمدوا إلى استعمار الدول التي فتحوها، واستعباد الأمم التي تغلبوا عليها!.

ونحن نبدأ فنسأل الأستاذ المؤلف: من أين له أن (الموالى) تطلق على المغلوبين من غير العرب عامة، أو «الرعايا من غير العرب» على حد تعبيره الذي ذكره في تعليقه عند هذا الكلام؟! إن كل ما تدور حوله هذه الكلمة مما يتعلق بما نحن في صدده لا يتجاوز طائفتين من المعاني؛ فأما أولاهما فهي: الناصر، والحليف، وكل من أسلم على يدك. وأنت ترى أنه ليس واحد من هذه المعاني الثلاثة يختص بالرعايا من غير العرب. ولقد اعتبر العرب عبد الله بن إسحاق مولى للحضرميين، والحضرميون أنفسهم موالٍ لبني عبد شمس بن عبد مناف حتى قال الفرزدق:

فلو كان عبد الله مولى هجوته

ولكنّ عبد الله مولى مواليا [70]

وأما الطائفة الثانية مما تطلق عليه (مولى) من المعاني، فهي كل ما يتعلق بمعنى الرق من السيد المسترق والعبد الرقيق، والسيد المعتق والعبد العتيق [71].

أما إطلاق هذه الكلمة على الأعاجم وتمييزهم بها عن العرب فتحقيق ذلك يحوجنا إلى أن نفهم ما يلي:

أولاً: هذا الإطلاق يرجع إلى أحد معاني الكلمة القديمة وهو: كل من أسلم على يدك أو كل من اتبع قوماً وأصبح حليفاً لهم، ولذلك فإنه لا يطلق على الأعجمي غير المسلم أو غير المحالف لقوم مولى.

ثانياً: شاع هذا الإطلاق أخيراً، ويبدو أنه إنما اشتهر عن طريق ثلة من متقدمي المستشرقين، أما المتقدمون من المؤرخين والباحثين المسلمين فلم يقصد أحد منهم بالمولى في أثناء بحثه إلا من كان رقيقاً أو كان من آبائه من استرق أو من ارتبط بحلف مع بعض القبائل دون نظر إلى عنصرية أو لغة.. ومن ثم فهي تسمية لا شأن لها بالعجمة بل كل من تبع شخصاً أو أسلم على يديه يعتبر مولى له، كما مرّ الدليل على ذلك في كلام الفرزدق. وغاية هؤلاء المستشرقين من تحوير معنى هذه الكلمة وتخصيصها بالأعاجم هي تقسيم الوحدة الإسلامية إلى طائفتين: عرب يحتكرون لأنفسهم السيادة، وأعاجم يعتبرون في نظر العرب كالعبيد، وتستطيع أن تفهم هذا واضحاً من العنوان الذي أطلقه (فان فلوتن) على كتابه وهو: (السيادة العربية) [72].

ومما يؤسف له أن يصمّ المؤلف أذنيه عن المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وأن يجعل المراد منها عامة المغلوبين من غير العرب، كي يدمغ بالنصوص التي ساقها لنا مما يستدل بها على كراهية العرب للموالي كافة ذلك الخليط من فرس وروم وترك وإلخ، وذلك على حساب العرب أنفسهم، مع أن الحقيقة تبرأ إلى الله مما يزعم ويقرر.

ونحن نستطيع أن نحسن الظن بالمؤلف فنقول: إن هذا الالتواء في تفسير الكلمة إنما هو من خبث المستشرقين الذين نقل عنهم، بل نحن على يقين من ذلك؛ ولكننا على كل حال لا نجد بداً من أن نقول له: أي دين هذا الذي جعلك تتعبد بأراء المستشرقين؟ أم أي بشر هذا الذي قال لك إنك لا تملك عقلاً ينقد ويفكر حيال عقولهم وأفكارهم؟ أم أليس لكم عقل يثور ويتحرر ويرتفع إلا فوق قوانين مبادئنا وإسلامنا..؟!

ثم إننا قد أسقطنا - بهذه المقدمة التي أتينا عليها - نصف ما يدعيه الأستاذ المؤلف، وكل ألفاظ (المولى) و(الموالي) التي ساقها في النصوص المنقولة عن العرب مما يستدل به على مدعاه، لا يعني سوى الأرقاء والمعتقين، وليس لذلك كله أي علاقة بالأمم الأعجمية من حيث إنهم أعاجم. ونحن نقول بعد ذلك: إننا لا ننكر أن كثيراً من الخلفاء الأمويين كانوا يتبعون في سياستهم تفضيل العنصر العربي على غيره، ولكننا ننكر أن يكون جميع العرب من المسلمين ساروا في تاريخ ما من العصور على اعتبار أنهم سادة لهم السطوة والجاه، وللمغلوبين من غيرهم الذل والصغار، ودعوى ذلك أمر يحتاج إلى أدلة وإثباتات علمية لا حكايات أقوال عن مجهولين دون سند أو تحقيق.

والذي يريد أن يدرس تاريخ العرب من هذه الوجهة في إمعان وصدق، لن يفوته القانون الذي شرعه لهم الإسلام حيال الموالى والعبيد من أول يوم في تاريخه، ولن يجهل أن عامة العرب المسلمين سارت على نهجه وتمسكت به أحسن ما يكون التمسك. فأما القانون، فهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم للعرب: «إخوانكم خولكم، جعلهم الله قنينة تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه..» وأما السير على نهجه فقد كان سائداً في كل العصور والأزمنة، من عصر الخلفاء الراشدين إلى أن انقرض شيء اسمه الموالى. وكلمة (سائداً) لا أظنها تحتاج إلى تفسير، وإنما يحكم التاريخ بميزان ذلك لا بتلقف المصادفات الشاذة أو النادرة أو العابرة في لمحة من زمن...

والمؤرخ الذي يبغي من وراء عمله خدمة الحقيقة والكشف عنها لن يجهل أن عمر بن الخطاب لقي نافعاً، وقد قدم للحج، وكان قد استعمله على مكة؛ **فقال:** من استعملت على أهل الوادي؟ **فقال:** عبد الرحمن بن أبزى، مولى من مواليها، فسأله عن حاله، **فقال:** إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفقه والفرائض، فسرَّ عمر، و**قال:** أما إن نبيكم **قال:** إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع آخرين؛ ولن يجهل أن عطاء بن أبي رباح - وهو مولى بني فهر - تولى إفتاء مكة؛ وكان ينادي منادي الخليفة الأموي في موسم الحج: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، وكان على دمامته وسواد شكله يتبوأ أرفع مركز شعبي بين العرب، ولعل الخليفة الأموي كان يتمنى لو حصل هو على مثل ذلك؛ ولن يجهل أن طاووس بن كيسان - وهو فارسي - كان لا يبالي أن يوبخ الخلفاء ويستعلي عليهم، وكانوا يتسببون إلى رضاه وتمتلى قلوبهم هيبة له وإجلالاً، وسارت جنازته حينما مات فوق رؤوس عربية مطأطئة خاشعة تتجاوز العد والحصر؛ ولن يجهل أن نافعاً مولى ابن عمر كان إماماً في عصره انتهت إليه الصدارة في علوم الحديث والتشريع، وكان يحف به التعظيم والتبجيل أينما حل؛ ولن يجهل أن أبا رويم نافع بن عبد الرحمن - وهو مولى أيضاً - كان إماماً ذا شأن عظيم في حينه، وكان رجال الدولة كلهم يقدرون شأنه ويتسابقون إلى رضاه؛ ولن يجهل أن واصل بن عطاء المعتزلي مولى بني ضبة كان زعيماً في الأدب واللغة والعلوم، لم ينازعه الزعامة فيها أي منازع، ولم ينكر فضله وسموه أي إنسان؛ ولن يجهل أن عبد الله بن سليمان مولى بني مازن، كان كما قال المبرد من جلة الرجال، نازع عمرو بن هداك المازني - وهو في ذلك الوقت سيد بني تميم قاطبة - فظهر عليه المولى، حتى أذن له في هدم داره، فأدخل العمال دار عمرو، فلما فلع من سطحه سافاً كف عنه، ثم **قال:** يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو؛ ولن يجهل أن أبا عبد الله مكحولاً الشامي - وهو مولى لامرأة من هذيل - كان مفتي الشام. وكان الأمراء يغشون مجلسه ويأخذون من علمه؛ ولن يجهل أن كثيراً غير هؤلاء من الموالي كانوا يتمتعون بين العرب بالجاه والرفعة والسلطان، ولم يقل واحد من العرب عن أحد منهم مستنكراً ما لهم من مكانة وفضل: إن الموالي إنما خلقوا لغرز الخفاف وكسح الطرق؛ فما بالهم ينازعوننا زعامة الأدب والاجتماع والعلوم؟

ومن المؤسف أن ينساق المؤلف وراء المستشرقين فيقرر ما ادعوه من أن السر في كون الموالي برعوا في العلوم والآداب والتشريع حتى كان منهم جل القضاة والأئمة، هو محاولة تعديل نقصهم الاجتماعي. وهذا الهراء خبث تبشيري يقصد منه الروغان عن حجج التاريخ المكذبة لهم والملزمة إياهم كما ذكرنا الآن. غير أن العربي اللبيب لا يصعب عليه أن يدرك من تراجم سائر من ذكرناهم وأمثالهم أن الموالي الذين برعوا في العلوم، إنما حملهم على ذلك دينهم الذي دخلوا فيه بصدق وإخلاص، وها هو ذا أبو حنيفة النعمان - وهو من الموالي على حد فهم الأستاذ شاكر - لماذا لم يتهافت على مركز القضاء والوظائف النبيلة في الدولة، مادام أن الذي دفعه إلى الرقي في العلوم والمعارف هو ضمان مكانته الاجتماعية، مع أن المنصور عرض عليه وظيفة القضاء وألزمه بها إلزاماً، وهدده إن لم يقبلها بالضرب والجلد، ولكنه عزف واستعلي وتمنع، ولماذا لم يقبل طاووس القضاء سوى أيام.. ثم استعلي عنه مستغنياً ومتعففاً؟

ثم إننا كنا نريد من الأستاذ المؤلف أن يكون ثبناً دقيقاً، وأن يحترم الأسلوب العلمي في البحث، فيذكر لنا بدقة من هم الذين كانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاث: حمار أو كلب أو مولى. ومن

هم الذين عممهم وسمّاهم: (ناساً) حينما **قال:** كما بحث الناس موضوعاً غريباً هو: هل يستطيع الصالحون من غير العرب الزواج من العربيات في الجنة؟.

وإننا نقول: إما أن الأستاذ شاكراً لم يقف على أسماء الذين قالوا مثل هذا الكلام عن الموالى، وإنما تبناه سماعاً عن الأفواه أو نقلاً عن كتب الأجانب والمستشرقين، وحسبنا حينئذ أن نقول له: إن الأمانة العلمية والعربية تنافي هذا كل المنافاة. وإما أن الأستاذ وقف على مصدر مثل هذا الكلام، فلماذا مؤه وعمم إذن ولم يربط الكلمة بصاحبها أو النص بمرجعه؟

إنني أتحدى شاكر مصطفى وجميع الممخرقين المستشرقين أن يسندوا مثل هذه الأقاويل إلى غير بعض الجفاة من أعراب البادية (على أنهم لا يقصدون بالموالى في مثل ذلك إلا الرقيق المستملك) وكل ما في الحقيقة من هذه التهمة التي لطحوا بها اسم العرب عامة هي أن بعض جفاة الأعراب - كما نص المبرد في الكامل - كانوا لا يكرمون الموالى، ويتكلمون في حقهم.

أما (الناس) الذين بحثوا موضوع زواج غير العرب من العربيات في الجنة، فإنما هم أعرابي واحد من البادية سمعه الأصمعي يقول لآخر: أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة؟ **فقال:** أرى ذلك

والله، بالأعمال الصالحة. على أن المبرد نقل هذه القصة مضجعاً ثبوتها وأوردها بصيغة الزعم [73]. فانظروا أيها الناس ما يصنع هذا الرجل من التضليل والتضويه في النقل، حتى إذا رأى القارئون كلامه ظنوا أن (الناس) الذين بحثوا في ذلك هم جمهرة... وأنهم الفقهاء والأئمة الذين يسمع منهم فقط في العادة الخوض في مثل هذه البحوث، وإذن فهي مشكلة من صميم الإسلام ووحيه...!!

بأي عقل يجوز يا أستاذ شاكر أن تجعل كلمة من أعرابي في بادية، أو طبيعة في صدور بعض الأجلاف منهم، أو سياسة فضلها بعض خلفاء بني أمية؛ حكماً عاماً شاملاً يسري على تاريخ من الشعب العربي بشتى طبقاته وأفراده، لا حيال الأرقاء فحسب، بل حيال كل من تكلته أمه فلم يكن عربياً..؟ ولنفرض أن مؤرخاً جاء بعد قرن من الزمن يريد أن يسجل تاريخ الشرق الأوسط في القرن العشرين، فهل يجوز له أن يدوّن عنه ويقول: «... ومما ثبت من اتجاه العرب والمسلمين إذ ذاك أنهم كانوا لا يرون مذمة أو نقصاً في تسخير أنفسهم لخدمة الغرب والارتباط بأحلاف استعمارية لمصلحته»، لمجرد أنه عثر على حكومتين في تلك المنطقة جنمتا فوق صدر شعوبهما واصطنعتا لنفسهما مظهر العروبة أو الإسلام، ثم فضلنا أن نتقدا لخدمة المستعمر وأحلافه؟! ولنفرض أن حماراً من المستشرقين قام ينهق بهذه الفرية، فهل يكون من لوازم ذلك أن يقوم بعض العرب المسلمين الأعزة فيرددوا ما يقول؟

المرجئة و عقيدتهم

ثم يتحدث المؤلف عن الاتجاهات الدينية في العهد الأموي، ويتطرق إلى البحث عن (المرجئة) ومذهبهم، وهو هنا يسلم مقادته تسليماً تاماً لباحثين أجنيين لا يجهل أحد ممن سمع باسمهما وقرأ شيئاً من أبحاثهما مبلغ تحاملهما على الإسلام وتفانيهما في تمويه الحقائق بغية الكيد له. وأغلب الظن أنهما من أجل ذلك غنياً بدراسة التاريخ الإسلامي، إذ كانت بحوث التاريخ هي أسهل ما يمكن المغالطة والدس فيه، هذان الباحثان هما: فان فلوطن وفون كريمر.

يقول المؤلف ناقلاً عن كريمر: «.. إن هذه الفئة ظهرت بتأثير الكنيسة الإغريقية في دمشق، أي شاركت في تكوينها بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري»، ويُنْبَع المؤلف هذا الكلام مباشرة بقوله: «ويذكر الشهرستاني أن الحسن حفيد علي كان أول المرجئة، فكان الإرجاء - في رأيه - علوي المنبع».

فهذا الخلط الأول في التاريخ والتحليل إنما يشبه الخلط الآخر الذي يزعمون فيه أن الفقه الإسلامي مسروق من الرومان... وأن النبوة في الإسلام هي حلقة من سلسلة النبوءات التي عاشت في التاريخ العبري من سحر وكهانة وتنجيم.. وأن التدين نفسه شيء اخترعه الحكام للسيطرة على شعوبهم... ونظير هذا وذلك في باب السياسة زعمهم أن الجمهورية العربية المتحدة قد استحلّت واستعمرت العراق، وأن سيادة لبنان مهددة من قبل عبد الناصر، وأن جيوشهم تأتي لتحفظ لها هذه السيادة..! وصاحب الغرض والإحن، حينما يكون طليقاً من قيود الحجج والمنطق والإثباتات، يحدثك عن كل ما يشتهي ويتخيله ويحلم به ولا حرج؛ وذلك أقل ما يشفي به المغتاز غيظه. وإلا فمن أي مرجع أثبت كريمر أن مذهب الإرجاء ذو اتصال بأفكار الكنيسة، مع أن كل ما بأيدينا من مراجع ذات اختصاص مباشر بهذا الشأن ليس فيه أي إشارة يستأنس بها لزعم هذا الأفك؟ وهلا أتبع هذا - المؤرخ الخطير - حقيقته هذه بأصغر دليل عابر يبرهن على احتمال صدقه؟

أما الخلط الثاني الذي جاء به شاكر مصطفى ونقله من تخيلات كريمر - من زعم أن الحسن حفيد علي هو أول المرجئة - ففيه ما فيه من محاولة ربط (الكنيسة الإغريقية) بأهل البيت رضي الله عنهم. ولو لم يكن تقوّل على الشهرستاني ما لم يقله، مما يدلّ على أنه انتهى أن يوجد أسباب هذا الربط... لما اتهمناه بهذه المحاولة الخطيرة. ولكن براءة الإمام الشهرستاني من هذا الرأي إعلان صارخ بأن الأستاذ شاكر أو الذي نقل هذا الكلام عنه ليس بريئاً من هذه التهمة. أجل إن الرجل لم يقل قطعياً إن الحسن حفيد علي هو أول المرجئة، ولكنه ذكر - نقلاً عن بعضهم وبصيغة مضعّفة - أن «... من رجال المرجئة الحسن بن محمد بن علي وسعيد بن جبير وطلق بن حبيب وعمرو بن مرة ومحارب بن دثار».. إلخ، وعدّ نحو أحد عشر اسماً. ثم **قال:** ولكن هؤلاء كلهم أئمة الحديث لم يكفروا أصحاب الكبائر بالكبيرة... خلافاً للخوارج والقدرية. والمعروف أن كثيراً من المرجئة من الخوارج أو القدرية، حتى إنهم يُسمّون بمرجئة الخوارج أو مرجئة القدرية، ولنفرض أن يكون هذا النقل الذي ساقه الشهرستاني صحيحاً، ولكن من أين فهم المؤلف أنّ الحسن حفيد علي هو أول المرجئة، ولماذا لا يكون سعيد بن جبير - وقد نقل الشهرستاني في هذا القيل أنه هو أيضاً من رجال المرجئة - هو أولهم، مع أن الظاهر يقتضي ذلك؛ إذ إن سعيد بن جبير كان أقدم من الحسن حفيد علي، فلقد مات هذا في عام المئة بينما كان موت ابن جبير في سنة أربع وتسعين،

وكان يكبر في السن الحسين بن محمد^[74] على أن الشهرستاني نفسه نص على عكس هذا حينما عدّ فرق المرجئة وذكر اسم رئيس كل فرقة، كما سنبين الآن.

ثم إن المؤلف حاول أن يعطينا فكرة عن هذه الطائفة، ولكنه لم يزد على أن **قال:** «.. وليست لدينا معلومات دقيقة عن المرجئة» ثم أتى لنا بعد البحث بقصيدة لشاعر في عهد عبد الملك بن مروان، قال إنها: «.. أثمن نصّ يكشف لنا عن مبادئ هذه الجماعة التي كانت تعتبر - كما قال أحد رؤسائهم جهم بن صفوان - أن الإيمان عقد بالقلب، وإن أعلن المرء الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان ولزم اليهودية أو النصرانية فهو مؤمن كامل الإيمان عند ربه عز وجل». ولسنا ندري لماذا يحمل المؤلف نفسه تبعة دراسة هذا المذهب مادام أنه لا يجد معلومات دقيقة عنه إلا في ثنايا الشعر وقصائد الشعراء؟ ولقد كان خيراً له ألا يقحم نفسه في هذه الورطة التي لم يخرج منها إلا بأغلاط فاحشة وجهل واضح؛ وأولى بمن يتصدى لتدوين التاريخ أن يعكف قبل كل شيء على دراسة ما يريد أن يدونه للأمة ويقذف به إلى المطابع، حتى يتأكد من أنه على حق فيما يكتب ويدون.

يقول الأستاذ شاکر: ليست لدينا معلومات دقيقة عن المرجئة، مع أن المراجع المتوافرة في كل مكان تفيض بالحديث عنهم وعن كل ما يتعلق بمذهبهم ودقائق آرائهم، ومذهب المرجئة من أحد المذاهب التي أشبعت بحثاً ودرساً.

ويقول الأستاذ شاکر أيضاً: إن جهم بن صفوان أحد رؤوس المرجئة، مع أن كل من درس شيئاً من علم الكلام أو استعرض موجزاً لأنواع الملل والنحل في الإسلام لا يشك أن جهم بن صفوان رئيس (الجهمية) وهم فرقة تمسكت بعقيدة الجبر وزادت عليها بعض الآراء الأخرى التي ميزتهم

عن الجبريين، ولم نسمع أي كاتب أو مؤرخ يقول إن جهم بن صفوان رئيس المرجئة^[75]. ويقول الأستاذ شاکر: إن المرجئة يعتقدون أن المؤمن مؤمن وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان ولزم اليهودية والنصرانية، فليعلم الأستاذ أن أحداً من المرجئة على اختلاف فرقهم لم يقل هذا الذي يقول هو عنهم، وإنما هو رأي جهم بن صفوان وحده كما ذكر ذلك ابن حزم في الملل والنحل، وهو كما قلنا رئيس (الجهمية) لا المرجئة، أما المرجئة الذين **قال:** إنه ليس لدينا عنهم معلومات؛ فتفرع إلى ست فرق كما ذكر الشهرستاني في الملل والنحل. وهي اليونسية، والعبيدية، والغسانية، والثوبانية، والتومنية، والصالحية. والقدر المشترك فيما يعتقده هؤلاء كلهم هو أن الإنسان إنما يثاب على الإيمان وحده، ويعاقب على الكفر وحده، فلا اقتراف المعاصي يوجب عليه عقاباً، ولا كثرة الطاعة تزيد له ثواباً، ثم اختلفوا فيما بينهم في تحديد معنى الإيمان هل هو بالقلب أو اللسان، وما هي الأمور التي ينبغي أن يؤمن بها، ولولا خشية الإطالة فيما لسانا بصده لأتينا على ذكر آرائهم مفصلاً، أما رؤساء هذه الفرق فلا بدّ لنا من سرد أسمائهم لكي يتضح تماماً خلط ما ادعاه المؤلف على لسان الشهرستاني من أن الحسن حفيد علي هو رئيس المرجئة، فأما اليونسية فرئيسهم يونس السمرى، وأما العبيدية فرئيسهم عبيد المكبت، وأما الغسانية فرئيسهم غسان الكوفي، وأما الثوبانية فرئيسهم ثوبان المرجني، وأما التومنية فرئيسهم أبو معاذ التومني، وأما الصالحية فرئيسهم صالح بن عمرو الصالحي^[76]. فرئيس من يكون الحسن بن محمد بن علي

أيها المؤرخ الكبير^[77].

ثم إن المؤلف يذكر بهذا الصدد نصاً لكريمير يقول فيه: «مدرسة أبي حنيفة ومذهبه الديني يقومان على أساس تعاليم المرجئة. وقد قبل أبو حنيفة أهم مبادئها، كما أن أقدم مؤرخ للدين وهو ابن حزم يرى حين يتكلم عن المرجئة أنهم أقل الطوائف بعداً عن الإسلام الصحيح». وإن تعجب لشيء فاعجب كيف أن الأستاذ المؤلف - وهو عربي مسلم - سلم هذا الادعاء من كريمير، ولم يحمل نفسه مشقة الرجوع إلى كتاب ابن حزم أو أي مرجع عربي آخر ليتأكد من صحة دعوى كريمير!! فليذكر التاريخ هذا وليعجب!! [78].

وأنا أقرر أن كلام كريمير هذا هراء من أصله ولا أساس من الصحة لشيء منه. فأبو حنيفة لم يكن مرجئاً كما زعم، ولكنه كان يسير في شؤون العقيدة على نهج أهل السنة والجماعة، ولقد عرض الشهرستاني لهذا البحث ف**قال**: «إن من العجب أن غسان كان يحكي عن أبي حنيفة رحمه الله مثل مذهبه، ويعدّه من المرجئة. ولعله كذب. ولعمري كان يقال لأبي حنيفة وصحبه مرجئة السنة» [79] ولعل السبب فيما نسب إليه أنه لما كان يقول: الإيمان هو التصديق بالقلب وهو لا يزيد ولا ينقص، ظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان.. وله سبب آخر وهو أنه كان يخالف القدرية والمعتزلة الذين ظهروا في الصدر الأول، والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم في القدر مرجئاً». اهـ.

وأما قول كريمير: إن ابن حزم حين يتكلم على المرجئة يرى أنهم أقل الطوائف بعداً عن الإيمان الصحيح فهو عكس ما يقرره ابن حزم تماماً! إن ابن حزم - في سائر المناسبات التي يتحدث فيها عن المرجئة - يتهم عليهم بشدة. ولقد عقد فصلاً لمناقشتهم في كتابه الملل والنحل الجزء الرابع بعنوان: شنع المرجئية، وبعد أن تحدث عنهم طويلاً **قال**: «وكل هذا كفر محض..» فاعجبوا يا إخواني الطلاب من خلط المستشرقين وسوء أمانتهم، ثم للعربي المسلم كيف يستسلم لكلامهم دون أي بحث أو تفكير...!! [80].

والعجيب أيضاً أن المؤلف يقول بعد هذا: «والمرجئة بنتيجة هذا الرأي يجهرون بأن جميع المسلمين إخوة في الدين، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وهذا هو الوجه الاجتماعي لهذه الفئة، إذ أضحى كل ما تنشده هو العودة إلى المبدأ الإسلامي في التسوية بين الشعوب». فأما أنهم يقولون: إن المسلمين إخوة في الدين، فهذا ما يقوله كل مسلم من أي طائفة كان، وليس لهذا الشعار أي علاقة خاصة بالمرجئة، وأما أنهم يقولون لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، فذلك ما لا يقولونه هم، بل تلك هي ميزتهم التي جعلت لمذهبهم سبيلاً مستقلاً، إذ إنهم لما قالوا: إن الطاعة والمعصية ليس لهما دخل في زيادة الثواب أو استحقاق العذاب، وإنما المسألة كلها تتعلق بالإيمان والكفر؛ فقد قرروا بمقتضى ذلك أن ليس ثمة شيء اسمه التقوى بعد الإيمان يعلي ويخفض ويقدم ويؤخر، وكأن المؤلف يريد أن يجعل لهذه الطائفة وجهاً سياسياً، فيزعم أن مذهبهم جاء ردّ فعل للسبيل الذي اتبعه الأمويون من تفضيل العنصر العربي على غيره، وتناسي التقوى التي هي ميزان كل شيء. ولكن هيهات أن يكون الأمر كذلك؛ وإنما أرباب «الوجه الاجتماعي» الذي يتحدث عنه هم أهل السنة والجماعة فقط. فهم الذين يقررون عدم الفرق بين أي شخص وآخر إلا بالعمل الصالح وتقوى الله تعالى. ومن أهل السنة والعقيدة الصحيحة كان معظم العرب في كل عصر ودولة.

عمر بن الخطاب و الولاية

ثم يعقد المؤلف بحثاً عن السياسة المالية في العصر الأموي في صفحة 24 ويتحدث عن العمال وطرق جمعهم الأموال، وأنهم كثيراً ما كانوا يجمعون من الأهالي أموالاً بطرق غير مشروعة وأن الخلفاء كانوا في معظم الأحيان يتهاونون في ردعهم عن ذلك، أو يقاسمونهم تلك الزوائد التي اكتسبوها ظلماً؛ وما هو إلا أن يروغ بهذه التهمة نفسها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويلصقها به بأسلوب خاطف لبق. وهذا كلامه بنصه في صفحة 27: «... ولما كان يعنى الولاية بإخفاء أعمالهم، فقد اعترف والي خراسان ليزيد بأنه قد حصل له على عشرين مليوناً من الدراهم فسوغه إياها. وكان بعض الولاية يلتمسون من الخليفة إعفاء من قبلهم من الموظفين من تقديم بيان دقيق عما جمعه من الأموال. وبذل أن يتخذ الخلفاء التدابير لمحاسبة الولاية ومنع ظلمهم نجدهم يتبعون الطريقة التي كان لجأ إليها مرة عمر بن الخطاب من المقاسمة، فهم يقاسمون العمال فوائدهم التي جمعوها بتلك الطرق المعوجة.. ومعنى ذلك أن الخلفاء راضون بسوء تصرف العمال مع أهل البلاد»!!.

أ كذلك أيها الرجل؟!... وعمر بن الخطاب أيضاً مالأ غماله على الجور والظلم، وسكت على ظلمهم في مقابل أنه قاسمهم فوائدهم؟! وإذن فلن تسجل هذا التاريخ؟ وأي عربي بقي بعد عمر يستحق تدوين اسمه والإشادة بعدله؟ ولكن ماذا أقول لك إذا كنت تعترف بنفسك أنك تنقل هذا البحث عن (فان فلوطن) وأنه ينقل لك بعضه عن الطبري؟! وَي، يالمجد العروبة والإسلام، أين غاب واندثر!

ما هي - يا أستاذ شاكر - قصة المقاسمة التي ابتدعها عمر بن الخطاب ثم تابعه عليها بعد ذلك خلفاء بني أمية لتبرير الفوائد التي جمعت بطريقة معوجة؟.

إما أنك أيها الرجل تعرف قصة ذلك، ولكنك أعرضت عن بيانها وآثرت طيها وكنتمها، فاسمح لي أن أقول لك: إن هذا - وأنت تدون التاريخ - اسمه تمويه وتضليل في حنكة.. ولا أقول لك: في خبث. وفائدة هذا التمويه ثمينة لمن يبحث عنها، إنها على الأقل تدع القارئ يحسب أن المقاسمة التي قام بها عمر هي لسبب من مثل تلك الأسباب التي قاسم من أجلها خلفاء بني أمية، بل وإن العبارة تصرح بأنه زعيمهم في ذلك!

وإما أنك لا تعرف شيئاً عن قصة مقاسمة عمر، فما الذي حشرك إذن في سوق ما لا تعرف عنه شيئاً وأنت تؤلف في التاريخ... التاريخ العربي الإسلامي الذي سيعكف على دراسته جيل بعد جيل؟! وأي جرأة هذه التي حملتك على صفع حياة عمر وترجمته بهذه الطعنة الشائنة النجلاء مادمت لا تعرف شيئاً عن صادرها ولا واردها؟!

وبعد فإن عمر رضي الله عنه لم يقاسم عماله - كما يذكر المؤلف - مرة واحدة، بل قاسم أكثر من مرة وصادر أكثر من مرة، فتعالوا أقل لكم لماذا صادر وقاسم رجل العدالة والأمانة لتزدادوا إيماناً بعدله وإعجاباً بأمانته.

لقد كان بعض عماله يذهب إلى مكان عمله ومعه شيء من مال له، فيرى فرصة التجارة هناك سائحة، فيشغل ما فاض من وقته بالتجارة، أو يجد من المسلمين من يكرمه ويحمله رعاية لمركزه الإسلامي وحباً بالإسلام وممثليه. فيعود أمثال هؤلاء إلى عمر وقد أيسروا بسبب ما نالهم من احتفاء الأهالي بهم وإكرامهم إياهم. والإسلام يقرر في حزم وصراحة أن أي إنسان يشغل وظيفة

دينية كالقضاء والولاية والإفتاء لا يجوز له بشكل ما أن يسخر تلك الوظيفة لاستجلاب قرش واحد من المال، سواء كان نوع ذلك الاستجلاب في حد ذاته مشروعاً - كالتجارة وقبول ما يهدي إليه (في غير مقابل...) - أم لا، وسواء كان ذلك بطريق مباشر أم غير مباشر، وأصل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً على صدقة، فلما قدم قال للرسول: هذا لكم، وهذا أهدي إلي. فقام النبي عليه الصلاة والسلام وصعد المنبر ثم **قال:** «ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي. فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدي إليه أم لا. والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة، إن كان بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر. ثم رفع يديه حتى رويت عفرتا إبطيه **وقال:** ألا هل بلغت؟ ثلاثاً». ومن ثم فقد قرر التشريع الإسلامي أن كل مال وقع في يد والٍ أو قاض، ويشبه أن يكون لوظيفته دخل في تيسير ذلك المال إليه، فهو لبيت مال المسلمين، أمّا ما أخذ من أهله غصباً أو من وراء حق الإسلام فهو ردّ، لا يقبل إلا أن يرجع إلى ذويه، وهذا ما صنعه عمر بن الخطاب ونفتخر بما صنع، فقد سأل مرة الحارث بن وهب وقال له: ما قلاص وأعبد بعثها بمئة دينار؟ **قال:** خرجت بنفقة لي فاتجرت فيها، **قال:** وإنا والله ما بعثناك للتجارة. أدها. ثم صعد المنبر و**قال:** يا معشر الأمراء إن هذا المال لو رأينا أنه يحلّ لنا لأحللناه لكم؛ فأما إذا لم يحلّ لنا وكففنا أنفسنا عنه فاضلفوا عنه أنفسكم.

ومرّ ببناء يبني بحجارة وجص، ف**قال:** لمن هذا؟ فنذكروا عاملاً له على البحرين، ف**قال:** أبنت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. وشاطره ماله، أما أبو هريرة فقد سأله بعد أن عاد من البحرين - ومعه عشرة آلاف - وكان قد استعمله عمر هناك. فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال فمن أين

هي لك؟ **قال:** خيل نتجت وخراج رقيق لي. فنظر فوجدها كما قال، فلم يأخذ منه شيئاً^[81]. ولو أن أحدهم جاء بدرهم اغتصبه من الأهالي أو حصله منهم بـ (الطرق المعوجة) كما يقول المؤلف، لأعاد عمر الدرهم إلى صاحبه، ولو لحقه في سبيل ذلك إلى أقصى الدنيا، بل ما كان لعمر أن يستعمل شخصاً على جهة يطمع بمثل هذا، ولقد قام عمر رضي الله عنه مرة في موسم الحج يقول - وقد جمع العمال كلهم -: أيها الناس إنني والله ما أبعث إليكم عمالي ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم؛ ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلي. وما كان عمر ليضرب (ابن الأكرمين) ويقتص منه لرجل من الأهالي كان قد آذاه وضربه، ثم يطيب له أن يستولي على ما أخذ منهم (بطرق معوجة) ويقاسم عماله ذلك.

ولعلك تتصور الآن مدى الفرق الكبير بين ما أقدم عليه عمر بن الخطاب من العمل الحق المشرف، وما كان يسلكه بعض الخلفاء الأمويون من إرخاء عنان الولاية لظلم الأهالي واستلاب حقوقهم كما فعل الحجاج وغيره. فإذا تصورت ذلك لم يفتك سرّ التّعمية والتسوية التي خلط بها المؤلف بين عمل عمر وأولئك الخلفاء الآخرين حين **قال:** «وبدل أن يتخذ الخلفاء التدابير لمحاسبة الولاية ومنع ظلمهم نجدهم يتبعون الطريقة التي كان لجأ إليها مرة عمر بن الخطاب من المقاسمة، فهم يقاسمون العمال فوائدهم التي جمعوها بتلك الطرق المعوجة..».

ونعود مرة أخرى فنقول للمؤلف: لماذا لم تشرح شيئاً عن حقيقة مقاسمة عمر؟ لماذا ساويت بين الجميع وكتمت الفرق والتفصيل، وتركت اسم عمر يدغم وينطوي في تيار طعنك واتهاماتك؟ لماذا

صغت كلامك عنه بهذا الأسلوب المحنك الملتوي حتى جعلت الطلاب يفهمون - وحق لهم أن يفهموا - أن عمر كان يقاسم عماله ما يأخذونه من المسلمين ظلماً؟ لماذا...؟! وإذا كان فان فلوتن هو الذي صاغ هذه الفرية وكنت أنت ناقلها فلماذا دمغت على ظهر الكتاب اسمك ولماذا لم تكتب في أعلاه بالخط النسخي العريض: قاموس استشراقي محيط، نقل وترتيب: شاكر مصطفى؟

عمر بن عبد العزيز و سياسته المالية

وفي مكان آخر من الكتاب يتحدث المؤلف عن الحكومة والإدارة الأموية، ثم ما هو إلا أن يسدد الطعن بجرأة غريبة إلى عظيم آخر من عظماء الإسلام: عمر بن عبد العزيز!

وإليك نص ما يقول هذا الرجل في صفحة 22: «ثم عمر بن عبد العزيز الذي اتبع سياسة دينية جرّت عليه نقمة العناصر المسيطرة من الأرستقراطية العربية وغير العربية، عدا أنها أوقعت الدولة في عجز مالي لم تبرأ منه بعد ذلك».

ونحن نعلم أن المؤلف لم يضايقه من سياسة عمر بن عبد العزيز أنه أغضب العناصر الأرستقراطية كما يزعم، ولكن الذي ضايقه من سياسته أنها كانت (دينية)، والسياسة الدينية - فيما يراه عقل المؤلف - سياسة خرقاء وإن عمت الأرض عدلاً وأنصفت للمظلوم من الظالم وأظلت العالم بظلال الطمأنينة والأمن، إذ حسبها أنها على كل حال سياسة (دينية)!

وإلا، فإن تلك العناصر الأرستقراطية التي فزع لها، ليست غير أولئك الولاة والأمراء الذين كانوا يغتصبون أموال الأهالي ويمتصون أموالهم بـ (الطرق المعوجة) على حد تعبيره الذي عبر به حينما صب عليهم جام نقمته وغضبه، وامتد به الغضب من أجلهم إلى عمر بن الخطاب، ونحن والله لا ندري كيف يستطيع أن يتسبب الخليفة من عباد الله إلى رضى الأستاذ المؤلف فيما يجب أن يتبعه من سبل السياسة على وجه هذه الأرض مادام أنه لا يخط لهم بيده الصراط السوي الذي يجب عليهم جميعاً أن ينتهجوه.

عمر بن عبد العزيز اتبع سياسة جرّت عليه نقمة العناصر الأرستقراطية.

أجل... إن هذا صحيح، وهو ما يفتخر به عمر بن عبد العزيز أمام الله تعالى، وما نفتخر من أجله نحن بعمر بن عبد العزيز، يقول عبد الحميد بن سهيل: لقد رأيت عمر بن عبد العزيز، بدأ بأهل بيته فردّ ما كان بأيديهم من المظالم، ثم فعل ذلك بالناس بعد. فقال عمر بن الوليد غاضباً: جئتم برجل من ولد عمر بن الخطاب فولّيتموه عليكم ففعل هذا بكم. وقال أبو الزناد: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز بالعراق في ردّ المظالم إلى أهلها فرددناها حتى أنفدنا ما في بيت مال العراق وحتى حمل عمر المال إلينا من الشام، وجاءه ذمّي من أهل حمص ف**قال**: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، **قال**: وما ذاك؟ **قال**: إن العباس بن الوليد اغتصبني أرضي. فلما حقق في الأمر وعلم صدقه أرجع أرضه إليه. فغضب عمر بن الوليد وأرسل إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يوبخه فيه ويتوعده على ذلك، فكتب إليه عمر يقول: «.. تزعم أنني من الظالمين إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل. وإنّ أظلم مني من استعملك صبيّاً سفيهاً على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك، ولم يكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده، وإن أظلم مني من استعمل الحجاج يسفك الدم ويأخذ المال الحرام»[82]..».

تلك هي سياسة عمر بن عبد العزيز في المال، وذلك هو السبب الذي أغضب عليه الأرستقراطيين الذين مردوا على الظلم واستمرؤوا الغصب والجور. فهل هي نقيصة تصم جانبه، أم مفخرة يعلو بها رأس التاريخ العربي؟ ولعمري إن المؤلف الذي يرمي غيره من خلفاء بني أمية بالجور وأخذ المال بـ (الطرق المعوجة) يستطيع أن يدرك رفعة هذه المفخرة لو لم يعبها أنها قامت على سياسة (دينية)، فتدين ابن عبد العزيز هو الذي أسقط هذه المفخرة في نظره من حلق.. ولكن خذها - أيها

المؤلف - حقيقة أثبتتها الطبيعة وصدّق عليها التاريخ: أن من لا خير فيه لدينه لا خير فيه لأُمته ولا للمثل العليا جميعها كائنة ما كانت.

وأما أن سياسته (أوقعت الدولة في عجز مالي لم تبرأ منه بعد ذلك) فنحن لا نعلم - وليس أحد من رجال التاريخ يعلم - أنه ترك صندوق الدولة يعثو به الغادي والرائح، أو أنه وقفه على مجونه ومرحه ولهوه، أو أنه أعفى الناس من واجب الإسلام والدولة في أموالهم، أو أنه أقطع به الأراضي والضياع لأهله وأقاربه. ولكننا نعلم، وجميع رجال التاريخ يعلمون أنه عمد - في أول يوم ببيع له بالخلافة - إلى جميع مراكب الخلافة وملحقاتها فصرفها إلى صندوق الدولة واتخذ لنفسه بغلة يركبها في غدوه ورواحه، وأنه في اليوم نفسه قال لزوجته فاطمة: إن أردت صحبتي فردي ما معك من مال وحلي وجوهر إلى صندوق مال المسلمين فإنه لهم، فردته جميعه، وأنه قال لمولاه مزاحم: إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه، ولا لهم أن يعطوني، وإني قد هممت برده على بيت مال المسلمين. **قال:** فكيف تصنع بؤلك؟ فجرت دموعه و**قال:** أكلهم إلى الله. وأنه لما ولي الخلافة أحضر قريشاً ووجوه الناس فقال لهم: إن (فدك) كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله، ثم وليها أبو بكر كذلك وعمر كذلك، ثم أقطعها مروان، ثم إنها صارت إلي ولم تكن من مالي أعود منها عليّ. وإني أشهدكم أنني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فردّها إلى بيت مال المسلمين، وأنه كان قد شدد على أقاربه وأعاد كثيراً مما كانوا قد اقتطعوه إلى الدولة، فتبرموا به ودسوا إليه خادمه ليسمه. فاطلع على الأمر، وقال للخادم: ويحك ما حملك على ذلك؟ **قال:** ألف دينار أعطيتها. ف**قال:**

هاتها، و طرحها في بيت المال، ثم أطلقه [83].

فإذا كان عمله هذا هو الذي أوقع الدولة في عجز مالي، فحدثني ويحك وقل لي: أي عمل إذن يفيدها السعة والريح، وإني لأعجب لضميرك والله - أيها الرجل - كيف لم يؤنّبك على هذا الظلم الذي حملت قلمك حملاً على ارتكابه في حق رجل هذه سيرته وهذا عمله الذي شهد له به كل الرواة والمؤرخين، بل إني أعجب لقلمك كيف طاوعك على ما افتريت، وكيف لم يؤثر أن يتحطم بين أناملك على أن يخط حرفاً واحداً من جريرتك هذه!! ولعمري ما كنت أنت ولا الذي دربك ولا المستشرق الذي تنهل علومك من كفه أغير من ابن عبد العزيز على صندوق الدولة وأموالها، ولئن كان إرجاعه أموال الناس إلى أربابها قد نقص من حساب الصندوق، فإنما هو تطهير له لا تسبب لعجزه، ولكن هيهات أن تفهم معنى التطهير والتمحيص.. وحسبه على كلّ أن جعل أفراد الدولة تستفيد من مال الدولة، حتى لم يعد بينهم من يسأل عن زكاة، ولم يجعل الشعب ينظر إلى ضخامة الصندوق ليتمتع منه بالبريق والحرمان فحسب.

وأشهد لو لم تكن ذا (غرض) ترمقه من وراء كتابك هذا لما اختلقت النقيصة اختلاقاً لتلصقها بأعدل خفاء بين أمية على الإطلاق، وتخفي بها مآثره التي عمت أرجاء الأرض وفاضت بها صفحات التاريخ وغدت مضرب المثل في العالم العربي والإسلامي قاطبة.

رجوع عيسى عليه السلام

ثم إنا لا ندري ما الذي أقحم المؤلف - وهو يتحدث عن التاريخ - فيما ليس من شأنه، وليت شعري ما هي علاقة التاريخ العباسي بقصة عيسى بن مريم عليه السلام ورجوعه قبيل الساعة حتى يحدثنا عنها ويفيض علينا من معلوماته في ذلك؟ غير أن الذي جرّه إلى البحث في أمر عيسى ليس هو المناسبة، وإنما هو شيء آخر... هو (الغرض) الذي ألف كتابه كله على هذا النحو من أجله وفي سبيله، ونحن نحمد الله على أن هذا (الغرض) لم يعد خفياً.

وهذا الغرض هو الذي دعاه إلى أن يخلق المناسبة اختلاقاً ليقول إن قصة رجوع عيسى بن مريم في آخر الزمن خرافة.. فهو يقول في صحيفة 40: «.. وهذا ما يفسر لنا شيوع فكرة المهدي المنتظر، وظهور أفكار أخرى غيرها قائمة على التنبؤ.. أو التنبؤ بمصير العالم أو برجعة عيسى

بن مريم..» [84]

ونحن لا نريد أن نناقشه في مسألة المهدي، لعلمنا أن الأحاديث الواردة في ذلك عن الرسول على كثرتها، واختلاف طرقها، ضعيفة... واختلاف الطرق وتعددتها وإن كان كل من ذلك يرفع من قيمة الضعيف، ويجعله في قوة الحسن، غير أن إنكار المهدي ليس كإنكار رجوع عيسى واعتباره خرافة؛ لثبوت الأحاديث الصحيحة القوية في حق ذلك، وللآيات الواردة التي أجمع المفسرون على إشارتها في وضوح إلى رجوعه قبيل الساعة واضطرار أهل الكتاب إذ ذاك إلى الإيمان به نبياً مرسلًا، لا رباً أو ابن رب... فأما الآيات فهي قوله تعالى في سورة النساء: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (*) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (*)} وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء: 159-4/157] ومعنى الآية الأخيرة - كما ذكره أبو هريرة ومعظم المفسرين - أنه لا بد من أن يؤمن قسم كبير من أهل الكتاب - وهم الذين يكونون في آخر الزمن ويشهدون نزوله - بنبوته عيسى عليه السلام وبأنه لم يقتل ولم يصلب كما زعموا.. ووضح أن إيمانهم به قبل موته إنما يكون بسبب رجوعه قبيل الساعة.

وأما الأحاديث الثابتة الصحيحة، فقد روى مسلم عن أبي خيثمة وغيره بسنده متصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم اطلع على بعض أصحابه وهم يتذاكرون، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات... وذكر منها نزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم. وروى مسلم عن زهير بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم، حديثاً طويلاً بسنده عن أشراط الساعة، وفيه: «...فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهزودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين...» إلخ. وروى الطبري عن بشر بن معاذ عن سعيد عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن

أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الأنبياء إخوة لعلات» [85] أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وإني أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي. وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربع الخلق؛ إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل..» إلخ. وروى البخاري عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم، حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا *} [النساء: 4/159].

ثم إن الذين يحق لهم أن يستبعدوا رجوع عيسى عليه السلام هم الزاعمون بأنه قد قتل وصلب ومات.. إذ إن بين الأمرين تنافياً وتعارضاً، ولكن عقيدتنا الإسلامية الصادقة أن عيسى عبد الله ورسوله وأنه ما قتل وما صلب ولكن شبه لهم.. وأنه لا يزال الآن حياً في مكان ما عند ربه، وهذا هو الجدار الذي يفرق بين العقيدة الإسلامية الراسخة وما يراه الآخرون، فإذا كان الواقع هو أن عيسى عليه السلام لم يمت بعد، فما المقتضي لاعتبار نصوص هذه الأحاديث خرافة؟ ولكنك تعلم الجواب عن هذا التساؤل حينما أذكرك مرة أخرى بأن المؤلف ينقل كل بحوثه عن المبشرين والمستشرقين، ويمشي من وراء سبيلهم ويستنير بهديهم. ومتى كان هؤلاء يؤمنون بنبوة محمد حتى يؤمنوا بالقرآن فيؤمنوا بأن عيسى حي لم يقتل ولم يصلب بل رفعه الله إليه وبأنه سيعود في آخر الزمان ليقطع إفاك المتخرصين؟

والسبيل الوحيد الذي نرد به على الأستاذ المؤلف هنا، هو أن نقول له **أولاً**: إننا مسلمون، ومعنى ذلك أننا نؤمن بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته إلينا؛ ونحن نؤمن تبعاً لذلك بأن الكتاب الذي جاءنا به هو من عند الله، وبأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، ولقد ثبت من الطرق الصحيحة المختلفة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر عن نزول عيسى بن مريم في آخر الزمن، فهي إذن حقيقة ثابتة لا تقبل الريب، والخرافي هو عقل من ينكرها وينزلها منزلة التنبؤ والتخرص مندفعاً في ذلك وراء ما ينطق به المبشرون الذين يزعمون أن عيسى بن مريم قد أصبحت عظامه رميماً.

وإلا فما الفرق بين إخباره صلى الله عليه وسلم عن نزول عيسى وإخباره عن الحشر والنشر والعذاب والثواب؟ فوالله لا ينكر ذاك إلا من ينكر هذا ولن ترى بينهما من فرق مادام الكل قد ثبت عن طريق الرسول وأخباره الصحيحة، وليس ثمة أي فرق بين حديث صحيح وآية من القرآن بعد أن قال الله بأنه ما ينطق عن الهوى..

ومرد سبيل الإقناع في هذه المسألة إلى الإيمان بالله ورسوله.. فإن كان المؤلف كذلك فما هو حاجة إلى أزيد من هذا الذي قلناه، وإلا فإن مجلدات ضخمة لن تورثه القناعة ما دام الرجل مصاباً في إيمانه بالله، عافانا الله وإياه من ذلك.

وبعدُ

وبعد فقد كنت أود لو ملكت سعة في الوقت أن أتعقب هذا الكتاب إلى آخره لأكشف عن كل ما فيه من أخطاء ومغالطات.. - وإن فيه لكثيراً من ذلك - ولكن هذه الطائفة التي أتينا عليها من الدس والمواربة في حقائق التاريخ وتراجم رجاله، جديرة على كل حال أن تكشف النقاب عن حقيقة هذا الكتاب وما ينطوي عليه وما يقصد إليه.. وعلى إخواننا الطلاب أن يتأكدوا أن كثيراً مما لم نعرض إليه من فصوله مثل الذي عرضنا إليه تماماً. وإنما كان هذا الذي بحثناه في هذه الصفحات نموذجاً للاتجاه العام لهذا الكتاب.

والذي نأمل به بعد ذلك من إخواننا الجامعيين العرب المسلمين، المعتزين بتاريخهم وتراثهم أن يقطعوا السبيل في وجه كل خدعة ودسيعة تحاول أن تتسرب إلى صفوفهم وليجعلوا من دراساتهم ومطالعاتهم الخاصة وثقافتهم العربية العامة التي يجب عليهم - وهم شباب جامعيون - أن يعكفوا عليها وينهلوا من مصادرها العربية الأصيلة مباشرة، ليجعلوا من ذلك قبساً يقيهم شر كل مواربة وتضليل.

أما رجال الفكر وحملة الدعوة الإسلامية عندنا، فلعمري ما كان من المناسب لهم أن يغفلوا عن مثل هذه الألاعيب التي تعثو بحقائق الإسلام والتاريخ ورجالهما! وإن سكوتهم على هذا اليوم إنما هو امتداد لخطيئتهم التي لا تغتفر أبداً.

وأما الدولة، فإن الذي نعلمه يقيناً أنها قائمة على أساس الإيمان بالله والاعتزاز بتاريخنا العربي والإسلامي، ولكن الإيمان بالله لا يتفق أبداً وهذه البحوث التي تلقى على شباب الدولة في أعظم مؤسسة تعليمية من مؤسسات الدولة، وإن أبسط ما يقتضيه الواجب حيال المحافظة على حقائق التاريخ والإسلام هو أن تكون هناك لجنة مؤلفة من خيرة الرجال الأمناء المخلصين لدينهم وعروبتهم وعلى جانب كبير من الاطلاع والعلم، تعكف على تمحيص مثل هذه الكتب ومراقبتها، حتى إذا انتهت إلى صفوف الطلبة كانت نقية صافية ليس فيها أي غش أو دخل، فأين هي هذه اللجنة؟ وأين العلماء الأمناء المخلصون من تلك الطائفة الخطيرة من السموم والدس والمغالطات التي سردناها الآن يحمون شباب الجامعة منها؟

وأخيراً فإننا نرجو أن يكون لهذا البيان فائدة.. ونرجو أن يهیی الله من ورائه من يقوم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل.. وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم..

والحمد لله رب العالمين [86].

حقائق.. عن نشأة القومية

بسم الله الرحمن الرحيم [87]

كنت أدير إبرة المذياع يوماً، فوقعت بي على حديث من إذاعة أنقرة التركية، فأصغيت إليه، وإذا بالمتحدث يتكلم عن السلطان عبد الحميد قائلاً: إن عبد الحميد قد تأمر على القومية التركية، وراح يفتح للعرب أبواب النفوذ والسيطرة من خلف ستار فكرة الجامعة الإسلامية التي طلع بها، ولكن اليقظة التركية قطعت عليه الطريق واستطاعت أن تنفذ القومية التركية من مؤامراته ورجعيته!

لقد ملكتني حيرة بالغة لهذا الكلام!.. فالذي نسمعه من إذاعاتنا، ويعلمونه في مدارسنا، هو أن السلطان عبد الحميد كان مستعمراً تركياً لهذه البلاد، وكان يبسط سلطان القومية الطورانية على شعبنا العربي باسم الخلافة الإسلامية، فكيف يكون هذا القومي الطوراني والمستعمر التركي في الوقت نفسه عدواً للقومية التركية متأمرّاً عليها، صديقاً للعرب متحيزاً إليهم؟ كيف يكون الرجل في آن واحد سائراً في طريقين متخالفين، هاتفاً بحقيقتين متناقضتين؟!..

إن حقيقة الرجل مدفونة - ولا ريب - بين هذين النقيضين، وإن قصته لضائعة وراء لغو هذين التاريخين؛ ذلك أن التاريخ لم يعد اليوم كما نعلم نوراً تكتشف به الحقائق الثابتة، بل هو اليوم حمض تذاب فيه هذه الحقائق!..

لقد فقد التاريخ - ويا للأسف - شرف حرّيته؛ فقد أوقعته حضارة القرن العشرين في يد السياسة، ومعنى ذلك أن أشرف ما في الكون على الإطلاق وهو: الحقيقة قد قضي عليه بالإعدام!.. ولست أدري أي قيمة تبقى للعقل البشري بعد أن يحال بينه وبين الحقيقة، ويزج به في متهات من الاختلاق والتزييف والتضليل!..

ولكن لمن يكون الانتصار أخيراً؟..

ما من ريب أن العقل هو الذي سينتصر. وأن الحقيقة آيلة ولا شك إلى التحرر والانعقاد، بدليل أن أي حر مفكر، يسمع هذا التناقض عن تاريخ السلطان عبد الحميد مثلاً: يدرك أن هناك حقيقة مخبوءة، وأنه إنما يسمع وقع المعاول التي تحفر قبراً لدفنها فيه.

وحتى السياسة نفسها التي تسير إلى أهدافها على أشلاء الحقائق، لابد أن تزل قدمها وتهوي على رأسها قبل أن تجني ثمار تلك الأهداف، لأن معالم الطريق لا يمكن أن تستنير بغير هدى الحقيقة. ولأن الحقائق مهما سترت فإن العقل سرعان ما يكشفها ويعيد إليها القوة والحياة.

لقد كتبت أقلام السياسة صفحات كثيرة عن القومية العربية، تفلسفها، وتحللها، وتلبسها لبوس العلم والعمق، وتضفي عليها قداسة العقيدة والدين، وترفعها فوق كل شيء وتزيح عن طريقها كل حقيقة مهما كانت أصيلة أو ضخمة فهل استطاعت أن تسير بشرائها هذه إلى نهاية الطريق لتقدم ثمارها المأمولة؟

لا.. فقد زلت بها القدم، لم تستطع أن تصبح ديناً جديداً تقدم لأهلها ما يقدمه الدين من الوحدة والحب والتضامن، وإنما استطاعت أن تحيي دفين القوميات الصغيرة الأخرى في صدور أربابها، فإذا بالقوميات تتناطح وإذا بهيبة الفلسفة التحريرية تنحسر عنها، وإذا بلبوس العلم والعقيدة والعمق يطير عن كاهلها، وإذا بالحقيقة الخالدة تقف ملتزمة أمام كل بصيرة وفكر، وهي تردد قول خالقها عز وجل: {سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: 41/53].

ولا يقف الأمر عند هذا وحده، بل يأبى العقل إلا أن يلتفت إلى الوراء ليكشف زيف الصفحات الطويلة التي تسترت بأسلوب الفلسفة ولسان العلم، علها تخدع ألباب الناس وتلبس عليهم الحقائق بأشباهاها.

لقد حان الوقت لأن نلتفت إلى الوراء لنكشف حقائق عن تاريخ نشأة القومية من حيث هي طالما ظلت أيد سوداء ممتدة فوقها في سكون وصمت، كي لا تقع عليها أعين الناظرين إليها، ويؤمنوا بها.

ولكن الأيدي السوداء لم تكن تتحمل من الصبر تحت أشعة العقل والبحث أكثر مما تحمّلت، إنها اليوم تتحرك في ارتجاف، وإن حقائق خطيرة تتبدى من تحتها لكل ذي عينين!... وإليك بعضاً من هذه الحقائق:

إن مقدمة نشأة القومية في عالمنا الإسلامي، تبدأ مع بدء التجمع الصهيوني وسعيه ابتغاء استلاب فلسطين!.. فقد كانت الخلافة الإسلامية إذ ذاك تطوق معظم بلاد الإسلام - وفلسطين قلب فيها - بطوق متين، على ما كانت تعانيه الخلافة حينئذ من ضعف وتأخر.

وكان المحور الذي استقطب من حوله هذا التجمع الصهيوني، هو المحفل الماسوني الذي تأسس في أواخر عهد الدولة العثمانية باسم (محفل الشرق العثماني)، فقد كان هذا المحفل مكوناً من كبار أغنياء ورؤوس اليهود، وكانت مدينة (سالونيك) مركزاً رسمياً له، وهي المدينة التي ترعرعت في أحضانها جماعة اليهود المرتدين إلى الإسلام في الظاهر: «الدونمة».

وبدأت أولى محاولات اليهود المباشرة للاستيلاء على فلسطين، بدخول الثري الماسوني الكبير (قرصو) على السلطان عبد الحميد بواسطة مرافقه عارف بك. فقد قال له إذ ذاك بالحرف الواحد: (إنني قادم مندوباً عن الجمعية الماسونية لرجاء جلالكم بأن تقبلوا خمسة ملايين ليرة ذهبية هدية لخزنتكم الخاصة، ومئة مليون كقرض لخزينة الدولة بلا فائدة، على أن تسمحوا لنا ببعض الامتيازات في فلسطين)^[88].

فما هو إلا أن أربد وجه السلطان، والتفت إلى مرافقه الذي دخل بواسطته قائلاً: (أفما كنت تعلم ماذا يريد هذا الخنزير؟) ثم نظر إلى قرصو وصاح في وجهه: اخرج من وجهي يا سافل!..

فخرج من عنده قاصداً إلى إيطاليا، ومن هناك أرسل إلى السلطان عبد الحميد البرقية التالية التي لا تزال صورها محفوظة بالزنكوغراف في كثير من كتب التاريخ التركية: (أنت رفضت عرضنا، ولكن هذا الرفض سيكلفك أنت شخصياً، ويكلف مملكتك كثيراً). وفي هذه الأثناء قابله زعيم صهيوني آخر، هو (هرتزل) برفقة الحاخام (موسى ليفي) وراح يرجوه في تزلف أن يبيع أراضي فلسطين بالثمن الذي يريد. فقال له السلطان عبد الحميد رحمه الله بالنص:

(إن هذه الأراضي قد امتلكها المسلمون بالدماء، وهي لا تباع إلا بنفس الثمن). وهكذا يؤنس الصهيونية وماسونيتها من إمكان إغراء الخلافة الإسلامية ببيع فلسطين أو التنازل عنها مهما كان الأجر والثمن. فراحت تسلك إلى ذلك سبيلاً آخر، مستعينة بالفكر والخبث البريطاني.

فماذا كان هذا السبيل؟..

لقد كان ملخصاً في: القضاء على الخلافة التي تشكل الطوق الحديدي المحيط بفلسطين، وذلك على حد ما اعترف به (حاييم وايزمن) نفسه في مذكراته.

أما الطريقة التي اتبعت لذلك فهي ما قامت به جماعة الماسونية من إشاعة أن السلطان عبد الحميد قد اتفق مع العرب على مؤامرة يراد منها الكيد للشعب التركي والقضاء على العنصرية التركية، وأن دعوى الجامعة الإسلامية ليست إلا غطاء دينياً يراد منه ستر هذه المؤامرة. وأوحت إلى أحد الكتاب الملاحدة وهو (ضياء كوك ألب) مع شلة من أتباعه بفكرة إيقاظ القومية الطورانية وفلسفتها والدعوة لها والغلو في تمجيدها، فاستجابوا لذلك، وراحوا يبشرون بالدين الجديد، ويملؤون من حديثه أدمغة الشباب والطلاب، مستعينين على ذلك بترداد ما أشاعته فلول الماسونية عن الجامعة الإسلامية وما وراءها.

وما هي إلا فترة حتى استطاعوا أن ينبهوا من حولهم الأذهان، ويفتحوا لدعوتهم بعض القلوب، وأن يجمعوا لها بعض الشبان الأغرار.

وما هو إلا أن تألفت من مجموعة هؤلاء الداعين والمستجيبين جمعية الاتحاد والترقي التي ثارت على السلطان عبد الحميد واستطاعت إزاحته عن الحكم، وإن في جمعية يهودية ماسونية، انبعثت لفتح أول باب في الطريق إلى فلسطين، وبذلت كل جهدها في سبيل تقويض الخلافة، واستعانت على ذلك بحمل سلاح القومية الطورانية، يعلم هذا كل مثقف لا يكذب على عقله وعلى الله.

غير أن سلاح القومية التركية لم يكن هو وحده أمل اليهود في القضاء على حصن الخلافة، وإنما استعملوه ليكون باباً ومنطلقاً لأعاصير الفتنة والقوميات المتعارضة فوق الصعيد الإسلامي الواحد. كي تقوم هي نفسها بعملية الثورة والانفجار الذي يودي بالخلافة ويكسر طوقها المحيط من حولها. هكذا أفهم وزير المستعمرات البريطاني كبار قادة الصهيونية، وهكذا خطط لهم!.. يعلم هذا أيضاً كل مثقف لا يريد أن يبتلع الحقيقة ليخون الله والتاريخ.

وهذا ما تم بعد ذلك!..

سمع العرب هنا باسم القومية التركية تهتف بها حناجر الأتراك الذين كانوا بالأمس لا يعرفون غير الإسلام، ولا يهتفون بغير الجامعة الإسلامية، ولا يميزون رعاياهم في الهويات بمعرف غير الإسلام، فعجبوا.. ثم تأملوا وفكروا.. وإذا بهم يقولون بدورهم:

ولكننا نحن عرب!.. وهل القومية التركية أولى بتمثيل الدولة الإسلامية من القومية العربية؟.. متى كان كذلك؟..

قالوا هذا الكلام بوحى من أثر ردة الفعل التي طفحت بها نفوسهم، دون أن يسبروا غور الأمر، ويكشفوا عما وراء الأكمة من عوامل وبواعث!..

وكانت خطوط المؤامرة قد وصلت إلى هنا أيضاً، فانتهاز الفرصة من كانوا ينتظرونها، وراحوا يبعثون في الناس فلسفة القومية العربية، ويتلون عليهم تنزيلها، ويفرغون لها مكان القداسة والعقيدة من القلب، ويجعلون منها ديناً مكان دين، هذا ومثيرو القومية التركية من الماسونيين ينفخون من سالونيك في نار الفتنة هنا.

والغريب العجيب - لمن لم يعرف مخطط الكيد - أن كلتا القوميتين المتعارضتين المتناقضتين اتجهتا في الهجوم على عدو واحد ليس له أي شأن في الأمر، ألا وهو الخلافة الإسلامية متمثلة في السلطان عبد الحميد، فقد كان دعاة القومية الطورانية يتهمونه بممالأة العرب وشق سبيل السيطرة

أمامهم، على حين يعتقد دعاة القومية العربية أن كلاً من الخلافة والجامعة الإسلامية ليستا سوى مبرر لفرض القومية الطورانية على العرب، ولقد علم كل عاقل فيما بعد أن كلا هذين الخصمين كانا مسخرين تسخيراً محكماً من قبل الثلاثي الماكر الخبيث: الصهيونية والماسونية وبريطانية، وبتعبير أصح كانا مسخرين من قبل الصهيونية التي كانت تقوم إذ ذاك بأخطر دور على أوسع نطاق للانقضاض على فلسطين!.

وهكذا قامت الأعاصير في وجه الخلافة من كل جانب خدمة للسيد المنبوذ الذي يأبى إلا استيلاءً على فلسطين، إلى أن انتابتها هزة.. ثم سرى فيها زلزال.. ثم حل بها الدمار!.. إذن لقد انكسر الطوق الذي لم يستطع (قرصو) أن يفتح في أي جانب منه أيّ ثقب إلى فلسطين، وتبعثرت كتلة الإسلام التي كانت موحدة ومجتمعة فيه، وانكشفت فلسطين عارية أمام العدو المتربص بها، فجاءت إسرائيل تدلف إليها بخطا هادئة ثابتة، وراحت بريطانيا تتسلل إلى مستعمراتها التي في بالها، وجاءت فرنسة هي الأخرى لتتناول قسمتها من الغنيمة، وكان لسان حال هؤلاء جميعاً يقول للمسلمين: اهتفوا الآن بقومياتكم ما طاب لكم الهتاف ما دام الطوق قد تكسر، والشمل قد تبعثر، وفلسطينكم قد ضاعت!..

يا قارئ العزيز:

هذا طرف من تاريخ نشوء القومية وأسباب انبثاقها فوق أرض الإسلام، كما يسجله التاريخ ويعلمه كل من أراد أن يلتفت لمعرفة شيء من الماضي الذي خلفه، أفلا تحس أن بين سطور لهباً يمتد إلى الأحشاء، ويسري في مجاري الدم؟ أفلا تأكل النار كببك أسفاً للعصائب التي عصبت بها أعين المسلمين فانطلقوا ينتشرون كخراف ضائعة في فجاج الأرض، وراحوا يخترقون بحار الظلمات على غير تفكير أو هدى، ثم طال بهم الأمد فأصبحوا يستنيرون بالظلام ويستأنسون بالضلالة ويركنون إلى صوت كل خادع وطامع!.. ماذا يفعل الإنسان إذا داهمته مشكلة غير اللجوء إلى منطق العقل السليم، أو تجربة التاريخ الصحيح؟ وهذه هي حقائق التاريخ تنطق بوضوح لكل ذي أذن عن حال المسلمين يوم كانوا لا يميزون أنفسهم بشيء غير الإسلام قوة وتضامناً وتآلفاً. ثم عن حالهم يوم قضت الصهيونية والماسونية أن يستبدلوا برابطة الإسلام رابطة القومية تفككاً وتدبيراً وضعفاً. صحيح أن الروح الصليبية المنطلقة من الجامعة الأمريكية في بيروت، والقادمة مع حقد المستشرقين من الغرب، تحاول أن تسدل حجاباً كثيفاً على هذه الحقائق التاريخية بكل ما يسعها من جهد، ولكن كل ذي عقل يستطيع أن يستعمل عقله في الوصول إلى ما وراء هذا الحجاب وأن يمزق بنفخة واحدة جميع الستر المسدلة من فوق الحقائق، وأن يرى الأيدي التي تشد هذه الستر من فوقها في هلع وخوف.

فأين هي حرية الفكر عند أدعيائها من أبناء جلدتنا الذين يستسلمون في غباء منقطع النظر لوعي الصهيونية والصليبية، ويرددان ما يمليان عليهم من دروس؟!.

إنني أتحدى كل من يقرأ التاريخ أو يكتب ويدرس فيه ممن يدينون بدين القومية أن يقولوا: إنهم لا يعلمون هذه الحقائق التي عرضتها، أو يدعوا أن التاريخ غير صادق في ادّعاؤها وتسجيلها!.

وإذن ففيم الابتعاد عن الحقيقة ومناصبه العداء لها؟

وما هي المصلحة الوطنية أو الاجتماعية أو حتى الشخصية من وراء حرب الحقيقة والتضحية بها؟..

أما ضاعت فلسطين بعد ميلاد القومية، وكأنما ولدت هذه لتموت تلك؟..

أما ذرّ من ورائها قرن القوميات الصغيرة التي تنفجر اليوم من هنا وهناك، كرد فعل طبيعي للبواب الذي فتحته جمعية اليهود (الدونمة) أمام القوميات التي كانت تتعاقب نائمة في مهد الإسلام؟.

أليست فتنة الجزيرة التي تشغل بال المسؤولين عندنا اليوم ثمرة طبيعية لغرس هذه الشجرة التي غرسها لنا يد الصهيونية، ثم جئنا نحن نرعى لها هذا الغراس أحسن ما تكون الخدمة والرعاية؟.

ترى هل استعاض الأكراد في الجزيرة عن دينهم بالقومية وشعاراتها، إلا يوم أن فوجئوا بانقطاع الحبل الذي كان يصل ما بينهم وبين إخوتهم العرب، ألا وهو الإسلام الذي طالما جمعهم في صف

مستقيم وعلى قلب واحد ليحل محله حاجز حصين من العنصرية التي تجعل هذا في أقصى اليمين وتترك ذاك في أقصى الشمال؟.

رأوا أن القومية غدت هي الحلة التي يتباهى بها العرب ونظروا، فإذا بالحلة قد فصلت على قدر العرب وحدهم، والتفتوا إلى أنفسهم فإذا هم قد أصبحوا عراة إلى جانبهم من كل شيء، فراحوا هم الآخرون ينقبون في التاريخ ليستخرجوا هم أيضاً منه حلة قومية يلبسونها: شيء طبيعي في منتهى

الانسجام المنطقي، ما دام العصر عصر مباهاة بالقومية، وما دامت الوحدة الإسلامية قد أصبحت بعيدة عن مركز الجمع والتأليف.

ولكنه ليس شيئاً طبيعياً ولا سلوكاً صائباً، بالنسبة إلى مصلحة ملايين من المسلمين يبحثون عن الوحدة التي تصلح شأنهم والقوة التي تعيد اعتبارهم. إن الأمر الطبيعي بالنسبة إلى هذه الأمة المسلمة التي لا ترضى عن دينها بديلاً، أن تتوحد على نداء الإسلام، وأن تصطف على صراطه، وأن يتساقط مما بينها كل حاجز يمنع الصف من الاتصال والالتحام.

وحسبي وحسب كل عاقل دليلاً، على أن جميع هؤلاء الذين ينادون بيننا بنداء القومية العربية، بدلاً عن نداء الإسلام، يدركون ويؤمنون بالحق الذي نقول، أنهم لا يجدون سبيلاً يقاومون به تيار القومية الكردية مثلاً، غير الالتجاء إلى ما أبقتة العقيدة الفردية للإسلام من خيط دقيق بين العرب والأكراد. مقدسين له ومذكرين به ومحاولين بعث القوة فيه.

ولكن هيهات للقوة أن تدب في هذا الخيط الواهي الضعيف، وقد أبت عقيدة القومية العربية إلا أن تجعله أنكاثاً من بعد قوة، وأن تستعويض عنه بما آل إليه أمر المسلمين اليوم من تفكك وتدابر على مفترق طرق القوميات!..

غير أن الفتنة تزول والقوة تعود، إذا ما نفضنا أيدينا من هذه التجربة المؤسفة، ووقفنا خاضعين من جديد للهاتف الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء أربعة عشر قرناً عبر الأجيال قائلاً:

«أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب». وتتبثق قيمة العروبة يومئذ، ويدين لها الجميع، ترجماناً للإسلام ولساناً ناطقاً بالكشف له والدفاع عنه.

هذا هو تاريخ نشأة القومية فوق صعيد الإسلام، وهذه هي وقائع تجربتها من بعد ذلك. فليقل دعاة القومية ماذا يعلمون عن تاريخ الوحدة الإسلامية وتجربتها خلال الأجيال والقرون. هل تجمع ما تجتمع للعرب من مجد وممالك إلا في ظل تلك الوحدة وتحت قيادتها؟ وهل ضاع ما ضاع وتشنت ما تشنت من ذلك كله إلا بعد انحسار تلك القيادة؟

هل سمعوا أن كتابياً واحداً من اليهود أو النصارى قد أصابه أي حيف أو ظلم في ظلال تلك الوحدة والقيادة؟ هل أنبأهم التاريخ - التاريخ الذي ينطق به أهله لا دخلاؤه الصليبيون - أن المسيحيين ضاقوا ذرعاً في ظلال القيادة الإسلامية، كما يضيق ذرعاً أرباب القوميات الصغيرة في ظلال قيادة القومية العربية؟

هل يستطيعون أن ينكروا ما سجله التاريخ من امتنان النصارى لعدالة الإسلام واطمئنانهم إلى قيادته وحكمه في مختلف الأجيال التي كانت تسير تحت راية الإسلام لا القومية؟ ألم يسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئاً بغير طيب نفس فإنه حجيجه يوم القيامة»؟.

أولم يطلعوا على اعتراف البطريق (عيشوييه) عام 656 هجرية بذلك قائلاً: «إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون، إنهم ليسوا أعداءً للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويوقرون قديسنا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا وأديارنا».

يا أيها العرب المسلمون: لا تبدؤوا من حيث انتهت الأمم، ولا تمضوا في الخوض بتجربة خاضها من قبلكم أناس فحفيت أقدامهم، وضاعت جهودهم، وعادوا من سعيهم أسفين نادمين. لقد كان الغلو القومي نشوة ساورت أمم الغرب فترة، ولكن ها هي ذي اليوم تتخلى عنها واحدة إثر أخرى؛ على أعقاب النتائج المريرة التي خلفتها لهم التجربة، هذا إلى أن أمم الغرب لا يملكون ما تملكونه أنتم من ظلال المبدأ الجامع والدين الموحد الذي وحد بلاد الإسلام قروناً طويلة من الزمن. فإذا كان افتقار أولئك قد زجهم في التجربة التي تخلوا اليوم عنها، فأحرى بكم وقد أغناكم الله بجامعة الإسلام ألا تتورطوا فيها فضلاً عن الاستمرار في متاهاتها.

على أن الله قد جعل لنا في الإسلام ما يكفل علو شأن العروبة ولغتها إذا رفعنا لواءه ومشينا تحت قيادته وسلطانه، وذلك لما أَرَادَهُ اللهُ تعالى من الرابطة المتينة بين دينه ولغة العرب. ولقد دلت التجربة وأثبت التاريخ، أن العرب كلما ازدادوا ارتباطاً بإسلامهم وانضواءً تحت وحدته وجامعته، كان تقديس الأعاجم للعرب واللغة العربية أبلغ وأعظم، وكلما تنكروا لدينهم واستبدلوا بشعاره شعارات القومية المجردة تنكر لهم الأعاجم ولووا رؤوسهم متقرزين عن جميع شعارات القومية والعروبة وفلسفاتها^[89].

هذه هي سنة الكون، وهذا هو واقع التاريخ، فمن كان يبحث عن الحقيقة المجردة في تحرر وتعقل، فلن يجد مناصاً من الإيمان بواقع التاريخ والخضوع لسنة الكون والاستسلام لدين الله. أما الحاقد على الحقيقة، والمكبل بأصفاة التشهي والتخيل والهوى، فلن يستطيع البحث المنطقي نزولاً إلى حطته التي يركن إليها، ومن ثم فلن يتلاقى العقل معه في أي صعيد ولا مجال. وأختم حديثي لهؤلاء وأولئك جميعاً بقول رب العالمين: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ*} [الحجرات: 49/13].

مستخلص

كتاب يتضمن أوائل أعمال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي الفكرية التي صدرت له أوائل الخمسينات من القرن الماضي، نشر بعضها في مجلات وصحف ونشر سائرهما في مؤلفات له. فلما نفذت نسخها لم يعد يفضل إعادة طباعتها لأسباب، منها أنه لم يكن راضياً عما جاء في بعضها، أو لأن الزمن تجاوز موضوعاتها، ومنها أن الجديد الذي أصدره بعدئذ يغني عنها. ثم رأى اليوم أن يستجيب لإلحاح كثير من القراء في موقعه الإلكتروني اطلعوا على أسماء تلك الأعمال، ورغبوا الوقوف عليها وقراءتها.

أول هذه الأعمال مقالة بعنوان «أمام المرأة» ومقالة بعنوان «بعض كتابنا اليوم» كلتاهما نشرتا في مجلة التمدن الإسلامي. ثم بحوث ومقالات كتبها من وحي الوحدة التي تمت بين سورية ومصر (1958 – 1961) ونشرها أول كتاب صدر له بعنوان «في سبيل الله والحق». ثانيهما كتيب بعنوان «دفاع عن الإسلام والتاريخ» نشر عام 1958، ثم كتاب «المذهب الاقتصادي بين الشيوعية والإسلام»؛ وفي العام الذي يليه أصدرت له لجنة مسجد جامعة دمشق ضمن سلسلة رسائلها كتيباً بعنوان «حقائق عن نشأة القومية» فكانت آخر أعمال هذه الباكورة. إذن هذه موضوعات متنوعة تركت في حينها أثراً مفيداً، وحققت حلولاً لمشكلات وتصحيحاً لأخطاء، وها هي ذي تعود اليوم إلى الظهور استجابة لإلحاح قراء الدكتور البوطي، وتنفيذاً لما وعدهم به.

-
- [1] أول هذين المقالين «أمام المرأة» وأظن أنني كتبتهم عام 1948 أو 1949 ثم وفقتي الله لنشره بعد حين في مجلة التمدن الإسلامي الدمشقية، يليه المقال الثاني «بعض كتابنا اليوم» وقد نشر هو الآخر فيما بعد، في المجلة ذاتها، رحم الله المجلة وصاحبها أحمد مظهر العظمة، ومديرها محمد بن كمال الخطيب.
 - [2] هذا، كما علمت، تصوير لحال مجتمعاتنا قبل ما لا يقل عن خمسة وخمسين عاماً والذي يبدو، أن حال مجتمعاتنا اليوم أفضل، في الجملة، من تلك الأيام التي كنت أعيش في غمارها.
 - [3] هذا التشاؤم كان له سببه في المجتمع منعكساً على حياتي آنذاك، ولو دعيت اليوم إلى بيان موقفي أو رأيي في هذا الأمر لكان لي رأي آخر أقل تشاؤماً، وأكثر رضا.
 - [4] أرجو من القارئ الذي لم يقرأ مقدمة هذا الكتاب أن يعود فيقرأها أولاً.
 - [5] كتب هذا المقال في الأشهر الأولى من عمر الوحدة ما بين سورية ومصر.
 - [6] كتبت هذه الكلمة ونشرت بمناسبة المحاضرة التوجيهية التي ألقاها وزير التربية والتعليم كمال الدين حسين في مدرج الجامعة السورية عام 1958.
 - [7] كان شعار الحياذ الإيجابي، هو الشعار الذي انطلق منه مؤتمر باندونغ ونادى به في العالم العربي جمال عبد الناصر.
 - [8] كان هذا هو عدد المسلمين في العالم آنذاك.
 - [9] انظر معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أقاتل» والفرق بين قوله هذا وما لو قال: «أقتل» في كتابي (الجهاد كيف نفهمه وكيف نمارسه).
 - [10] إذن فالضمير في قوله تعالى: {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: 9/29] عائد للمحاربين وليس المقصود به المسالمين.
 - [11] يلاحظ أن معالجاتي لهذه المسألة آنذاك أقل نضجاً منها اليوم، يتضح لك ذلك، لدى المقارنة بين هذا الذي كتبت قبل خمسة وخمسين عاماً، وما تقرؤه اليوم في كتابي «الجهاد» مثلاً.
 - [12] ليس هذا الدكتور شيئاً خيالياً وضعناه لنجري على لسانه هذا البحث، وإنما هو حوار واقعي، والدكتور معروف وموجود في القاهرة، وهو من أقطاب المدنية الحديثة..
 - [13] روت الصحف أن شاباً صب عاره على إحدى الفتيات بعد أن خدعها بوعود الزواج، فلما لم تجد المسكينة سبيلاً تطهر به حياتها من ذلك العار، أصرت إلا أن تطهر نفسها من تلك الحياة وأقدمت على الانتحار، ثم تداركها القدر في اللحظة الأخيرة...

[14] إنني أحمد الله، أن الوعي الإسلامي والثقافي والوطني اليوم قد خلف كثيراً من الأوهام والجهالات، التي وصفتها هنا، وراءه ظهيراً.

[15] كتبت هذه القصة في القاهرة بتاريخ 12/1955.

[16] هذه الكلمات هي نص ما قاله الشاب عندما تفاقم تأثره وغيظه.

[17] اطلعت في أثناء كتابة هذا الفصل على مقال في عدد جديد بمجلة المصور يعالج فيه محررها هذه المشكلة ثم يرى أن الحل الجذري لها أحد شيئين، ويقول عن الشيء الأول أنه التعليم المختلط بين الجنسين في مراحل التعليم كافة. ثم يعترف بنفسه أن الثمرة المرجوة لذلك لا تأتي إلا بعد سنوات طويلة... ونحن نكرر مرة أخرى ونقول:

إن هذا الحل للمشكلة من مقترحات أمة أجنبية عنا في بادئ الأمر. والحل نفسه مشكلة أكبر من أمها، لأن المبادئ التي تجعلنا لا نرضى ببقاء المشكلة كما هي، هي نفسها المبادئ التي لا ترضى لها أبداً بهذا الحل.

[18] نحمد الله عز وجل أن تغلب اليوم الوعي والالتزام الديني على ذلك الانفلات الأرعن، إن الشوارع لتتألق اليوم بمظهر الاحتشام والحجاب الإسلامي المعتدل.. وما قد وصفته في هذا المقال إن هو إلا بقايا تركب رؤوسها في مخالفة المنطق والخلق، والتورط في أودية الندامة والشقاء، والمأمول أن تتركها الهداية الإلهية عما قريب.

[19] نشرت الصحف منذ أيام أن أحد الموظفين ومعه زوجته بينما يسيران في بعض الشوارع إذا بجماعة من الأساتذة المثقفين يتحشرون بزوجه على مسمع منه، فلما أثبتهم كان جزاؤه منهم الضرب والصفع، فما كان منه إلا أن أخرج مسدساً وأطلق عليهم خمس رصاصات..!

[20] لسنا هنا بسبيل البحث عن الأزهر ورسالته.. وإنما يعني أن نستعرض الحركة الإصلاحية في القسم الشمالي من جمهوريتنا.

[21] ليس هذا وصفاً للجميع.. إذ إن من علمائنا الذين بين ظهراننا اليوم من لا يقل بركة عن السلف الصالح، وإنني لأعتقد أن فيهم من لو أقسم على الله لأبرق قسمه، ولكن وصفنا هذا ينطبق على معظم من يتصدرون في ميادين الإصلاح، ثم لا يستطيعون أن يصلحوا فيما بينهم هذا الشقاق.

[22] ذكرت الجرائد منذ حين أن العلماء قد اعتزموا على القيام بإلقاء سلسلة من المحاضرات تتناول تطور التاريخ الإسلامي منذ الوحدة التي أقامها صلاح الدين، إلى وحدتنا هذه التي أقامها جمال، فاستبشرنا خيراً، وتفاءلنا بوحدة مباركة أخرى بعد وحدة الإقليمين... ولكن لم نجد بعد هذا الخبر شيئاً، ولم نسمع أي نبأ عن هذه المحاضرات.

[23] في وقعة القادسية، قبل أن يبدأ القتال بين المسلمين والفرس، أرسل رستم إلى أمير المسلمين أن أرسل إلينا رسولاً نكلمه، فيبعث إليهم المغيرة بن شعبة، فلما جاءه وجده جالساً على عرش كبير والدهاء من حوله راكعين له، فأقبل حتى جلس معه على السرير، فهرع إليه الأعوان ليجذبه فقال لهم: «لقد كانت تبغنا عنكم الأحلام - حسن التفكير - ولكني لا أرى قوماً أسفه منكم، إننا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً، فظننت أنكم تواسون بعضكم كما تتواسى، وكان أحسن من الذي صنعت أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض.. اليوم علمت أنكم مغلوبون».

[24] هكذا كان يبدو لي آنذاك...

[25] لعل القارئ يلاحظ من قراءة هذا الفصل أن العصر الذي كتبت فيه، كان يشهد صراعاً بين مفهومين للقومية العربية: مفهوم رديكالي متطرف يحاول أن يجعل منها عقيدة في مكان دين ومفهوم إنساني معتدل يبرز في القومية العربية معنى الانتماء والاعتزاز بالرسالة التي حُمِلتْها الأمة العربية وأعتقد أن هذا المفهوم الثاني هو الذي انتصر اليوم.

[26] لا يخلو هذا التصور عن واقع الأدب العربي آنذاك، من بعض المبالغة، ويبدو أنني كنت آنذاك شديد الانزعاج من أدب وقصص إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وأمثالهما، إذ كان إقبال الشباب، ذكوراً وإناثاً، إليهم دون غيرهم، وكان لذلك النوع من الأدب رواج عجيب في سائر الأوساط.

[27] وأقول اليوم: إنهم بعض الأتراك، إنهم الاتحاديون، المنادون بالقومية الطورانية، أما الأتراك السابقون، فقد كانوا يذهبون في تقديسهم للغة العربية إلى أبعد مما يذهب إليه اليوم بعض العرب، وإنا لنعدّ منهم السلطان عبد الحميد صاحب مشروع «الجامعة الإسلامية» رحمه الله.

[28] هكذا كان اسم وزارة التربية آنذاك.

[29] أقول اليوم: إننا لنحمد الله أن غابت عن مجتمعاتنا هذه ظاهرة هذا الاشمزاز، فمعاهد القرآن (الأسد) في تزايد، وحفاظه من الفتيان والفتيات في تكاثر، وتعظيمه سارٍ إلى معظم النفوس، ولكن التربص بكل من اللغة العربية والقرآن، من أعداء هذه الأمة، مستمر، بل في ضراوة وتزايد.

[30] أقول اليوم: ولكن ها هو ذا الدم الإسلامي الساري في كينونة هذه الأمة، قد أعادها اليوم إلى ذاتيتها الإسلامية، وقد ذهب زبد «معاهدة لوزان» خفاء، كما قال الله، وعادت هويتها الإسلامية تحمل لأصحابها التقدم والازدهار وأنواع النعيم.

[31] أقول اليوم: من الواضح أن ذلك التصور لا ينطبق بحمد الله على واقع أكثر العلماء المسلمين اليوم. إن مجتمعاتنا هي في الجملة أحسن حالاً منها في العصر الذي كتبت فيه هذا الكتاب.

[32] كان هذا كله أثراً من حماسة الشباب في نفسي، لا أراني أؤيد اليوم منه إلا جزءاً قد يتفاوت، صعوداً وهبوطاً، حسب المشكلات المتنوعة التي أحببت أن أعالجها في هذا الكتاب.. وأهم من هذا ما ينبغي أن أقوله، حامداً الله عز وجل، من أن مجتمعاتنا العربية والإسلامية، هي أحسن حالاً اليوم، في الجملة، منها قبل خمسة وخمسين عاماً.

- [33] كلمة «التقاليد» أفلعت فيما بعد عن استعمالها، لأسباب ذكرتها في بعض مؤلفاتي، التي نشرتها فيما بعد.
- [34] صرح (أوبارين) رئيس معهد الكيمياء الحيوية في روسية الذي ظل يبحث (37) عاماً في أصل الحياة، صرح بأن الحياة لا يمكن أن تبدأ من العدم، وهكذا تنهار تماماً نظرية التفاعل الكيميائي والتوالد الذاتي التي تقول: إن الإنسان لم يكن إنساناً منذ الأزل، وإن الحيوانات والنباتات إنما نشأت من أصل واحد.
- [35] لا تنس أن هذا الكلام كتب في عام 1958م.
- [36] قال لي صديق مدرس إن أحد هؤلاء المهندسين التشيكيين قال له - وهو ينظر إلى مظاهرة تخترق الشارع منددة بالشيوعيين - قال له وهو يهمس: اقتلوا أنفسكم ولا تصبحوا مثلنا شيوعيين. ثم كشف له عن باطن ساق بنطلونه يريه كيف اضطر أن يرفع مكان الركبة منه بالجلد كي يضمن له صلاحية اللبس إلى أن يتمكن من الحصول على غيره.
- [37] ذهبت بهم عن دينهم.
- [38] نقصد بالمشروع مبلغ التشريع عليه الصلاة والسلام، وإلا فإن المشرع بمعنى واضع التشريع الإسلامي هو الله تعالى.
- [39] كآني بأحد المفتونين بأهواء الشرق أو الغرب، يبادر فيقول عند هذا المثال: ولكننا اليوم لسنا في عصر المصباح الزيتية، وإنما نحن في عصر الكهرباء. وإذن فهي أكبر حجة على أن الإسلام يلائم عهد المصباح، أما عصر الكهرباء فينبغي أن يكون له نظام آخر.
- ونحن نقول لهذا الأخ المفتون: إن المصباح تشبيهه للفطرة الكامنة في الإنسان وليس تشبيهاً للإسلام.. وإذا كان المصباح أمكن أن يُستبدل به الكهرباء في هذا العصر، فليس معنى ذلك أن الفطرة الإنسانية أيضاً قد بدلت والخلقة البشرية قد انقلبت، إنها حجة مضحكة كما يرى القارئ. ولكنني أحببت أن أسجلها وأجيب عنها مع ذلك لعلمي الأكيد أن بعض المفتونين سيحتجون بها وسيظنون أنهم عثروا على رد مفحم ومسكت على الذين يدعون إلى تطبيق نظام الإسلام في هذا العصر.
- [40] راجع في هذا سبل السلام للصنعاني، باب إحياء الموات.
- [41] باب إحياء الموات، طبعة بولاق، 3/266.
- [42] الألبان تختلف من بعض النواحي عما دخلته يد الصناعة حقيقة، غير أن حكمها لا يختلف عنه. أما الأراضي فلا شك أنها معدودة في الثروات والأموال الطبيعية، ومن ثم كان متوقفاً أن يكون حكمها حكم الماء والأحراش والمعادن.. إلخ.
- غير أن الأرض تختلف عن المرافق الطبيعية الأخرى من ناحية هامة، وهي أن الأرض - بحد ذاتها - لا تعتبر ثروة حقيقية لو أمعنت في الأمر، وإنما هي وسيلة إلى الثروة، ونقصد بالثروة مختلف المزروعات والحبوب، وما أطلق اسم الثروة على هذه (الوسيلة) إلا تسامحاً ومن قبيل المجاز. ولما كان إنتاج الأرض للثروة الحقيقية متوقفاً على أيدي عاملة تنتجها وتوجدها - وذلك كالمرفاق والأموال الخاصة تماماً - اقتضى ذلك أن تتعلق بالأرض ملكيات خاصة، نظراً إلى أن الأرض ليست مقصودة لذاتها وإنما هي سبيل إلى ثروة هي معدودة في الثروات الخاصة.
- على أن الأراضي باعتبار أنها شيء موجود تحت يد الجميع قبل أن تتعلق بها ملكية، فقد شرع الإسلام لامتلاكها الخاص والعام نظماً إضافية أخرى عدا النظم العامة المتبعة في بقية الممتلكات، وسيأتي بحث تلك النظم في مكانها إن شاء الله.
- [43] هذا حكم من قدر على السعي والعمل ولكنه فضل الكسل والبطالة، أما العاجز فيجب أن يكون رزقه ووسائل عيشه مضمونة من الدولة كما سيأتي.
- [44] هذا ما عليه الشافعي وعامة الفقهاء من مذهبه، أما الأحناف فإنهم يرون أنه لا مناص من الافتقار إلى إذن الدولة على أي حال. ويتمسك الشافعية في مجال الاستدلال بعموم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له..».
- [45] رواه أحمد والنسائي وابن حبان، وفي بعض الروايات بزيادة: «.. وما أكلت العافية منها فهي له صدقة». والمراد بالعافية السابلة والمارة من السباع والطيور والناس.
- [46] رواه البخاري.
- [47] رواه أبو يوسف في الخراج عن ليث بن طاووس.
- [48] ذكره أبو عبيد في كتابه الأموال من رواية عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد.
- [49] قرأنا منذ سنة في جريدة الأهرام تصريحاً لسيادة حسين الشافعي يتحدث فيه عن عزم الجمهورية العربية المتحدة على تنظيم الطريقة الشرعية لجمع ضريبة الزكاة.. ولا يزال الأمل يراودنا في تطبيق هذا المشروع الإلهي. فما أجد أن تكون الجمهورية العربية المتحدة في طليعة الحكومات الإسلامية، إحياء لأعظم قانون إسلامي اجتماعي.
- [50] وهذا لا ينافي أن عامة الفقهاء يجمعون على أن الرجل إذا تولى هو تقسيم زكاته على الفقراء فإن ذلك يسقط عنه وجوبها. هذا في الذهب والفضة، أما المزروعات فعامة الفقهاء لا يجيز إخراج زكاتها إلا عن طريق الدولة إذا كانت تجمع هي الزكاة. أما الدولة فواجب شرعي عليها أن تتولى هي جمع الزكاة بكل أنواعها. ومن المعلوم أنها حين تفرض على رعيته ذلك فإن وجوب إعطائها إلى الحكام يتأكد حينئذ، ويفسح المجال بسبب ذلك أمام الأفراد لإخراج زكاة أموالهم على أحسن وجه شرعي.
- [51] راجع كتاب (النهاية) لولي الدين البصير باب (قسم الزكاة).
- [52] تحمّل حمالة: أي تحمل ديناً أو غرامة أو دية أو ما شابه ذلك عن نفسه أو عن غيره.
- [53] رواه أبو عبيد في كتابه الأموال، عن إسماعيل بن جعفر.
- [54] رواه أبو عبيد في كتابه الأموال، عن يحيى بن بكير.

[55] لا يجوز صرف مال الزكاة - مع وجود الأصناف المستحقين لها - إلى عمارة مسجد أو طريق أو قنطرة أو أي مشروع آخر، وإنما يجب أن تملك للأفراد، وهو شرط أساسي لصحة أدائها.

[56] نقول: (أهم) لأننا لم نتحدث عن جميع موارد الملكية الفردية وإنما اقتصرنا على أهمها.. وإلا فهناك موارد فرعية أخرى مثل: الغنائم والفئ ونتاج الأرض وتكاثر الأنعام، وحيازة المباحات في غير احتكار.

[57] هنالك نوع واحد من المعاملات التي يرتبط بها دوام الملكيات الخاصة اختص بها الإسلام دون النظم الاقتصادية المعاصرة الأخرى، وهو (الوقف) بأنواعه المختلفة.

[58] راجع (قصة الملكية في العالم) تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي، والدكتور حسن شحاتة سلفان.

[59] ليس مثل هذا ما كان يفعله بعض خلفاء بني أمية من المظالم.. ولقد انتهت بعض المستشرقين - وتبعهم في ذلك أذنابهم - أن يقولوا إن المسؤول الأول عن تلك المظالم هو عمر. مع أن عمر كان يتبع في عمله تشريع الإسلام الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ما يصدره يجعله في بيت المال، أما أولئك الآخرون فقد كانوا يتبعون في ذلك شهواتهم، وكانوا يملكون ما يصادرونه لأنفسهم. وانظر في هذا الموضوع كتابي: (دفاع عن الإسلام والتاريخ). أقول: وهو مما ضمته إلى كتابي «البدائيات» هذا، انظر ص 291.

[60] في كتب الفقهاء بحث واسع حول معنى: ديون الله تعالى، وحول شروط وجوب الحجر بسببها، وخلصته أن المقصود بديون الله كل قيمة مالية وجبت على الرجل بحكم من الشرع مباشرة كالكفارات والنذور والزكاة، ولا ينافي ذلك أن يكون مصرف هذه الديون إلى الناس أيضاً، إذ المقصود بهذه التسمية أن المطالب بأدائها هو الله تعالى، وشروط وجوب الحجر بسببها أن يكون الدين فوراً - فلا حجر بسبب كفارة أو نذر غير فوري - وأن يكون لجهة معينة (على اجتهاد بعض الفقهاء) فالنذر إذا لم يعين جهته لا يحجر بسببه. ثم إن من شروط الحجر على المدين مطالبة المستحق لدى الحاكم بذلك، ولكن من الذي يطالب الحاكم بالحجر على المدين لله تعالى؟ يرى بعض الفقهاء أن المستحقين للزكاة إذا كانوا قلة محصورين فإن الحجر يتم بناء على طلبهم هم، أما إذا كانوا غير محصورين، فإن الحاكم هو الموكول إليه ذلك. والمتجه في هذا الموضوع أن الحاكم هو الذي يتولى إقرار الحجر لحقوق الله تعالى على أي حال، إذ هو خليفة الله تعالى في تطبيق أحكامه وتشريعه.

[61] يسمى هذا العمل قراضاً وهو معاملة صحيحة يقرها الإسلام.

[62] من هؤلاء الفقهاء ابن حزم رحمه الله، وطائفة كبيرة من فقهاء المالكية وبعض المذاهب الأخرى.

[63] أقول اليوم بهذه المناسبة: إن العملات الورقية على اختلافها حلت في هذا العصر، محل كل من الذهب والفضة في سائر الأحكام المتعلقة بهما من ربا النسيئة وربا الفضل وربا اليد، وتعلق الزكاة بهما.

ذلك لأن هذه العملات غدت نقوداً أي أثماناً ذاتية في المجتمعات كلها، سواء كان لها رصيد معن أو معترف به أو مفترض، أم لا. هذا هو الواقع الذي لا ينكره أحد. ومن ثم فقد انتقلت إلى هذه الأثمان الذاتية علة الربا في الذهب والفضة، وهي جوهرية الأثمان أو النقدية والثمنية، أي إن العلة القاصرة بالأمس تحولت اليوم إلى علة متعديّة.

ثم إن العملات الورقية على اختلافها جنس واحد ينبثق من ذاتيتها الورقية، وليس لتنوع أسمائها أو لتفاوت قيمها أي دخل في تقسيمها إلى أجناس شتى. بل هي أنواع لجنس واحد.

لقد كانت الدنانير الذهبية مختلفة الأنواع ومتفاوتة الوزن، حسب مصادرها المختلفة، وكانت الليرة الرشادية دون الليرة الإنكليزية في القيمة، ومع ذلك فقد ظلت جنساً واحداً نظراً لجوهريتها الذهبية التي حصرت فيها وفي الفضة ثمنية الأشياء.

ومن ثم فإن كلاً من ربا الفضل وربا اليد يجري في العملة الورقية عند الصرف والتبادل مهما اختلفت أنواعها، وكذلك الزكاة.

ومن توهم أنها أجناس متعددة لأحد السببين اللذين ذكرناهما، لا بد أن يتوهم جواز التفاضل فيها عند الصرف، بأن يبيع الصراف الدولار بالقيمة التي يشاء من العملات الورقية الأخرى دون أي ضابط أوحد. وهذا يجعل من إحدى العملتين سلعة ومن الأخرى ثمناً. كما أنه ينجي الصيارفة من الزكاة في العملات الورقية التي يملكونها بالغة ما بلغت، لأنها ستكون أجناساً متعددة، وهيئات أن يبقى أي جنس منها عنده إلى نهاية الحول. وإذا تحولت إحدى العملتين إلى سلعة وبقيت الأخرى ثمناً، فقد سقطت بذلك صفة جامع الربويين بينهما، فلم يعد يجري فيهما ربا اليد أيضاً!..

فليتق الله من يتذرع للوصول إلى هذه النتيجة، بافتراض العملات الورقية ذات الجوهرية الواحدة أجناساً متعددة لمجرد اختلاف الأسماء أو تفاوت الأثمان الذاتية فيما بينها.

[64] هذا أحد تفسيري للحديث للإمام الشافعي.

[65] رواه البخاري ومسلم.

[66] رواه أحمد من حديث ثوبان.

[67] كان هيجل أسبق إلى تخطيط فكرة الاشتراكية العامة من كارل ماركس، غير أن ماركس، جاء فغير فيها وبذل إلى أن صاغها نظاماً شيوعياً، وهو يزعم أن اشتراكية هيجل كانت منكسة على رأسها، فجاء هو فأقامها على قدميها.

[68] هذا، مع أن كلاً من الديمقراطية والإسلام، على طرفي نقيض، فالديمقراطية في معناها الأصلي الصحيح هي (حكم الشعب) أي أن يكون الدستور الذي يحكم الشعب منبثقاً من مجموع الشعب نفسه، والإسلام إنما هو (حكم الله المنزل على الشعب) وليس هذا فحسب، بل إن الديمقراطية كلمة خيالية لم يمكن تطبيقها في حين من الأحيان؛ إذ إن أسير سبيل لتطبيق رغائب جميع الأفراد هو أن يحشر كل عناصر المعارضة تحت قبة البرلمان، وتؤخذ جميع الاتجاهات بعين الاعتبار. غير أن النتيجة الحتمية لإنهاء

الموضوع بعد ذلك هي عرض الأمر على التصويت، والتصويت دائماً يهمل جانب الأقلية، ويلزمها باتتباع ما أبرمه الطرف الغالب؛ ولا يمكن أن يسمى ذلك الحكم المبرم - بحال من الأحوال - حكم مجموع الشعب. وانظر، فإنك ستجد عنصر المعارضة لدى أرقى الدول وأقربها إلى الديمقراطية المزعومة، في تذرر دائم، واستياء من اتباعهم لحكم الأكثرية الحاكمة.

أما شريعة الإسلام، فهي أسمى من مستوى هذا الضجيج كله؛ إنها صوت السماء ينادي المتعارضين والمختلفين أن دعوا الشقاق والخلاف، فليس الحكم للأكثرية منكم ولا للأقلية، وإنما هو إلى الله وحده يحكم في عبادته ولا معقب لحكمه. وحتى حينما تأمر الشريعة الإسلامية الخليفة باللجوء إلى الشورى فيما لا نص فيه، فإنها لا تعترف بنظام التصويت، وإنما هو مأمور باللجوء إليها للتبصر بمزيد من الآراء، ثم هو غير ملزم أن يأخذ بحكم أحد من الأكثرية أو الأقلية. مادام مجتهداً كما هو الأصل.

بيد أن الإسلام - وهو يلزم الناس بحكم الله وحده - يحقق أسمى صورة للمساواة بين الجميع في هذا الحكم الإلهي بحيث لا يمكن للخيال الديمقراطي أن يرقى إلى تصورهما بحال ما، فهو لا يختص بالامتياز حاكماً ولا محكوماً: إذا سرقت بنت محمد وجب قطع يدها، وإذا رمى الخليفة عمر شخصاً بالزنى وجب جلد الخليفة حد القذف ما لم يأت بتتمة الشهود الأربعة، وإذا رفع علي ابن عم الرسول مع يهودي إلى القضاء أمام الحاكم، لم يجز أن يختص ابن عم الرسول بمزيد من العناية والإكرام عن خصمه اليهودي، والخليفة لا يعود له من الأمر شيء والناس يصبحون في حل من بيعته إذا حملهم على معصية أو أرادهم على كفر.

وإن شريعة هذا شأنها لا ترضى لها قدسيته أن يلتصق اسمها بلغو كلغو الديمقراطية وما شاكلها.

[69] عد فافقرأ المقدمة التي كتبتها لهذه المجموعة التي تمثل بداية أعمال الفكرية إن كنت لم تقرأها.

[70] يقصد أن عبد الله مولى للحضرميين، والحضرميون موال لبني عبد شمس.

[71] راجع لسان العرب وشرح القاموس وتهذيب الأسماء واللغات.

[72] لا يحتاج قارئ هذا الكتاب إلى غير العقل وشيء من الوعي ليدرك مبلغ حقد المؤلف وتحامله على العرب والمسلمين. وبقيننا أنه ما ألف كتابه هذا إلا أملاً في فتنة يثيرها في صفوف المسلمين وطمعاً في صراع يوجده بين العرب والأعاجم ممن جمعهم الأخوة الإسلامية ليمزق وحدتهم ويشيع الفرقة فيما بينهم.

[73] راجع الكامل للمبرد ج2، فصل: الموالى عند العرب.

[74] راجع تهذيب الأسماء للنووي، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

[75] راجع الجزء الأول من الملل والنحل للشهرستاني عند الحديث عن الجهمية، ودائرة المعارف لفريد وجدي في مادة جهم.

[76] راجع هذا البحث في دائرة المعارف أيضاً لفريد وجدي في مادة (مرجئة).

[77] على أن الشهرستاني بعد أن نقل زعم الذين رموا الحسن بالإرجاء رد عليهم قائلاً: «... غير أنه ما أخر العمل عن الإيمان كما قالت المرجئة واليونسية والبيديية، لكنه حكم بأن صاحب الكبيرة لا يكفر، إذ الطاعات وترك المعاصي ليست من أصل الإيمان حتى يزول الإيمان بزوالها» أ. هـ شهرستاني في الملل والنحل.

وهذه العقيدة هي نفس ما يدين به أهل السنة والجماعة وجمهرة المسلمين، فما قال أحد منهم في يوم ما إن صاحب المعصية أو الكبيرة يكفر، وإذا كان هذا إرجاء فجميع أهل السنة من المرجئين، بل أنا أولهم، خصوصاً بعد ما نص الله تعالى في كتابه قائلاً: {وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِلَّهِ} [التوبة: 9/106] ومن هنا ألصقوا بأهل السنة والجماعة لقب (مرجئة السنة).

ثم تأمل أنت قول الشهرستاني الذي نقلناه الآن عن الحسن: «إنه ما أخر العمل عن الإيمان كما قالت المرجئة» تجد كيف أنه ينكر أن يكون الحسن منهم، فضلاً عن أن يتبنى القول بأنه كان أولهم.

[78] يعتبر إلى اليوم فن الرواية والدقة فيها، من خصائص الأمة الإسلامية، وبفضلها ظل تراث النبوة إلى اليوم في حصن منيع بعيد عن أيدي الأعداء والعابثين على كثرتهم ومكائدهم.. كما أدى هذا الفن دوراً هاماً في إيصال كثير من حقائق التاريخ وتراجم الرجال والبحوث العلمية نقيّة عن التزويد واللغو فيها.. وحتى حقبة غير طويلة كانت البحوث العلمية لا تتخذ صبغة التحقيق فيها ما لم تتمش مع مقتضيات هذا الفن من الدقة في الرواية وعدم الخطف فيها.

وإن رجال الغرب ليحسدونا على هذه الثروة أيما حسد. ويتمنى الباحثون فيه لو تآتى لهم تطبيقه لديهم لاستخدامه في كثير من بحوثهم، ولكن أنى لهم ذلك ومعظم عناصر هذا الفن قائم على الدقة والأمانة الخلقية والتجرد عن الأهواء والنزعات؟ وهذا ما لا يعرفه رجال الغرب والمستشرقون.

والعجب حقاً أن يذهل كثير من أمثال هذا الأستاذ - في غمرة لذة تقليدهم للغرب - عن الاستفادة من هذه الثروة الفنية الرائعة، فيسلكون في بحوثهم النهج نفسه، الذي يسلكه المستشرقون والأجانب، وهو منهج الاستنتاجات التي تعتمد في معظم الأحيان على الحسد والتخمين والتعلق بأي بارقة من رواية أو حكاية أو قيل! ولقد كان لهذا الخطأ الذي لا يغتفر أعظم أثر سيئ في ضياع كثير من المعالم الحقيقية في تاريخنا العربي والإسلامي، حتى أصبح الباحث عن الحقيقة في زوايا هذه الكتب الحديثة يتنبه في دوامة من الخلط والخطب والاستنتاجات الوهمية التي لا يعرف صادرها ولا واردها.

ولئن كان هذا النهج (الوهمي) يتماشى مع ما يهدف إليه الأجانب من الدس والافتراء والتمويه في حقائق تاريخنا العربي والإسلامي، فما هو الهدف الذي يتماشى مع هذا النهج نفسه لدى الباحث العربي المسلم؟!.

[79] أي من أهل السنة الذين يقولون: إن أمر صاحب المعصية مرجأ إلى الله، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

[80] ليس يخفى ما ينطوي عليه عمل هؤلاء المستشرقين من الخبث؛ فهم أولاً يزعمون أن المرجئة يعتقدون بأن المؤمن مؤمن وإن أعلن النصرانية ولزمها وأعلن الكفر بلسانه، ثم يزعمون أن أقدم مؤرخ للدين يقول: إن هذه الفرقة أقرب الفرق إلى الإسلام

الصحيح لكي يصلحوا بذلك بين الإسلام ومظهر الأديان الأخرى، فتأمل كيف يكون الخبث التبشيري!

[81] راجع الإصابة وعيون الأخبار وسيرة عمر بن الخطاب للطنطاوي.

[82] تهذيب الأسماء للنووي، وحياة الحيوان للدميري.

[83] ابن الأثير، وتهذيب الأسماء.

[84] لسنا نعني أن كل ما تنبئ به من المغيبات كأعمار الدول والأمم ومجموع عمر الزمن، وكالأخبار عن الملاحم وعن ظهور أشخاص يتحكمون في تغيير دفة الحكم وسير الدول، لسنا نعني أن كل ذلك صحيح، بل نحن لا نشك أن كثيراً من المغرضين والبسطاء جالوا جولة خرافية فيما يتعلق بالمغيبات، ولقد كان مصدر ذلك في صدر الإسلام بعض مسلمي بني إسرائيل.. ثم تحكمت في ذلك نوازع السياسة.

ولكننا ننكر كل الإنكار أن تتعلق الخرافة بخبر نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصل إلينا من الطرق الصحيحة السالمة عن أي ضعف أو دخل.. وذلك كهذا الأمر الذي نحن بصدده من الإخبار عن رجعة عيسى عليه السلام في عصر ما بآخر الزمن.

[85] أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهام واحد، يعني أن إيمانهم واحد وإن كانت شرائعهم مختلفة.

[86] أغلب الظن أن الأستاذ شاكِر مصطفى رحل إلى الله متحولاً عن الآراء الجانحة التي كان يتبناها في صدر شبابه، وأية ذلك أنه خدم التاريخ الإسلامي بعد ذلك خدمة كبيرة متميزة، وأبرز مكانة أبطال تاريخنا الإسلامي في كل ما بذلوه من جهود وتميزوا به من توضيحات في سبيل المبادئ والقيم. رحمه الله وغفر لنا وله.

[87] أعود فأذكرك بالتعليق الذي أثبتته في فصل من قبل، وما تضمنه من أن ذلك العصر شهد صراعاً بين مفهومين للقومية العربية، مفهوم متطرف يحاول إحلال القومية العربية محل الدين والاستغناء بالأول عن الثاني، ومفهوم منطقي معتدل يتضمن معنى الانتماء إلى الأرومة والأصل والاعتزاز بالرسالة التي تحملها القومية العربية إلى العالم، وهذا البحث من مفرزات ذلك الصراع آنذاك.

[88] ترى ما هو موقف (العميان الكبار) من أتباع الماسونية في بلادنا من هذه الحقائق؟ لعلهم لا يزالون عمياناً عن ذلك، يبصرون كل شيء من مصالحهم بعشرة أعين، إلا ما يتعلق بشرفهم ودينهم، فهم في هذا عمي وصم وبكم. أو لعلهم يعلمون عن ماسونيتهم كل شيء ولكنهم يكتفون من الشرف باسمه، ومن الوطنية بهتافها، ومن الدين بالنفاق فيه. أما والله لقد آن أن تمتد الأصابع إليهم بالكشف والتعيين. ولكن مهلاً!

[89] أقول اليوم: في خطاب ألقاه الرئيس حافظ الأسد رحمه الله في مادبة من المآدب الرمضانية التي كان يقيمها، ويدعو إليها معظم علماء الدين في سورية، قال: «مما لا شك فيه أن الإسلام هو الذي أوجد العروبة وخلصها، وليست العروبة هي التي أوجدت الإسلام وخلصته».